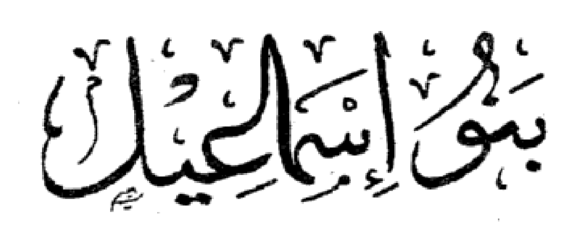
السيرة النبوية





عبد الحميد جوده السحار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَم اللهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(قرآن كريم سورة البقرة : ١٣٩ ، ١٤٠)

وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم ، الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم ، وهذه أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : بنايوت (نابت) بكر إسماعيل وقيدار ، وإذبئيل ، وميسام ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، وبطور ، ونافيش ، وقدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل ، وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم » .

(التوراة ــ تكوين ٣٥ ، ٣)

قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط .

١

أنفاس الدين تتردد فى جنبات مكة ، وقلب الإيمان يخفق فى أول بيت وضع للناس ، والفيض الروحى يومض فى قلوب المؤمنين فيرفع أحلامهم إلى ما وراء الطبيعة ، إلى هدف علوى تشتاق الأفئدة إليه وتقصر عن أن تبلغ مداه وإن جدت فى الطلب ، وإن اجتهدت فى العمل .

قيثارة الإيمان تعزف ألحانا تسمو بالمؤمنين إلى رحاب السماء فتبث فى نفوسهم قوة تدفعهم إلى العمل فى سبيل الله ، وتجعلهم يسيرون فى تناسق فى اتجاه واحد ، فإلـٰههم واحد وقبلتهم واحدة وغايتهم واحدة هى إعادة كلمة الله .

كانوا يعيشون لله وفى الله وبالله ، اشتعلت الشعلة المقدسة فيهم وأنار النور ــ الذى أنزله الله من السماء ــ طريقهم ، فإذا بالمجتمع الصغير الذى تكون حول بئر زمزم قد انصهر فى مجتمع واحد متناسق ، أفكاره واحدة وعقيدته واحدة ، اتحدت كلمته واتفقت نظرته واطمأن إلى أن المجتمع لله والأرض لله ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ .

وانحدرت الشمس لتغرب خلف جبال مكة فخرج الناس من خيامهم التى انتشرت على سفوح الجبال ، وراحوا يهبطون إلى الوادى المقدس ليطوفوا بالبيت العتيق .

وخرج نابت بن إسماعيل من خيمته وكان شيخا جليلا ، ولى أمر البيت بعد أبيه إسماعيل ؛ إنه من الصفوة خلاصة حضارتين عظيمتين ، حضارة بابل

ومصر ، فقد كان جده خليل الرحمن من أور وجدته هاجر من مصر ، وكان أول وريث للنفحة الروحية التى بثها فى مكة جده وأبوه .

تعلم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ، فكان يبارك قوافل التجارة الغادية إلى مكة والخارجة منها ، وفى نفس الوقت يغذى الوجدان الروحى النابض فى قلوب المؤمنين ، ويقيم حضارة المجتمع الجديد على تقوى من الله وأساس من الدين .

جاب إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها يدعو الناس إلى عبادة الله فى بابل وسورية وفلسطين ومصر وبلاد الحجاز ، وخرج إسماعيل لدعوة اليمن إلى الله الواحد القهار ، كانت دعوة إلى أخوة عالمية وإلى إقامة نظام عالمى تسوده شريعة الله ، فورث نابت الفكرة ولم يتعصب للقومية الجديدة التى كانت تتبلور حول زمزم والبيت المحرم ، بل كان يجوب الآفاق ويبعث قوافل المؤمنين إلى الأرضين دون أن يعترف بحواجز ولا حدود ، فالأرض كلها لله .

كان نابت من الطبقة الممتازة القادرة على حمل الرفاق إلى طريق الدنيا والدين ، إلى عز الحياة ونعيم الآخرة ، وكان صوته يفعل فى الجماهير فعل السحر ، كان يوقظ الهمم ويبعث الأمل ، فهو منذ أن ولدته أمه معقد الرجاء ، وقد نزل فى سويداء قلوب المؤمنين .

ونظر نابت حوله فرأى غنمه وغنم قومه قد غطت سفوح الجبال ، فلم تتهلل بالفرح نفسه ، ولم يسل لعاب طمعه ؛ فقد تحرر من عصبية القومية الاقتصادية يوم غرس فى نفسه أن المال مال الله ، والعاقبة للمتقين .

رأى الكعبة غارقة فى النور وإن كانت الشمس قد غابت أو أوشكت أن تغيب . كان الكون كله خاشعا فى محراب الله ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، وعباد الرحمن يشكرونه وعلى ربهم يتوكلون . والجبال تؤوب مع الساجدين ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه .

وأحس نابت رحابة فى نفسه ورقة فى وجدانه وأن روحه قد هامت لتتصل بروح الوجود ، وأنها سبحت فى بحور النشوة التى غمرت السموات والأرض ، وأن مشاعره كلها قد خرت ساجدة لله رب العالمين .

وألقي ببصره إلى بئر زمزم فإذا بالناس قد ازدحموا عندها : الرعاة قد وردوها ليسقوا غنمهم وإبلهم وماشيتهم ، والنسوة ينتظرن ليملأن جرارهن ، وإذا به يشرد ويتذكر هاجر جدته من كانت تملك البئر المباركة التى بدأت تتكون حولها أمة مؤمنة على نور من ربها وعلى صراط مستقيم .

نبض الوادى القفر بالحياة ، وخفقت فى ربوعه أرواح نفوس مؤمنة عرفت طريق الله ، وقام فى وسطه بيت مطهر تهفو إليه قلوب المسلمين ليكون منارة للعالمين ، فإن كان الله قد أمر خليله أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى هذا الوادى فقد كان ذلك لنبأ عظيم ، لأمر جليل . وما الله يريد ظلما للعباد .

وانحدر نابت إلى الوادى وهو يبتهل إلى الله .

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

وحانت منه التفاتة إلى شمال مكة فألفى خيام جرهم قد غطت سفوح الجبال بعد أن كانت خيامها قليلة متناثرة على عهد هاجر وإسماعيل . أصبحت جرهم قبيلة قوية وكان سيدها مضاض بن عمرو الجرهمى رجلا قوى الشكيمة له مكانته فى قومه لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والتفت إلى الجنوب فإذا بخيام قطوراء انتشرت كقطع الليل تغطى الأرض ، كانت قطوراء قبيلة من العماليق ، وكان سيدها السميدع قد استأذن هاجر أن تنزل قبيلته حيث نزلت فأذنت له ، على أن تقر بأن زمزم لها ولأبنائها من بعدها .

كانت البئر لهاجر ولكنها لم تكن ملكية خاصة ، فقد سمت عن أن تكون ملكية خاصة ، إنها للجميع يردها من يشاء لا يصد عنها إنسان . كل ما كان

لهاجر ولأبنائها من بعدها أن يصونوا حرية الشاربين وأن يكون لهم شرف سقاية حجيج بيت الله .

وراح نابت يهبط فى الجبل وقد ولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وانطلق ابنه يشجب فى أثره وأطبق شفتيه احتراما لصمت الشيخ الجليل وما يدور فى رأسه من أفكار .

كان نابت مشغول البال بمضاض بن عمرو وبالسميدع وبأطماعهما التى تطل برأسها بين الحين والحين ، إنه يطمع فى أن يؤلف بين قلوب الجراهمة وقلوب قطوراء ، بل يطمع فى أخوة الجنس البشرى بينما كانت أطماع الآخرين أن تنصب كل قبيلة نفسها سيدة على القبائل الأخرى .

إنه يخاف على قومه شر الانقسامات الداخلية لأنه على ثقة أن الشقاق هو السوس الذى ينخر فى عظام قومه ، وما كان يخاف عليهم أن يغزوهم قوم آخرون بل كان يخشى أن يكون بأسهم بينهم شديدا .

فإذا كان اليوم سيد قومه ، له ولاية البيت وسقاية الحجيج ، يدين له بالزعامة والولاء جرهم وقطوراء ، ترى أيدين عمرو والسميدع بالولاء لإخوانه وأبنائه من بعده ؟

إن عمرا صاحب أطماع ، ويزيد من خطره أن إسماعيل وبنيه تزوجوا نساء من جرهم ، فأصبح عمرو وقبيلته أخوال بنى إسماعيل وهذا شرف يطال به على قطوراء والعماليق ، ولكن السميدع رجل حرب بأسه شديد وسلطانه مبين ، بعد أن دانت للعماليق الشام ومصر .

إن دعوة إبراهيم لا يزال وهجها شديدا فى قلوب من نزلوا حول زمزم ، أيستطيع نور الإيمان أن يبهر وساوس الشيطان فى نفس عمرو وفى نفس السميدع ، أم تنتصر شهوات الدنيا وتقوم بينهما حرب ؟

وأفزع ذلك الخاطر الشيخ وزلزل كيانه ، أيكون فى الحرم — الذى يلوذ

به الخائف ويأمن فيه الطير — قتال ؟ أتسفك الدماء فى البيت الذى أقيم ليكون منارة للسلام ؟ أتنتهك حرمة البيت وفيه أحفاد الخليل ؟ جزع لذلك الوسواس فراح يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

والتفت الشيخ خلفه — وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا — فوقعت عيناه على ابنه يشجب ، فمد إليه يده وجذبه فى رفق وضمه إليه فى حنان ليقضى على القلق الموار فى جوفه ، وعلى الخوف من ذلك المجهول الذى استبد به .

ووقعت عيناه على منازل إخوته أسباط إسماعيل الصابر الأمين . إنهم أحد عشر زعيما ذوو قوة ومنعة ، تعلقت قلوبهم بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا كما تعلق به فؤاده ، فإن كانت أيامه على الأرض قد دنت فسيصون إخوته وبنوه حرمة البيت وسيظل مشرفا ما دامت السموات والأرض .

واستلم الحجر الأسود ، وراح يطوف بالبيت سبعا ، ويبتهل إلى الله ويدعو من أعماقه أن يصون بيته.وترقرقت العبرات فى مآقيه ، وكان كلما طاف بحجر إسماعيل حيث قبر هاجر وقبر أبيه ، يشرق بالدموع إذ كان مشفقا من فتنة تكون بعده .

وأتم طوافه وإذا بصوت يدوى فى أعماقه : إن للبيت ربا يحميه ، فاستشعر كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره وعاد لنفسه صفاؤها ورحابتها ، فذهب يصلى فى مقام إبراهيم وباب الكعبة أمامه وزمزم خلفه ، وقد عبق ما بين السماء والأرض بأريج أطيب من المسك لم يمتلئ به أنفه بل انتشت به روحه . وزاد فى طمأنينة فؤاده أن أحس كأن نورا انسكب فى وجدانه أنار بصيرته ، فقد كان على هدى من ربه .

جلس نابت فى الحرم وقد تهلل وجهه بالرضا ، وجلس يشجب إلى جواره ، وما إن رأى مضاض بن عمرو الجرهمى الشيخ الوقور حتى خف إليه

وجلس عنده يلقى السمع إل عذب حديثه . وسرعان ما هرع إليه السميدع بقلب سليم .

وجاء من كان فى الحرم من بنى إسماعيل إلى حيث جلس أمير القوم وشيخ الإسماعيليين وسلموا عليه فى توقير ، ثم جلسوا جميعا يصغون ، وإذا بصوت الزعيم يحلق بالمريدين فى فيض من الروح ويسمو بهم إلى هدف بعيد ، فنامت الأحقاد ودالت الدنيا إلى حين .

ودار الحديث عن القافلة التى تجهزت وتنتظر أن يأذن لها لتنطلق إلى مصر فإذا بأشواقه تتحرك ، فقد أقعدته السن عن أن يخرج مع الخارجين . إنه ضرب فى الشمال والجنوب والشرق والغرب وهبط إلى مصر ، فإذا كان قد استقر بجوار البيت فقد كانت الأرض كلها وطنه وقد مكنه دينه من أن يقضى على العصبية القومية السياسية ؛ فلم يعد يفضل أرضا على أرض أو شعبا على شعب .

وحانت منه التفاتة فرأى أخاه قيدار وابنه نبت يتحدثان مع كتّاب جلسوا عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، يكتبون الكتب ويبرمون العقود ويوثقون المواثيق ويشهدون رب البيت على ما اشترطوا من شروط ويسألونه أن ينزل غضبه على من خان أو ظلم ، فراح ينظر إلى أخيه وابن أخيه برهة وشع من عينه الحب العميق ، ثم عاد ليخوض مع من التفوا حوله فيما كان بينهم من الحديث .

وأقبل قيدار على الملأ مهيبا فخما عليه جلال لكأنما بعث إبراهيم خليل الرحمن من جديد ، كان أقرب آل إبراهيم شبها بجده العظيم ، فإن كانت ولاية البيت لغابت بكر إسماعيل فما كان سيل الضيفان لينقطع عن خيام قيدار السود .

كان قيدار ثانى أبناء إسماعيل وكان قريبا من قلوب إخوته وقلوب المؤمنين

لورعه وتقواه ، وما كان ابنه يشجب يفارقه فقد كان ينهل من بحر علمه ، وفسح الحاضرون مكانا للقادم الكريم ليجلس إلى جوار أخيه ، فانسل النبت ليجلس إلى جوار يشجب ابن عمه .

ودار الحديث وكان نابت بين لحظة وأخرى يلتفت إلى قيدار فيجده مشغولا عن عذب الكلام بأفكاره ، فمال عليه وقال فى رقة :

ــ ما الذى يشغل بالك يا أخى ؟

فانتبه قيدار من شروده وقال :

ــ الكتابة العربية .. إنها صعبة .. إن أبى رحمه الله يوم وضعها وضعها موصولة على لفظها ومنطقها .

ــ وما تريد أن تفعل بها ؟

ــ أريد أن أيسرها بأن أفرق بين ألفاظها .

ــ افعل بارك الله فيك .

تعلمت هاجر ــ أيام أن كانت أميرة فى مصر ــ الكتابة الهيروغليفية على أيدى كهنة منف ، وقد علمت إسماعيل صبيا تلك الكتابة عند بئر زمزم بعد أن أسكنها إبراهيم بوادى مكة ، فلما شب إسماعيل طوّر تلك الكتابة ووضع القلم العربى موصولا على لفظه ومنطقه ، وقد عزم قيدار على أن يفرق بين الألفاظ تيسيرا للكتابة ليخطو القلم العربى خطوة فى سبيل تطوره .

وقام نابت وقيدار فقام عمرو بن مضاض والسميدع ومن كان حاضرا من جرهم وقطوراء وبنى إسماعيل ، وانطلقوا إلى حيث كانت القافلة قد تجهزت للرحيل .

كانت القافلة تحمل البخور والطيب والفضة ، وشباب الإسماعيليين يتأهبون للانطلاق إلى وادى النيل ، فدنا نابت من شيخ القافلة وكان من بنى إسماعيل وقال له :

— هل جاءت الهدايا التى ستحملها إلى أبناء عمنا ؟

— نعم .

— وهدايا أختنا ؟

— إنها فى راحلتى .

كان المدينيون أبناء ابن عمه مدين ، وكان الأدوميون أبناء أختهم محلة ، وقد ولدتهم من ابن عمه العيص ، وسمى العيص آدم لأدمته فصار بنوه الأدوميين .

كان نابت على صلة طيبة بأبناء أعمامه جميعا ، وكان يرى فيهم ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة متألقة على تقوى من الله . فإن كانوا اليوم جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون لا بد أن يندمجوا يوما فى مجتمع واحد قوى ما دام إلٰههم واحدا وغايتهم واحدة ، وسيأتى اليوم الذى يسودون فيه بدينهم على كل الشعوب ويجعلون العالم أمة واحدة مؤمنة برب العالمين .

يا طالما زار عمه مدين وأخته محلة بنت إسماعيل ، وخرج إلى حبرون ليعزى فى موت عمه إسحاق ، وزار قبر الخليل ، واجتمع بابن عمه يعقوب وبنيه بعد أن عاد من حاران يحمل أهل بيته ، ويا طالما حاول أن يشد الأواصر بين بنى إسماعيل وبنى إسحاق ، فإن لم ينجح فى أن يحقق حلمه الجميل فى روح دين إبراهيم فقد كان على ثقة من أن ذلك الأمل سيتحقق فى يوم من الأيام .

كان قلبه عامرا بطاقة روحية رفعته فوق شهوات النفس وعرض الدنيا وزينة الحياة ، فحسب أن قلوب بنى إسماعيل وبنى إسحاق تطهرت من حب المادة ما داموا قد ورثوا دين إبراهيم ، وأنهم سائرون على الطريق .

وتلفت حوله فإذا به محاط ببنى إسماعيل وأخوالهم من جرهم وبرجال من قطوراء ، رآهم فى تلك اللحظة كأنهم على قلب رجل واحد فأشرق وجهه

بالرضا وأشار للقافلة أن تنطلق وهو يقول :

ـ سيروا باسم الله وعلى بركة الله .

وفصلت العير وانسابت قافلة الإسماعيليين فى محراب الكون فى رعاية الله بعد أن ألقوا نظرة وداع على البيت المحرم ، ووقف نابت يرقب القافلة وقد راودته أشواقه وحملته إلى حبرون ، وإذا بهمس يسرى فى وجدانه : « يعقوب ! إنك مبارك ، إنك من الصالحين . ترى كيف حالك يا يعقوب ؟ » .

٢

وقف يعقوب يصلى فى المحراب فى خيمة الرب التى أقامها جده الخليل فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان قلبه خاشعا لذكر الله . ولما أتم الصلاة راح يسأل الله أن يأتيه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ذهب إبراهيم الخليل و لم يترك فى حبرون إلا خيمة تقام فيها الشعائر ، فلم يأمره الله أن يقيم بيته فى حبرون ، بل بوأ له مكان بيته هناك فى مكة ، وأمره أن يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وعهد إليهما أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأمر إبرهيم أن يؤذن فى الناس بالحج يأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وقد فرض الله على الناس حجه و لم يفرض عليهم أن يشدوا الرحال إلى حبرون ، ولا جرم أن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقدر الله أن يكون لبنى إسماعيل شرف ولاية بيته وخدمة حجيجه ،

وجعل الله لكل أمة منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلـهـهم إلـه واحد ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

وأوحى الله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ما أوحى وفضلهم على العالمين ، فإن كان الله قد أكرمهم فبما قدمت أيديهم فقد عنت وجوههم للحى القيوم وأسلموا لله رب العالمين ، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

لا يفضل الله ذرية على ذرية ، ولا شعبا على شعب ، ولا أمة على أمة بل يصطفى من عباده المؤمنين ، كذلك يجزى المحسنين إنه كان خبيرا بصيرا .

وخرج يعقوب من الخيمة يتلفت حوله فألفى الوجود ساجدا فى معبد الرب ، يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد ، ولكن الكنعانيين قلوبهم غلف وفى آذانهم وقر ، عميت بصائرهم وقست أكبادهم ، وألهتهم التجارة والبيع عن ذكر الله فصارت غاية حياتهم جمع الأموال وإشباع الشهوات وجنى اللذات من كل محرم .

نهى جده خليل الرحمن ابنه إسحاق عن أن يتزوج فيهم ، وبعث اليعازر الدمشقى خازن بيت ماله إلى حاران ليخطب له رفقة ابنة عمه ناحور ، وأرسله أبوه إسحاق إلى بيت خاله لابان ليتخذ له زوجة من بنات خاله لتكون له ذرية طيبة لا يجرى فى عروقها دنس الكنعانيين .

وسرح خياله يسترجع ما فات فرأى نفسه شابا يافعا يدخل حاران ، ورأى راحيل عند البئر فخفق بحبها قلبه ، فانطلق إلى خاله يخطب إليه ابنته فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟

— لا ، إلا أنى أخدمك أجيرا ، تستوفى بذلك صداق ابنتك .

— إن صداقها أن تخدمنى سبع حجج .

— فزوجنى راحيل وهى شرطى ولها أخدمك .

— ذلك بينى وبينك .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبع سنين ، فلما أصبح وجد أن خاله زوجه ابنته الكبرى ليا وكان شرطه أن يزوجه راحيل .

وجاء خاله مغاضبا وهو فى نادى قومه وقال له :

— غررت بى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ، ودلست علىّ غير امرأتى .

— يا بن أختى أردت أن تدخل على خالك العار والسُّبة وهو خالك ووالدك ، ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهلم فاخدمنى سبع حجج أخرى فأزوجك أختها .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لخاله سبعا ، ولدت له فيها ليا أربعة : روبيل ويهوذا وشمعان ولاوى . ورأى ليلة تحقيق حلمه ، تلك الليلة المرتقبة التى دفع فيها خاله إليه راحيل ، كانت أسعد ليالى حياته .

وتأخر الولد على راحيل الحبيبة فوهبت له جاريتها بلها ، ووهبت له ليا جاريتها زلفة منافسة لراحيل فى جاريتها ، وترعرعت أسرته ودب الشقاق بينه وبين خاله وكان لا بد من الرحيل .

ورأى يعقوب وجه راحيل وقد تهلل بالفرح يوم ولدت له بعد اليأس يوسف ، ورآها وهو باسر حزين تجود بأنفاسها فى الطريق بعد أن ولدت له بنيامين . كانت راحيل أثيرة عنده ، وكان يوسف أقرب بنيها شبها بها فكان أحب أبنائه الاثنى عشر إلى قلبه .

وغام وجه يعقوب بسحابة من الحزن لما تذكر ذلك اليوم المشئوم الذى

خرجت فيه ابنته دينة من ليا تنظر نبات الأرض ، لقد رآها شكيم ابن سيد القوم وشغف بها حبا فاغتصبها بسلطان أبيه .

واتخذ شكيم دينه بنت إسرائيل زوجة ، إلا أن ذلك الزواج لم يمح ما لحق إسرائيل وبنيه من عار ، غضب وغضبوا ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا وهم قلة لا عصبية لهم ، إنهم غرباء فى فلسطين .

إسرائيل ! إنه ليذكر ذلك اليوم الذى سمى فيه إسرائيل ، كان فى طريقه إلى حاران إلى بيت خاله لابان قبل أن يلتمس من خاله أن يزوجه راحيل ، إنه نام فى الطريق فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه . ولقد أوحى إليه فى تلك الليلة أوامر السماء .

وسمع يعقوب حركة بالقرب منه فرفع رأسه ونظر ، ثم ما لبث أن هتف فى حب وحنان :

— يوسف .

وارتمى يوسف فى أحضان أبيه وراح إسرائيل يرنو إلى وجه ابنه ، فرأى كأنما قسم الحسن كله بينه وبين أمه راحيل ، وتذكر ذلك اليوم الذى قال فيه يوسف لإخوته رأيت فيما يرى النائم أننا نحزم حزما فى الحقل ، وإذا بحزمتى قد قامت واحتاطت حزمكم ، وإذا بحزمكم جميعا قد سجدت لحزمتى . ورن فى أذنيه أصوات أبنائه تقول ليوسف : لعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا .

كانت فى نبرات أبنائه الأحد عشر كراهية ليوسف ، بدت البغضاء من أفواههم فأشفق الأب على ابنه الأثير من عداوة إخوته ، فضم يوسف واحتواه فى أحضانه كأنما يحميه من خطر يوشك أن ينقض عليه .

ورفع يوسف رأسه ونظر إلى وجه أبيه ثم قال :

— يا أبت ! إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى

ساجدين .

قال :

— يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم .

واجتمع أبناء يعقوب يتشاورون قالوا :

— ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين.اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين .

قال يهوذا ، من سيصبح أبا لليهود :

— لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين .

وراحوا إلى أبيهم يستبقون ، فألفوه يسامر يوسف الحبيب ، قالوا :

— يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون .

قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذا لخاسرون .

وخرج يوسف مع إخوته — يتهلل بالفرح — ليرتعوا ويلعبوا ، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وراح أحد إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه .. لا يرى منهم رحيما ، ضربوه حتى كادوا يقتلونه فراح يصيح ويقول :

— يا أبتاه يا يعقوب ! لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء .

فتقدم يهوذا وقال :

— أليس قد أعطيتمونى موثقا ألا تقتلوه ؟

فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه ، فأخذوا يدلونه فى البئر فيتعلق بشفيرها ، فربطوا يديه ونزعوا القميص عنه فقال :

— يا إخوتاه ؟ ردوا علىّ قميصى أتوارى به فى الجب .

— ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك .

ودلوه فى البئر وألقوه فى مائها ، وراح يوسف يقاوم الغرق حتى بلغ صخرة فآوى إليها وأوحى الله إليه :

— لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . .

وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا :

— يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال :

— بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وانطلقت قافلة المدينيين فى الصحراء وعلى مقربة من البئر حطت رحالها ، وأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو ، فلما رآه الرجل اعتراه دهش لكأنما رأى آدم يوم خلقه الله بيده وصوره ونفخ فيه من روحه ، كان حسنه كضوء النهار ، أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر واسع العينين أقنى الأنف بخده الأيمن خال أسود ، توج — على حداثة سنه — بتاج الوقار ، فلما وجده الرجل قال :

— يا بشرى ! هذا غلام .

وأخذ الرجل يوسف وعاد به إلى راحلته ، ولما استأنفت قافلة المدينيين رحلتها انطلق يوسف معها . وبينما هو فى الطريق إذ وقعت عيناه على قبر أمه فلم يتمالك ورمى نفسه من على الناقة إلى القبر وراح يروى الثرى بعبراته ويقول :

— أمى راحيل ! انظرى يا أماه ماذا فعلوا بحبيبك ؟ ماذا لقيت يا أماه من بعدك ؟ نزعوا يا أماه عنى قميصى وفى غيابت الجب ألقونى . لم يرحمونى يا أماه وباعونى بيع العبيد ، إنى أسير يا أماه راحيل . إنى أسير .. أسير .

وجاء الرجل وانتزعه من فوق قبر أمه وهو يبكى ويصيح :

— أمى .. راحيل .. أمى .. أصبحت عبدا يا أماه .. عبدا .. عبدا .

وجاءت قافلة بنى إسماعيل ، إنها اجتازت جلعاد والتقت بقافلة المدينيين فى أرض شكيم . وعرض أبناء مدين بن إبراهيم الخليل على أبناء إسماعيل بن إبراهيم أن يشتروا الغلام فشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .

وانطلقت قافلة الإسماعيليين إلى مصر وقد حملوا يوسف ، وما دار بخلد أحد منهم أن ذلك الذى شروه ابن عمهم يعقوب ، ومن أين لهم أن يعلموا وقد كان يتحدث العبرية لغة الكنعانيين !

كان نابت بن إسماعيل يرى فى المديين وأبناء إسحاق وأبناء إسماعيل ورثة النفحة الروحية الذين سينتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبنوا حضارة عالمية على أساس من الدين ، وكان أمله فى المستقبل عظيما ، فهم وإن كانوا جماعات متفرقة إلا أنهم متناسقون ما أيسر أن يندمجوا فى مجتمع واحد قوى يدعو إلى الله وحده . كان ذلك حلم الشيخ العربى زعيم الإسماعيليين ، ولكن الأحداث كانت تباعد بين تلك الجماعات .

كانت لغة الإسماعيليين والمدينيين وبنى إسحاق واحدة ، كانوا يتكلمون

العربية وكانوا مسلمين . إلا أن بنى إسرائيل أخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية وهى وإن كانت فرعا من العربية إلا أنها كانت بداية الفرقة والاختلاف .

اجتازت قافلة بنى إسماعيل الحدود وانسابت فى أرض جوشن ومرت بمعابد « باسنت » إلـٰهة اللذة والمرح ، ورأى الرجال العاهرات المقدسات فغضوا من أبصارهم فقد رفعهم دينهم عن أن يتردوا فى الخطيئة استجابة لرغبات الأجساد .

ودخل يوسف مصر عبدا يتمزق من الحزن كما خرجت هاجر منها أمة تتمزق من الحزن ، وتلك إرادة الله ، والله فعال لما يريد .

وبلغت القافلة أواريس ودخلها يوسف أسيرا ذليلا كما دخلتها سارة من قبل ، وراح يقلب وجهه فى القصور والمسلات ومعابد « ست » إلـٰه القوم وقد طاف بذهنه ما سمعه عن قدوم جده الخليل إلى هذه الأرض ، ترى إن قال للقوم إنه حفيد ذلك الرجل المبارك — الذى خرجوا معه فراسخ تعظيما له وإجلالا — أيصدقونه ؟

وآثر أن يصمت ، فمن يصدق أن حفيد خليل الرحمن يباع فى الأسواق بيع العبيد ؟

واغتسل يوسف وألبسوه ثيابا جديدة وساقوه إلى السوق ، فإذا بوجهه يتلألأ نورا وإذا بكل من فى السوق يأتون يتنافسون على شرائه ، حتى قطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها جاء يبتاع من بهر حسنه ضوء النهار .

وترافع الناس فى ثمنه وتزايدوا حتى قال قطفير :

— أدفع وزنه مسكا وورقا وحريرا .

وابتاعه قطفير وفرح بنو إسماعيل بثمنه ، كانوا فى حاجة إلى الورق ليدفعوه إلى قيدار ليعلم أبناءهم فيه الكتابة .

وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته :

— أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

٣

خرج الرعاة فى عماية الصبح من دور نابت وقيدار وإذبئيل وإخوتهم أبناء إسماعيل ، تلك الدور التى بدأت تنتشر على سفوح الجبال المحيطة بالحرم ، وانحدروا إلى الوادى المقدس وقد امتلأت نفوسهم بالضياء المتألق من وراء الأفق ، فإن تكن شمس النهار لم تسطع بعد فقد نفذ شعاع الله المضىء إلى نفس المؤمنين .

انحدار الرعاة إلى بطن الوادى المقدس سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، قد امتلأت نفوسهم بنشوة الروح ورأت عيونهم فى الكون جمالا لا يحسه إلا من أحسوا بخفقات روح الوجود بين جنوبهم ، فقالوا بأفئدتهم وألسنتهم :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .

وراحوا يطوفون بالبيت سبعا ، وأقبل من شمال مكة أهل جرهم ، وتدفق من جنوبها أهل قطوراء فامتلأ الحرم بالطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأقبلت قافلة من اليمن وعادت قافلة من الشام فخف الرجال إلى الكعبة ليطوفوا بها ويسبحوا لرب العرش العظيم .

ألف الله بين قلوب المؤمنين فقويت الروابط الاجتماعية بين من أقاموا حول البئر ومن جاءوا ليطوفوا بالحرم ، وبدأ ميلاد حضارة بالوادى القفر الذى أسكن إبراهيم به هاجر وإسماعيل وجرهم وقطوراء ، وبين رجال القوافل الغادين الرائحين بين الشمال والجنوب ، وقد اعتصموا جميعا بحبل الله فاتحدوا بعد أن كانوا متفرقين .

وأقبل من الشمال مضاض بن عمرو وحوله شيوخ جرهم وشبابها ، وورد من الجنوب السميدع ورجال قطوراء ، والتقى أهل جرهم وأهل قطوراء عند الحجر الأسود فتبادلوا التحية ، ثم راحوا يطوفون بالبيت وقد اختلط بعضهم ببعض ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات إلى الله الواحد القهار ، وقد نامت الأحقاد واختفت البغضاء وعمرت القلوب بنور الإيمان .

وجلس الرجال إلى الرجال ينظرون فى أمر دنياهم بعد أن غسلت الصلوات أفئدتهم من أدران الغش والطمع والنفاق ، فإذا بالغايات الاجتماعية الطيبة تتحقق فى سماحة ويسر بعد أن ولجوا الحياة من أطيب أبوابها .

وخرجت جحافل الغنم من دور بنى إسماعيل وخيامهم فى طريقها إلى شعاب مكة لترعى وفى أثرها الرعاة والعبيد وصبيان القبائل ، فبدا كأن سفوح الجبال قد حجبت بصوف أبيض وأحمر وأسود ، وثار النقع وارتفعت سحب التراب تغطى الوادى كأنما ألقى عليه وشاح من رماد .

كان الرعاة بسطاء حفاة الأقدام فقراء ، بيد أن الدين الذى غرس فى وجدانهم بدل طرائق نظرتهم إلى الكون والحياة ، أمدهم بعلم جعلهم يتطلعون إلى أن يكونوا رعاة شعوب لا رعاة أغنام .

وخرج قيدار من داره بعد أن صار شيخا يتوكأ على ذراع ابنه النبت وعصاه ، كان يستشعر الوهن يسرى فى أعضائه إلا أن ذهنه كان نشيطا مشغولا بالخط العربى الذى وضعه أبوه إسماعيل موصولا ، وهو يريد أن يفرق بينه لييسره على الكنعانيين وغيرهم على السواء .

كان يمضى الهزيع الأول من الليل فى الصلاة وتلاوة ما تيسر من صحف إبراهيم ، وكان يستيقظ قبل دلوك الشمس يسبح لله ويدعوه بقلب سليم أن يلحقه بالصالحين إنه من عباد الله المؤمنين .

إنه على الرغم من شيخوخته لم يتنسك و لم يعتزل مجتمعه و لم يقرر أن يمضى

ما بقى من عمره فى صومعة يعبد ربه ، فقد لقن فيما لقن أن العمل عبادة ، وأن أسمى ما يرتقى بالروح هو مكابدة الحياة ، فملأت فكرة تيسير الكتابة العربية كل جوانحه وأضحت شغله الشاغل مع عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار ، فقد كان حب الله وخير مجتمعه يمتزجان فى نفسه امتزاجا يخدم الحياة ويفتح أبواب السعادة .

وفى لحظة من لحظات إشراق روحه وصفاء نفسه أنارت الفكرة وجدانه كأنها إلهام ألقى فى قلبه أو نور أضيئت به ظلمات نفسه ، فتهلل الشيخ بالفرح ودب فى الجسم الفانى نشاط عجيب .

وانطلق قيدار وابنه النبت إلى حيث كان صبيان الإسماعيليين يتعلمون القراءة والكتابة ، كانوا يكتبون فى ورق البردى الذى جلبته قوافل التجارة من مصر ، يكتبون كما علم إسماعيل أبناءه الكتابة ، فراح قيدار يعلمهم كيف يفرقون بين الألفاظ كما هداه الله . وسر الصبيان بذلك التبسيط وعكفوا على كتابة صحف جدهم خليل الرحمن متهللين مستبشرين .

وبرع يعرب بن يشجب بن نابت فى الكتابة الجديدة ، وما كان يعرب صبيا من الصبيان الذين يجتمعون خلف بئر زمزم فحسب ، يقرءون صحف إبراهيم ويكتبون فى ورق البردى وعظم أكتاف البعير ، بل كان مع ذلك شابا من أنبه شباب الإسماعيليين استهوته طريقة قيدار فى الكتابة ، فهجر نادى قومه وأقبل على الشيخ يتعلم القلم الجديد ، فقد كان على ثقة من أن ذلك القلم هو حجر الزاوية الذى ستقوم عليه حضارة آل إبراهيم .

وشرد ذهن الشيخ قيدار وهو جالس بين الصبيان خلف بئر زمزم ، فترقرق الرضا فى وجهه ، وشاع فى عينيه سرور عميق ، فقد تذكر أيام أن كان صبيا يجلس فى هذا المكان إلى جوار أخويه نابت وإذبيل أمام جدتهم هاجر تعلمهم كيف يكتبون حينا وتقص عليهم تاريخ مصر والمصريين حينا ، كانت

هاجر خيرا وبركة على هذا الوادى وكانت خيرا وبركة على آل إبراهيم .

وضج المكان بالابتهال وأوبت جبال مكة بدعاء المؤمنين ، فالتفت قيدار إلى الكعبة فإذا بالناس يموج بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب وهم يطوفون حول البيت ، كانوا لأول مرة فى تاريخ البشرية تجارا رهبانا تحكمهم شريعة الله وقانون الطبيعة ، فالله يشرق فى نفوسهم وعجلة الوجود تدور ، ولم تكن تدور فى فراغ إلى الأبد بل كانت تدور إلى غاية ، إلى إرضاء الله ، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

أدرك هؤلاء البسطاء حقيقة نفوسهم ، عرفوا طريق السعادة ، سرى قانون الله وقانون الطبيعة فى نفوسهم جنبا إلى جنب ، الوجود كله يدور بإرادة الله ، وهذه الإرادة لم تسلب الناس حق التصرف والاختيار بل تركت للناس أن يعملوا وأن يختاروا ، ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

* * *

وجاء يشجب بن نابت إلى عمه يسعى يبدو فى وجهه الأسى ، وقال فى صوت متهدج :

— إن أبى يموت .

وقبل أن يتم مقاله طفرت الدموع من عينيه ، واستشعر قيدار حزنا يشتعل فى كيانه وهما ثقيلا ينزل به وزلزل زلزالا شديدا ، لكأنما قد نعى إليه نفسه . إنه لم يفارق أخاه منذ تفتحت عيناه على الحياة ، فطالما لعب ورتع هو ونابت فى بطاح مكة ، وطالما خرجا معا فى قوافل الإسماعيليين إلى الشام ومصر واليمن ، كان كل منهما درعا للآخر ، سلاحا لأخيه ، وإذا بنابت يجود بأنفاسه ويتركه وحيدا وإن كانت قبيلته قد صارت فى عدد النجوم .

صارت ولاية البيت لنابت بعد موت أبيه إسماعيل ، فإن ذهب نابت فمن

الذى يقوم بولاية البيت ؟ إن نابت كان روحا يسرى فى مكة ، كان المحور الذى تدور حوله حياتها ، وها هو ذا نابت يوشك أن يغادر الدنيا فمن لمكة من بعده ؟

وأفاق من ذلك الضعف الذى طاف به ، إن روح الله تخفق فى صدور المؤمنين وفيض النور الإلـهى الذى سكبه الدين فى صدورهم لن يغيض ، فالقلوب كلها مفعمة بحب الله ، وإن ذلك الحب لم يكن صلاة فى معبد الكون فحسب بل تحول مع ذلك إلى أفعال اشترك فيها الجسد مع الروح : دعاء إلى الله وطواف حول بيته المعظم وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة ، ودعاء لله مخلصين له الدين . إنه الاتصال بروح الوجود كله .

وانطلق قيدار إلى دار أخيه وراح فكره يعمل ، إنه كان يعاون أخاه ويرحب بضيف الله ، ولكنه كبر وصار فى الغابرين فلا يستطيع أن ينهض بخدمة الحجيج بعد نابت ، ولا أن ييسر سبل الراحة لزوار بيت الله ، فولاية البيت فى حاجة إلى رجل مسموع الكلمة مرهوب الجانب قوى الشكيمة تتدفق فيه الحياة .

وراح قيدار يقلب الفكر ويزن رجال بنى إسماعيل ، إن إخوته : إذبئيل وميسام ومشماع ودومة ومسا وحيدار وتيما قعدت بهم السن وأمسوا شيوخا فانين ، وإن هى إلا سنون قليلة ثم يلحقون بأبويهم الكريمين وجدهم الخليل .

وطاف بذهنه رجال الطبقة الثانية من بنى إسماعيل : يشجب بن نابت والنبت بن قيدار ، وسرعان ما همس فى جوفه هامس : أيقوم بولاية البيت يشجب أو النبت وفى القوم مضاض بن عمرو والسميدع ؟! إن مضاض سيد جرهم وخال بنى إسماعيل ، والسميدع سيد قطوراء وهم من العماليق الذين دانت لهم مصر وسورية وفلسطين .

وسار قيدار يتوكأ على عصاه ويستند على ذراع النبت بين الحين والحين ، وسار خلفهما يشجب بن نابت ويعرب بن قيدار والوجوه باسرة والعيون دامعة ونار الحزن تشوى القلوب .

ودخل قيدار على أخيه وكان مسجى فى فراشه وحوله شيوخ بنى إسماعيل فأحس غصة فى حلقه ، فقد استولى عليه إحساس بأنه يفقد بفقد نابت أمه وأباه ، وأنه وهو شيخ كبير يذوق مرارة اليتم لأول مرة .

وراح قيدار يقلب وجهه الواله الحزين فى وجوه إخوته ، لقد وعد الله خليله أن يهب إسماعيل اثنى عشر رئيسا وقد صدق الله وعده ، فها هم أولاء بنو إسماعيل الاثنى عشر وقد صار كل منهم رئيس قبيلة ، وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا .

كان شيخ الإسماعيليين يموت وقد مات من قبله إسماعيل صادق الوعد فدمعت العيون ولكن القلوب كانت تسبح لله العظيم ، أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون .

وأشار نابت لإخوته وأبنائه أن يدنوا منه ، فلما اقتربوا قال فى صوت خافت :

— ما تعبدون من بعدى ؟

— نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل .

فهمس فى جهد :

— استعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

وشخص ببصره إلى السماء ودعا بدعوة جده العظيم :

— رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام .

٤

انطلقت زليخا امرأة العزيز فى ردهات القصر تتلفت ، فخف إليها أحد الخصيان وقال دون أن يرفع وجهه إليها :

ـــ ماذا تريد مولاتى ؟

فقالت فى لهفة :

ـــ أين يوسف ؟

ـــ خرج يا مولاتى إلى السوق .

كانت زليخا امرأة إطفير عزيز مصر ورئيس وزرائها ومذ جاءها ذات يوم ومعه يوسف بعد أن اشتراه وقال لها : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » وهى لا تطيق فراق الفتى الجميل فقد صار كل حياتها .

وجاء يوسف يسعى يتألق وجهه نورا عليه مهابة ووقار ، فلما وقعت عينا زليخا عليه هدأت نفسها وقالت له :

ـــ أين كنت ؟

ـــ فى السوق وقد اشتريت هذا .

وقدم إليها جعرانا فرعونيا فتناولته وقالت :

ـــ إنه جعل مقدس يوضع فوق قلب الميت .

ـــ وماذا كتب عليه ؟

فراحت تقرأ :

ـــ يا قلبى لا تقم شاهدا على .

ـــ ومتى يقوم قلبه شاهدا عليه ؟

— عندما يحاكم بعد الموت أمام محكمة أزريس إلـٰه الموتى .

وأخذت يوسف إلى جناحها وتناولت صفحة من صفحات البردى كانت فيها مناظر المحاكمة ومتن إعلان براءة المتوفى ، فلما رآها يوسف قال :

— إنها تباع لكل الناس .

فابتسمت زليخا وقالت :

— أي مذنب مهما عظمت ذنوبه يستطيع أن يشترى ورقة ويكتب فيها اسمه فيصبح مطهرا من الذنوب !

كانت نظرات زليخا إلى يوسف مزيجا من الحب والاشتهاء ، فكان يوسف يتحاشى أن ينظر فى عينيها فقال وهو يشيح بوجهه عنها :

— أهذا دين يؤمن به قوم يعتقدون أنهم وحدهم الناس ؟.

ودنت زليخا منه ولفت ذراعها من ورائه وبسطت صفحة البردى وقالت :

— هذه صورة لمحكمة أزريس وقد نصب الميزان فى الوسط ، يدير الإلـٰه أونوبيس — وله رأس كرأس ابن آوى — حركته من اليمين ، ومن خلفه الإلـٰه تحوت إلـٰه الحكمة — وله رأس كرأس أبيس — ووظيفته تسجيل حكم المحكمة ، وهذه التى فى أقصى اليمين هى « الملتهمة » وشكلها مفترس ، فهى تنتظر التهام الروح إذا ما صدر الحكم بإدانتها ، وهذا الواقف إلى يسار الميزان « القدر » ، وهاتان الواقفتان خلفه إلـٰهتا الولادة ، وهذا الداخل فى خشوع من أسفل اليسار المتوفى ، يحدق بنظره إلى قلبه وقد وضع فى كفة الميزان اليسرى ، ووضعت الريشة فى الكفة اليمنى .

— وما هذه الريشة ؟

— رمز الحق ، رمز العدالة .

— وما هذه الكتابة فوق الميزان ؟

— إنها صلوات يرجو فيها الميت قلبه ألا يخونه .

وراحت زليخا تقرأ :

يا قلبى يا من أتيت من أمى .

يا قلبى الخاص بكيانى .

لا تقفن شاهدا على .

ولا تعارضنى فى محكمة العدل .

ولا تكونن حربا علىّ أمام رب الموازين .

ولا تقولن علىّ زورا فى حضرة الإلٰه .

وبسطت زليخا بردية أخرى وقالت :

— انظر يا يوسف .

— وما هذه ؟

— صورة المتوفى يقاد بعد تبرئته أمام أزريس . أثبتت محاكمة الميزان براءته من كل ذنب عظيم . ها هو ذا المتوفى يقوده حور بن أزريس إلى حضرة أبيه الإلٰه الأعظم . .

— ولماذا يرتدى أزريس رداء أخضر ويجلس فى جوسق أخضر ؟

— لأنه إلٰه الخضرة .

— إنه فى شكل مومياء .

— لأنه مات ثم قام بعد موته يحاسب الأموات .

فقال وهو شارد :

— مثل بعل .

— بعل ؟ إلٰه البابليين ؟

— هم يعبدون بعلا فى بابل ، وفى سورية يعتقدون أنه أخذ أسيرا يوم كان ملكا على الأرض فساقوه إلى قاعة المحكمة ، وبعد أن حاكموه ضربوه ثم

انطلقوا به إلى الجبل ، وكان يحاكم معه ثلاثة من المجرمين فأطلق سراح مجرم وأخذ معه مجرمان ، وقد جردوه من ملابسه يوم قتلوه فتهدمت المدينة حزنا عليه ، وانكفأت امرأة على قبره تبكيه ، وإذا به ينهض من بين الأموات ويعود إلى الحياة ، وسرعان ما اختفى ليصعد إلى السماء ليصبح إلـٰها يدين البشر ، إنها أساطير الأولين .

وعادت زليخا تتحدث عن محكمة أزريس وهي سعيدة ما دام يوسف إلى جوارها يناجيها وتناجيه ، فحبه يتغلغل فى سويداء قلبها .

قالت :

ــ إن المتوفى بعد أن يؤكد أنه لم يقتل ولم يسرق ولم يزن ولم يطفف فى الميزان ولم يعب فى الذات الملكية ولم يسب الإلـٰه ، يخاطب آلـهة المحكمة الاثنين والأربعين قائلا :

ــ سلام عليكم يأيها الآلهة .

إنى أعرفكم وأعرف أسماءكم .

لا تبلغوا عنى شرا لذلك الإلـٰه الذى تتبعونه .

قولوا عنى الصدق أمام الرب المهيمن .

انظروا إنى آت إليكم بلا خطيئة وبلا شر وبلا ذنب .

إنى أعيش على الحق وأتغذى من عدالة قلبى .

وأحس يوسف بزليخا تضمه إليها فهب واقفا وهو يقول :

ــ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إلـٰه واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب

المستكبرين .

وبلغ يوسف أشده فتأهب لينطلق مع العزيز إلى مدينة بيت البقرة ، وكانت واحة فى الصحراء الغربية تمرح حولها الغزلان والطيور فكان عظماء الدولة يقصدونها للصيد والتسلية .

وخرج العزيز فى مهابته فخف العظماء يسعون إليه عند باب قصره منحنين ، الرجال الأول والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارو القرارات السرية الخاصة بالمحكمة ومستشارو الأوامر الملكية ومستشارو السماء ، فقد كان العزيز رئيس العظماء وكبير القضاة من يشرف على خزائن الأرض ومخازن الغلال ، وكانت كلمة من فمه الكريم تسعد الطامعين فى الألقاب الطنانة التى كلف بها المصريون .

وركب العزيز مركبة فخمة تليق بمقامه فى البلاد وركب يوسف معه ، وركب المركبات الأخرى قواد الجيش وحكام الأقاليم ، وانساب الركب فى الدلتا يقطع الأراضى التى تتخللها أفرع النيل كالشرايين ، وراح يوسف يرقب فى اهتمام القناطر والسدود والأعمال الهندسية العظيمة التى تنظم إيراد النيل وتتحكم فى مياهه .

بهرته هندسة الرى أكثر مما بهرته الأهرام وأبو الهول والمعابد والمسلات والقصور . واستمروا فى رحلتهم حتى بلغوا الفيوم فراح يوسف يقلب النظر فيها، فإذا بها مفايض للماء انتشرت عليها الطيور المائية ونبتت هنا وهناك الحشائش البرية، وسرعان ما تذكر المشروعات الهندسية التى مر بها على النيل.

وبلغ الركب مدينة بيت البقرة فى الصحراء فأقيمت حفلات الصيد للعزيز والذين معه ، وراح يوسف يفكر فى الفيوم ومستنقعاتها وفى طريقة إصلاحها لتكون مديرية جديدة تجود على البلاد بالخير العميم .

ومرت الأيام والأسابيع ثم عاد ركب العزيز إلى أواريس ، فهرع العظماء

والرفقاء والرؤساء والمستشارون لاستقبال رئيس العظماء وكبير القضاة ومن جعله الملك على خزائن الأرض . وبعد أن قضى الاستقبال الرسمى انطلق العزيز ويوسف إلى القصر .

كانت زليخا ترقب هذه العودة فى شوق عظيم ، أحست لوعة لفراق يوسف فقد شغفت به حبا ولم تعد تطيق أن يبعد عنها ، لم يفارقها طيفه آناء الليل وأطراف النهار فى اليقظة وفى المنام حتى باتت تخشى أن يفطن العزيز إلى خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ودخل العزيز عليها فقامت إليه ترحب به وتبالغ فى ترحيبها لتخفى ذلك الاضطراب الذى اعتراها لما علمت أن القصر احتوى يوسف الحبيب . ليتها تستطيع أن تترك العزيز وتطير بجناحى الحب إلى الفتى الوسيم الذى أسر فؤادها .

وفى الصباح خرج العزيز يصرف أمور الدولة قبل أن يذهب للقاء الملك الريان بن الوليد . وسرعان ما أرسلت امرأته إلى يوسف تطلب إليه أن يوافيها فى جناحها .

وجاء يوسف وقد أشرق كضوء النهار فأحست زليخا قلبها يدق فى حنان ، ورغبة عارمة فى أن تحتويه بين ذراعيها لتطفئ لهيب الشوق وحنينها إلى العناق .

رحبت به وأجلسته إلى جوارها وسألته أن يقص عليها ما فعله فى رحلته ، فراح يوسف يقص عليها ما رآه وهى تصغى إليه كأنما تستمع إلى موسيقى عذبة تنسكب فى وجدانها ، أو أجمل أهازيج الوجود تداعب روحها ، وراحت تتفرس فى وجهه ، إنه أجمل من إشراقة الصباح وإن كل خلجة من خلجاتها تهفو إليه ، وإنها تكابد شوقا طاغيا لا يقاوم طغيانه بشر .

وارتفعت يدها وهى مأخوذة وراحت تمررها على شعره وتقول فى وجد :

— يا يوسف ! ما أحسن شعرك !

— هو أول ما ينتثر من جسدى .

ونظرت فى عينيه نظرة طويلة ثم قالت :

— يا يوسف ! ما أحسن عينيك !

فأطرق وقال :

— هما أول ما يسيل إلى الأرض من جسدى .

— يا يوسف ! ما أجمل وجهك !

— هو للتراب يأكله .

ومالت نحوه لتضع شفتيها على شفتيه فإذا به يلوى عنقه عنها ويهب منتفضا من الرهبة ثم يسرع خارجا من غرفتها لا يلوى على شىء .

وجن الليل وزليخا تغدو وتروح فى مخدعها وقد استبدت بها رغبتها وعصفت بها عواطفها ، حتى همت بأن تنطلق إليه تروى ذلك الظمأ الذى استبدت بها حرقته لولا أن جاء العزيز يلتمس عندها الراحة والحنان .

وخر يوسف ساجدا لله وقد شرق بدموعه يعوذ به من همزات الشياطين . كان يخشى أن يضعف وأن تنهار عزيمته فيتردى فى الضلالة بعد أن هداه ربه إلى صراط مستقيم ، واستمر يدعو الله حتى غشيه النعاس وراح فى سبات عميق .

وعاد يوسف إلى جناح زليخا فى القصر فأقبلت عليه تحدثه بلواعج نفسها تتغزل فى حسنه وتناجيه وتحاول بعذب حديثها أن تستولى على حواسه وتغريه . فأطلقت لشهوات الجسد عنانها ، وعربدت النشوة فى جنبات نفسها فدنت منه وراودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت :

— هيت لك .

فأشاح بوجهه عن الفتنة الطاغية وقال :

— معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون .

ولفت ذراعيها حوله وقربت وجهها من وجهه واختلطت أنفاسها الحارة بأنفاسه فإذا بغشاوة تنسدل على بصره وبصيرته ، فلم يعد يحس إلا الجسد الذى التصق بجسده ، ولقد همت به وهم بها لولا أن انجابت الغشاوة عن وجدانه وأضاءت جوانب نفسه بنور ربه فرأى بشاعة ما كان مقدما عليه . كان كالطير يحلق فى أجواز الفضاء وإذا به يهوى إلى قرار سحيق ، لن يقدر أن يحلق بعد أن هوى أبدا ، وخيل إليه أن صوت يعقوب يدوى فى جنبات الغرفة يتلو ما قاله إبليس لربه : « قال رب بما أغويتنى لأزينـن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين » .

وارتعد يوسف بعد أن رأى برهان ربه واستدار ليفر من الغرفة فجرت خلفه ، واستبقا الباب وأرادت أن تجذبه ليعود إلى ما تريد فأمسكت به وقدت قميصه من دبر ، فلم يتمهل يوسف بل فتح الباب لينجو بدينه ويهاجر إلى ربه .

وألفيا سيدها لدى الباب وكان مقبلا مع ابن عم لها ، فلما رأت نفسها فى موطن الريبة قالت :

— ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟

فراح يوسف يحاول أن يستر جسده وقال :

— هى راودتنى عن نفسى .

وراح العزيز يقلب وجهه فيهما وهو حائر لا يدرى أيهما الصادق ، فقال ابن عمها :

— إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين .

وتقدم العزيز يفحص ويتأمل فلما رأى قميصه قد من دبر قال :

ـــ إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم .

والتفت إلى يوسف وزليخا وقال :

ـــ يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

وأمسك يوسف لسانه لم يذكر لأحد ما كان من امرأة العزيز ، إلا أن الخبر طار إلى البيوت وسرى بين الناس ، وقال نسوة فى المدينة :

ـــ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين .

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا لتقطع به ما قدمت لهن من فاكهة ، ثم ذهبت إلى حيث أمرت يوسف أن ينتظر وقالت له :

ـــ اخرج عليهن .

وخرج يوسف على النسوة فلما رأينه أكبرنه ففغرن أفواههن دهشة ، رأين حسنا تهفو إليه نفوسهن ، وقطعن أيديهن بالسكاكين وهن ذاهلات عن الفاكهة وقلن :

ـــ حاش لله ما هذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم .

ولما رأت زليخا الرغبة الجامحة فى عيون النسوة ، قالت :

ـــ فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين .

قال :

ـــ رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من

بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ، جاءت زليخا إلى العزيز تقول :

ـ إن يوسف لم يمسك لسانه ، إنه لم يعرض عن ذكر ما كان كما أمرته فلم يعد لى مقام هنا ، إنى راحلة .

كانت زليخا لا تطيق أن تلتقي عيناها بعيني من أذل كبرياءها ، كانت سيدته قبل أن تراوده عن نفسه فأصبحت ذليلة أسيرة بعد أن كشفت عن نفسها أمام الملأ وأمام نسوة المدينة ، نظرات الاحتقار التي يصوبها إليها يوسف أقسى من وقع السياط على جسدها ، إعراضه عنها ينكأ كل يوم جرح قلبها ، فأرادت أن تفر من واقعها الأليم فأخذت توسوس للعزيز حتى أصدر أمره أن يقبض على يوسف وأن يلقى به فى السجن سبع سنين .

٥

ولى مضاض بن عمرو الجرهمي البيت بعد نابت ، وكان فى عزة وكثرة وثروة بعد أن ضم بنى إسماعيل إليه فضم الشرف إلى كثرة الجراهمة الذين غصت بهم الجبال فى شمال مكة .

وكانت أمواله كثيرة ، عبيد وخيل وإبل وماشية ترعى بمكة وما حولها من وادى مر إلى عرفة على طريق الطائف ، وكانت تجارته تجوب الشام والعراق ومصر واليمن .

ولم تكن ولايته للبيت أمرا سهلا فقد وليه بعد إسماعيل ونابت ، اللذان أحبهما الناس ودانوا لهما بالطاعة ، فكان المجتمع الجديد الذى تكون حول البئر وخفقت فى جنباته ملة إبراهيم الخليل .

لقد كان إسماعيل أسعد حظا من كل من جاء بعده ، كان هو المحور الذى جمع حوله أهل مكة فكون منهم مجتمعا جديدا يسرى فيه حب الله وتظله روح

الدين ، فكان مجتمع الرضا والسعادة والصفاء ، ولم يكن لذلك المجتمع الناشئ تقاليد موروثة تثير الأحقاد وتنشب من أجلها المعارك بين القديم والحديث ، ولم يحدث فى هذا المجتمع ذلك الصراع الذى يكون عادة بين أنصار الماضى المتعصبين له وجنود الحاضر المتطلعين إلى السيطرة والاستبداد .

وكانت ولاية نابت للبيت امتدادا لحكم إسماعيل ، كانت عهد مصالحة بين المادة والروح فلم تطغ الدنيا على الدين وإن انتصرت الحياة على المادة فى ذلك المجتمع الجديد .

كان الإنسان منذ أن وجد على الأرض فى شوق إلى أن تمتد أطرافه وأن ينفسح مجال بصره وأن تتسع آفاق صوته وأن تشف روحه لتتصل بالوجود من حوله ، فاخترع السيف ليكون امتدادا لذراعه ، ونفخ فى النفير ليرسل صوته إلى آماد بعيدة ، وكان كل ذلك أمرا محدودا ، ما الروح فقد اتسعت حتى حوت الكون وما فوق الكون . وقد استطاع إسماعيل أن يستغل رحابة الروح فى رفاهية قومه وقيادتهم إلى طريق السعادة ، وقد نجح نابت فى أن يسلك الطريق نفسه ، فهل يستطيع مضاض أن يحافظ على وحدة المجتمع وأن ينهض به ليصعد ويصعد معه فى معارج رقيه ؟

صار الناس يحنون إلى الماضى بعد موت نابت وكانوا لا يفتئون يتذكرون أيام إسماعيل وابنه نابت ، وكان ذلك الحنين يشل القائد الجديد عن الإبداع ويعوق تجاوب القوم مع من أصبح زعيمهم .

ولم يكن الأمر فى مكة لمضاض وحده فإن كان قد ولى البيت فقد كان السميدع ينافسه ، بقى مضاض فى شمال الوادى المقدس وما جاز ، وبقى السميدع وقبيلته قطوراء فى الجنوب وقد ورمت أنوفهم لخروج ولاية البيت عن سلطانهم ، وسكتوا على مضض إلا أنهم كانوا يتحينون الفرص ويترقبون صروف الزمان ، فولاية البيت شرف تشرئب إليه الأعناق وتتيه به الأقوام .

وراح مضاض يحصل الأعشار من التجار الذين وفدوا إلى مكة من شمالها ، ليصرف منها على عمارة بيت الله وعلى ضيف الله وعلى سقاية الحجيج ورفادتهم ، وأخذ السميدع يحصل ممن وفدوا إليها من جنوبها ، فلئن حاز مضاض شرف ولاية البيت فلن يقر السميدع وقومه له بامتلاك مكة كلها ، فإن كان له سلطان على الشمال فللسميدع سلطان على الجنوب يفرض عليه ما يشاء .

وبينا الناس يتسامرون حول الكعبة قال رجل من قطوراء :

— من ذا مضاض الذى صارت إليه ولاية البيت بعد إسماعيل ونابت سبط إبراهيم الخليل ؟!

فقال رجل من جرهم :

— إنه ابن جرهم بن قحطان ، إنه ابن السيادة والشرف .

— ومن هو قحطان ؟

— هو ابن عبد الله أخى هود عليه السلام ، إنه طاهر من طاهر .

فقال نصير السميدع :

— وأين الثرى من الثريا ، إن السميدع بن عمليق بن لاود بن سام بن نوح عليه السلام . أصله فى السماء .

ورأى جرهمى آخر أن يشترك فى التنابذ بالألقاب فاشترك فى الحوار ، قال :

— كان فى سفينة نوح ثمانون إنسانا وكان فيهم جرهم ، إنه من ولد نوح ذرية بعضها من بعض .

واشتد الجدل بين الجانبين كل يحاول أن يعبد أصله إلى الدوحة الزكية ، إلى نوح عليه السلام ، بينا لاذ الإسماعيليون بالصمت فقد علمهم الخليل أن البشرية جميعا من آدم وآدم من تراب .

ونهض الجراهمة وراحوا يطوفون بالبيت قبل أن يعودوا إلى دورهم ، فارتفعت أصواتهم بالابتهال إلى الله ثم راحوا يؤكدون أنهم قلادة المؤمنين :

لاهـم إن جـرهما عبـادكا الناس طـرف وهـم قـلادكا

وانفض السمار واجتمع شيوخ جرهم يفكرون فى ذلك الحوار الذى اشتعل بين جرهم وقطوراء ، قالوا إن مضاض بن عمرو من نسل نوح فقالت قطوراء إن السميدع من نسل نوح ، لقد تساوى الرجلان واستويا على فرسى رهان . لم يعد لأحدهما فضل على صاحبه فإن أرادت جرهم أن تمكن لمضاض فى مكة فلا بد أن تجد ما يرجح كفته على كفة منافسه .

وعصر شيوخ جرهم أذهانهم وقلبوا الرأى فلم يجدوا أشرف من نوح ينسبونه إليه ، وصاح صائح فى يأس :

ـــ لم يبق إلا أن ننسبه إلى الملائكة .

وأضاء ذلك القول رأس أحدهم فقال فى حماس :

ـــ هذا هو الرأى .

واتجهت الأبصار تتفرس فيه ، أهازل هو أم جاد، فقال الرجل :

ـــ سأرفع نسب مضاض بن عمرو إلى الملائكة .

وارتفعت الأصوات :

ـــ كيف ؟

ـــ نقول إن جرهما ابن ملك من الملائكة وأن ذلك الملك أذنب ذنبا عظيما فهوى من عليائه.ونزعت منه روحانية الملائكة وصار كأبناء آدم ، ألقيت فيه الشهوة فتزوج امرأة من العماليق فولدت له جرهما .

ـــ وإذا سألونا ما اسم ذلك الملك ؟

ـــ فليكن عرعرا .

وكان شيخ يخشى أن يفتح القوم باب الأساطير فيفسد الدين فقال :

— ومتى هبطت الملائكة إلى الأرض ؟ هذا هراء .

ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وأعرضوا عنه ، واندسوا بين الناس يوهمونهم أنه إذا أذنب واحد من الملائكة هوى من عليائه وأن أباهم الأعلى كان ملكا فأذنب فهبط مكة وتزوج امرأة من العماليق فولدت جرهما . وانتشرت الأسطورة فى سرعة الريح ، وفتح شيوخ جرهم أول باب من أبواب الفسوق بعد الإيمان .

وحنق السميدع واستبد به الغضب بعد أن انتسبت جرهم إلى الملائكة ، قالت جرهم إن مضاض بن عمرو من نسل نوح فقال أنصاره إن السميدع من نسل نوح ، واليوم يزعم الجرهميون أن جدهم من الملائكة وأنهم من نسل السماء فماذا يستطيع أنصاره أن يقولوا بعد هذا ؟ إن ادعوا ما زعمت جرهم وقالوا إنهم أيضا من نسل الملائكة فسيتخذهم الناس هزوا .

و لم يخطر على بالهم أن يدعوا أنهم أبناء الله ولو فعلوا لضرب الناس رقابهم بسيوفهم ، فقد قام دينهم على أن الله واحد لا إلـٰه غيره لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد .

انتصر مضاض بن عمرو فى حرب الدعاية ، رفعته الأسطورة إلى مرتبة سامية تؤهله لولاية البيت ، فإن كان إسماعيل قد ولى البيت فقد كان بكر إبراهيم الخليل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وإن كان نابت قد وليه من بعده فقد كان وارث النفحة الروحية التى قام على صخرتها مجتمع مكة ، وها هو ذا مضاض يرتفع بأصله إلى السماء . وضاق السميدع بذلك الزعم ووطد النفس على أن يتمرد على هذا السلطان .

وراح السميدع وقطوراء يدحضون دعوة جرهم فى النوادى والمجتمعات ويحاولون ما وسعتهم الحجة أن يسفهوا ذلك القول ، إلا أن الناس فتنوا به .

وظهر للسميدع ألا جدوى من المحاجة ، ففزع إلى السيف . فخرج على

قومه وصاح صيحة الحرب فهبت قطوراء تتأهب للقتال ، فأخرجوا الجياد والرماح ، وخرج السميدع بقطوراء على ظهور الخيل الجياد فسمى المكان أجياد .

وتأهب مضاض فى جباله وخرج فى كتيبة عدتها الرماح والدرق والسيوف ، وقعقع قعقعة تتجاوب فى أرجاء مكة فسميت تلك الجبال قعيقعان .

والتقى الجمعان ودارت رحى معركة رهيبة سالت فيها الدماء فى مكة أم القرى التى حرم الله فيها القتال ، ورأى مضاض أن يضع حدا للمجزرة فتقدم الصفوف ونادى :

ــ يا سميدع ! أنا الملك مضاض بن عمرو فابرز لى ، فمن أظفره الله كان الملك له .

وخرج السميدع من صفوف قطوراء ومشى إليه مضاض وكأنه ليث كشر عن أنيابه ، كان كل منهما على ظهر جواده يدور حول غريمه مرهف الحواس كاتم الأنفاس يلتمس غفلة من صاحبه ليطعنه طعنة قاضية تضع أوزار هذه الحرب .

كانا صقرين يقظين وفهدين خفيفين ، وشد السميدع على مضاض شدة منكرة كادت تطير لها أفئدة جرهم ، وارتفعت أصوات قطوراء بالتهليل الزاخر بالفرح والأمل ، بيد أن مضاض بن عمرو اتقى الضربة وفى مثل البرق الخاطف سدد ضربة قاتلة إلى قلب السميدع .

وسقط السميدع عن ظهر جواده ، وقبل أن يمس الأرض عاجله مضاض بضربة كالشهاب ، وحملت جرهم على قطوراء حملة رجل واحد ودار القتال وسرعان ما انهزمت قطوراء . كانت تحارب بلا أمل فقد قتل قائدها ومن أرادت أن تكون له الزعامة فى البيت .

وولت قطوراء الأدبار وجرهم فى أثرها تضرب الرقاب ، وانفضحت قطوراء فسمى المكان فاضح .

وعاد مضاض إلى جبال قعيقعان مرفوع الرأس يقول :

ونحن قتلنا سيد الحى عنوة فأصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبغى أن يكون سواؤنا بها ملكا حتى أتانا السميدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته ندافع عنه من أتانا وندفع
ومن كان يبغى أن يلى : ذاك عزنا ولم يك حى قبلنا ثم يمنع
وكنا ملوكا فى الدهور التى مضت ورثنا ملوكا لا ترام فتوضع

وراحت جرهم تطوف بالحرم وتقول :

لاهم إن جرهما عبادكا القوم طرف وهم قلادكا

وانطلقوا إلى خزائن البيت — وكانت بئرا فى بطنه — وراحوا يلقون فيها الهدايا ، ألقى مضاض الذهب وألقت نسوة جرهم الحلى والمتاع ، وارتفعت الابتهالات حتى رجعت صداها جبال مكة .

كان بنو إسماعيل قد اعتزلوا الفتنة فلما انتهت الحرب مشوا بالصلح بين جرهم وقطوراء ، فسارت جرهم وقطوراء حتى نزلوا شعبا بأعلى مكة واصطلحوا هناك وأسلموا الأمر إلى مضاض ، فنحر للناس وطبخ لهم وأطعمهم فسمى ذلك الشعب المطابخ .

وانتهى أول بغى كان فى مكة .

٦

كان يوسف فى سجنه غريبا وحيدا بلا جنس ولا وطن ، بيد أنه كان يسبح لمن أشرق الفؤاد بنوره فإذا به يستشعر رحابة فى وجدانه وسعت الكون كله وسمت روحه لتتصل بروح الوجود ، وإذا به يأنس بربه ويحس تعاطفا مع كل ما حوله ، وإذا بالدنيا كلها وطنه ، وإذا بقلبه يتفتح للبشرية جميعا ويعطف حتى على هؤلاء الذين ظلموه .

كان سعيدا وإن كان يعيش بين جدران أربعة ، فروحه حرة لم ترزح تحت وطأة الدنس ، إنه فر من سجن الخطيئة إلى رحابة النفس المطمئنة ، خرج من ظلمات أحاسيسه الهابطة إلى فيض النور الإلـٰهى .

وراحت زهرة نفسه تتفتح فإذا بروحه قد شفت لتتلقى الحكمة التى تسكب فى ضميره ، وإذا بنور ربه يشيع فى جنباته فيملؤه طمأنينة ورضا ، وإذا بالفتى اليافع الجميل صاحب إرادة ونية وعزم وقصد .

كانت إرادته أن يتقى الله حق تقاته ، ونيته أن يخلص لله ، وعزم على أن يظل معتصما بحبل الله ، وقصد أن يهب نفسه لعبادته ويسير فى سبيله ، فجزاه الجزاء الأوفى وآتاه من علمه ، والله بكل شىء عليم .

كان يتعبد لله ويدعو من فى السجن إلى عبادته وحده ، ولم تكن كل ساعات ليله ونهاره عبادة وتسبيحا واستغفارا بل كان يفكر فى الفيوم وفى مفايض الماء تنتشر فى أرضها وفى طريقة تجفيف تلك المفايض وتنظيم ريها ، فلو نجح لأسدى إلى مصر خدمة جليلة ، فسيضيف إلى أرضها الخصبة مساحات

واسعة تزيد فى رخائها وتسعد أهلها .

وأدخل معه الريان ملك الهكسوس صاحب طعامه وصاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم فى الطعام ، فراح يدعوهما إلى الله ويذهب عنهما حزنهما ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما ، كان كالنبراس فى الليلة الظلماء .

وجاء صاحب شراب الملك فى الصباح وقال له :

ـــ إنى أرانى أعصر خمرا .

وقال الآخر :

ـــ إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .

قال :

ـــ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

كره يوسف أن يعبر لهما عما سألاه فقد فطن إلى أن مكروها يصيب أحدهما ، فعدل عن التأويل وقال :

ـــ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فقال صاحب شراب الملك :

ـــ نبئنا بتأويل ما رأينا .

ــ يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان .

وقال للذى ظن أنه ناج منهما :

ــ اذكرنى عند ربك .

إنه فى لحظة من لحظات ضعفه ابتغى الفرج من عند غير الله ، أراد أن يذكره صاحب شراب الملك لمولاه إذا ما كتبت له النجاة . ومرت أيام وأفرج الريان عن صاحب شرابه ، وصلب صاحب طعامه فقد ثبت أنه هو الذى دس له السم فى الطعام .

وراح صاحب الشراب يسقى الملك خمرا ونسى أن يذكر له أن فى السجن مظلوما حبس ظلما ، فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ، لأن الشيطان أنساه ذكر ربه لما سأل صاحب شراب الملك أن يذكره عند الملك .

وقام الملك من نومه مفزوعا وقال :

ــ إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون .

قال الكهنة والعرافون والمنجمون :

ــ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وقال صاحب شراب الملك الذى نجا منهما وادكر بعد أمة :

ــ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .

وانطلق إلى السجن حتى إذا التقى بيوسف قال :

ــ يوسف أيها الصديق ! أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يهتدون .

قال :

ــ تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما

تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .

وعاد صاحب شراب الملك بتأويل الرؤيا ، فلما قصها على الملأ من الكهنة والعرافين والمنجمين لزموا الصمت المبين ، وقال الملك فى إعجاب :

— ائتونى به .

وعاد صاحب شراب الملك إلى السجن وهو يتهلل بالفرح ، فربه قد أمر بإطلاق يوسف من سجنه ، وما إن رأى يوسف حتى قال والبشر يترقرق فى وجهه :

— أمر ربى بإطلاق سراحك ، إنه يريدك .

وأبى يوسف أن يغادر السجن ، لقد سجن بهتانا وزورا ولن يغادر سجنه قبل أن تعلن على الملأ براءته فقال لصاحبه :

— ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم .

وبعث الملك إلى امرأة العزيز وإلى النسوة اللاتى أعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقال :

— ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟

كان ضمير زليخا وضمائر النسوة قد عذبتهن طوال السنين التى قضاها يوسف فى سجنه ظلما فقلن :

— حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

قالت امرأة العزيز :

— الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم .

وقال الملك :

ــ ائتونى به أستخلصه لنفسى .

وجاء يوسف و لم ينس ما شغل به سبع سنين ، إنه فكر فى الفيوم ودبر وأمكنه بالوحى والحكمة والهندسة أن يصل إلى خير السبل لتنظيم ريها . وعمل ودبر وإذا بالمفايض تخرج ثمرات مختلفا ألوانها تسر الناظرين .

وكلمه الملك وقال له :

ــ إنك اليوم لدينا مكين أمين .

قال :

ــ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

وأصبح يوسف على خزائن الريان بن الوليد وصار القاضى الذى يحكم بين الناس بالعدل . ومات العزيز فورث يوسف منصبه وقصره وتزوج امرأته .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

و لم تؤثر نعومة الحياة ولا إقبال الدنيا فى خلق يوسف فقد زاد تواضعا لله وراح يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فآمن بالله قوم كثير ، فقد كان يوسف أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

وكان كلما كلم الريان بن الوليد يزين له الإسلام ويدعوه إليه ويحببه فيه؛ فكان الريان يلقى إليه سمعه وينشرح صدره لحديثه : واستمر الحوار بينهما موصولا حتى أسلم الريان وجهه لله رب العالمين .

عرفت مصر التوحيد أيام إدريس قبل أن يوحد مينا الوجهين البحرى والقبلى فى أمة واحدة ، وقبل أن يكون رع ملكا على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ليكون إلـٰه الشمس يعبر السموات فى مركبته الإلـٰهية من

الشرق إلى الغرب .

وعرفت مصر التوحيد أيام أن جاء إليها إبراهيم الخليل ينقذ سارة من الأسر ، فقد ناقش مستشارى أسرار السماء وكهنة أواريس ومنف فى أمر الدين ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وها هو ذا يوسف ينشر بين الناس فى الدلتا أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون .

واقتحمت دعوته دور الكهنة فى طيبة ومنزل وحى الإلـٰه آمون فى سيوة ففتحت أمامهم آفاقا جديدة ، جعلتهم يعيدون النظر فى أمور دينهم وتعدد آلهتهم ، وراح قول يوسف : « يا صاحبى السجن ! أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يقرع أذهان الكهنة الصادقين الذين يبغون وجه الحقيقة ، ويزعزع إيمانهم فى رع وبتاح وأزريس وإيزيس ، بل وفى آمون حامى حمى طيبة والمحافظ على استقلال الجنوب من غارات الهكسوس !

وولدت زليخا له أفرايم وميشا ، ومضت السنون السبع المخصبة والمصريون يزرعون دأبا ، فما حصدوا ذروه فى سنبله ، ودخلت السنون المجدبة وقحط الناس ، وأصاب آل يعقوب فى حبرون المجاعة فبعث يعقوب بنيه إلى مصر وأمسك أخا يوسف بنيامين ليكون بقربه ، فما كان يطيق فراقه بعد أن فقد يوسف الحبيب .

وانطلقوا إلى مصر مع المنطلقين ، فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ، فالتفت إلى رجاله وأمر بأن يوقر لكل رجل من إخوته بعيره ، فقال

له إخوته :

— لنا أخ بقى إلى جوار أبينا وهو شيخ كبير .

كانوا يطمعون فى حمل بعير لبنيامين ، فقال لهم يوسف لما جهزوهم بجهازهم :

— ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون .

قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون .

وقال لفتيانه :

— اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون .

وذهب فتيان يوسف إلى رحال إخوته ودسوا فيها ثمن ما اشتروا من طعام . كان يوسف يرجو أن يرجعوا إذا ما وجدوا أنهم لم يدفعوا ثمن ما أخذوه ، فقد كان لا يزال يثق فى ضمائرهم بعد ما فعلوه معه يوم ألقوه فى البئر لتلتقطه بعض السيارة .

فلما رجعوا إلى أبيهم شكوا إليه أنهم لم يحصلوا على نصيب بنيامين ، وقالوا :

— يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون .

قال :

— هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وجدوا ثمن ما أخذوه فى رحالهم ، فلم يفكروا فى العودة كما كان يرجو يوسف بل قالوا :

— يا أبانا ما نبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد

كيل بعير ، ذلك كيل يسير .

رأوا أن الثمن الذى رد إليهم يفوق كثيرا كيل البعير ، لم تعد المسألة مسألة ضمير وحقوق بل أصبحت موازنة بين كيل البعير وقيمته وبين الثمن الذى وجدوه فى رحالهم ، ولم يقبل يعقوب ما رأوه بل أمر برجوعهم إلى مصر ليسددوا ثمن ما أخذوا ، ودارت المشاورة بينه وبينهم حول بنيامين قال :

ـــ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم .

إنه لم يقبل منهم عذرا أن يعودوا من غير بنيامين إلا أن يهلكوا جميعا ، فأقسموا على ذلك ، فلما آتوه موثقهم قال :

ـــ الله على ما نقول وكيل .

وتحركت أبوة يعقوب فقد كان يحبهم من سويداء قلبه وكان يخشى أن يصيبهم مكروه ، فقال :

ـــ يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

ولما دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولما دخلوا على يوسف التفتوا إلى بنيامين وقالوا :

ـــ هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به .

ـــ قد أحسنتم وأصبتم وستجدون جزاء ذلك عندى .

ونظر إلى إخوته الأحد عشر وقال :

ـــ إنى أراكم رجالا وقد أردت أن أكرمكم .

فدعا صاحب ضيافته فقال :

— انزل كل رجلين على حدة ، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما .

ثم نظر إلى بنيامين وقال :

— إنى أرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس معه ثان ، فسأضمه إلىّ فيكون منزله معى .

وأنزل أخاه معه فأواه إليه ، فلما خلا به قال :

— إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

فلما جهزهم بجهازهم جعل الإناء الذى كان يشرب فيه الملك فى رحل أخيه ، فلما ارتحلوا أذن مؤذن :

— أيتها العير إنكم لسارقون .

قالوا وأقبلوا عليهم :

— ماذا تفقدون ؟

قالوا :

— نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم .

قالوا :

— تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، فلو كنا سارقين ما رددنا ثمن الطعام الذى وجدناه فى رحالنا .

قالوا :

— فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟

قالوا :

— جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين .

فبدأ يوسف بأوعيتهم قبل وعاء أخيه .

لم يكن حكم الريان ملك مصر وقضائه أن يُسترق السارق بما سرق ، وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا بعلة كادها الله له فاعتل بها .

قالوا :

ـ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

والتفتوا إلى بنيامين وقالوا :

ـ يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء ، متى أخذت هذا الصواع ؟

فأسرها يوسف فى نفسه و لم يبدها لهم . قال دون أن تتحرك شفتاه :

أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون :

قالوا :

ـ يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين .

قال :

ـ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون .

وظلوا يسألونه أن يطلق بنيامين ويأخذ بعضهم مكانه وهو يأبى أن يأخذ بريئا بسقيم ، فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم شمعون :

ـ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون .

وعادوا إلى حبرون وقالوا لأبيهم ما قال شمعون ، فقال يعقوب :

ـ بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم .

وتولى عنهم وقال :

ـــ يا أسفى على يوسف .

وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا :

ـــ تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين .

قال :

ـــ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وذهبوا إلى مصر يحملون الصنوبر ليقايضوا ببضاعتهم ما عند يوسف من طعام ، فلما دخلوا عليه قالوا :

ـــ يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

قال :

ـــ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟

قالوا :

ـــ أإنك لأنت يوسف ؟!

قال :

ـــ أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا :

ـــ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين .

قال :

ـــ لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا

بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين .

قال يهوذا الذي سيصبح الجد الأعلى لليهود :

ــ أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب ، وأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره بأنه حي فأقر عينه كما أحزنته .

وفصلت العير وانطلقت من أواريس إلى حبرون ، وقبل أن يصل البشير إلى يعقوب قال أبوهم :

ــ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون .

قالوا :

ــ تالله إنك لفي ضلالك القديم .

فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال :

ــ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟

قالوا :

ــ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .

قال :

ــ سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم .

وخرج يعقوب في سبعين راكبا من أهله وساروا إلى مصر . وقبل أن يدخلوها خرج يوسف ليلقاهم وارتمى في حضن أبيه وامتزجت دموعه بدموعه .

وآوى إليه أبويه وقال :

ــ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين .

وبلغوا مصر وذهبوا إلى قصر يوسف ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال :

ـــ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .

رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .

٧

عادت قوافل بنى إسماعيل إلى مكة تحمل خيرات مصر والشام ، فأسرع الناس إلى العائدين يطفئون نيران الشوق ويسألون عن أخبار الرحلة ، وانطلق رجال القوافل إلى الحرم ليطوفوا به قبل أن يعودوا إلى دورهم وليشكروا الله على ما آتاهم من فضله إن الله سميع عليم .

كان بنو إسماعيل يعيشون أتقياء إلى جوار بيت الله . كانوا يحسنون التوكل على الله فيما لم ينالوا ، ويحسنون الرضا عما قد نالوا ، ويحسنون الصبر عما قد فات . وكانوا يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، فقد لقنوا أن الكسب عبادة وأن العمل عبادة ، فكان العمل والتوكل على الله يسيران جنبا إلى جنب فى مجتمع مكة الجديد يتناسقان ولا يتنافسان ، ويدفعان بالشعب الجديد ليكون بمثابة الرأس لما يحيط به من شعوب .

كانوا يعملون ويجوبون الآفاق فى طلب الرزق ، وكانوا فى ذات الوقت يؤمنون بأن الله هو الرزاق ، فهو الذى يرزق الجنين فى بطن أمه والدود فى جوف الحجر والطير فى السماء ، فلم يعانوا من الخوف والقلق واللهفة على أرزاقهم ولم يحسدوا أحدا على ما آتاه الله من فضله . فنعموا بالسعادة وراحة البال .

وجرت الأموال فى أيدى بنى إسماعيل فلم يفرحوا بما آتاهم الله من فضله ، فقد كانوا فى قرارة نفوسهم يؤمنون بأن المال ليس غاية بل هو وسيلة ليخدموا به ربهم ومجتمعهم الذى ضاقت به رحاب مكة ، وصار فى حاجة إلى بذل

الكثير .

زهدوا الدنيا فتركوها من قلوبهم ، ولكنهم لم يلبسوا مسوح الكهنة ويعتزلوا الحياة بل كانوا يخوضون غمارها وهم على ثقة من أنهم سيؤجرون على كفاحهم وعلى مكابدة حياتهم .

كان الكنز الروحى الذى عمرت به قلوب بنى إسماعيل نبراسا لهم ، فلم يفتنهم عن حقيقة واقعهم ، ولم يتملكهم الغرور فيعبدوا ذواتهم الفانية باعتبار أن ذلك السمو الروحى الذى بلغوه بعملهم وكدهم امتياز خلعه الله عليهم ، بل كانوا موقنين من أن عهد الله لا يناله الظالمون .

وجلس يعرب بن يشجب بن نابت فى حجر إسماعيل يرنو إلى الكعبة ويسبح لله ، وكان الرضا يتألق فى وجهه والصفاء يترقرق فى عينيه ، فقد تعشق النور الإلٰهى فانعكس على محياه ، وتعلق قلبه بالحقيقة المطلقة الخالدة فشرح الله صدره ، إنه عليم بذات الصدور .

كان يعرب قد خلف الشباب وراءه وصار شيخا كبيرا من شيوخ بنى إسماعيل ، تعلم على عمه قيدار الكتابة بالطريقة الجديدة التى وضعها عمه ، طريقة الفصل بين الألفاظ بعد ما ورثوها عن جدهم إسماعيل موصولة الكلمات .

كان يعرب يمضى أغلب وقته فى الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة يكتب العقود والمواثيق ، ويعلم صبيان الإسماعيليين الكتابة الجديدة التى كانت تتطور على مر الأيام ، وكان يخرج مع القوافل ويسير فى الأرض وينظر كيف كانت عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين .

وراودته فكرة الخروج إلى العراق مع الخارجين ، كان فى شوق لأن يرى أور مدينة جده إبراهيم فما أكثر ما سمع عما كان بين جده وقومه وما كان منه

يوم أن حطم الأصنام فى معبد نانا إلـٰهة القمر ، وجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون .

واستولت الفكرة على الشيخ الكبير حتى إذا تجهزت القافلة الخارجة إلى بابل خرج معها وهو قرير العين ، وكان من قبل قد طهر نفسه ، كان قد سما فى عبادته فإذا سأل الله لا يسأله شيئا لذاته بل كان يفر منه إليه ويعوذ به منه ، يفر من مقته إلى رحاب رحمته ويعوذ بمغفرته من غضبه والله غفور رحيم .

وانسابت القافلة فى محراب الكون فإذا بيعرب يحس تعاطفا مع كل ما حوله ، كان شروق الشمس يجعله يتهلل بالفرح وكان غروبها يحرك كل جوارحه بالتسبيح لرب الناس ملك الناس . وكان ضوء القمر ينير قلبه فيعقل أسرار الوجود ، وكان النور الصافى الذى يكسو الصحراء يقوى الإيمان فى فؤاده فيخفق بين جوانحه بالتقديس لبديع السموات والأرض .

وبلغت القافلة أور فراح يعرب يمد بصره إلى البحر وإلى أبراج المعابد ويملأ رئتيه بهوائها وهو سعيد ، كان يشم عبير الماضى التليد ، عبير جده الخليل وهو يسرى كالروح فى أور الكلدانيين ، ونزل يعرب عن صهوة جواده وهو يتلفت فإذا بالخيل تضرب بحوافرها أرض أور ، وفى مثل لمح البصر طافت بقلبه فكرة : إن جده إبراهيم لم ير هذه الجياد وهى صاعدة هابطة من بلده إلى بابل وإلى بلاد ما بين النهرين تحمل البضائع وأثقال الناس إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

لم يكن إسماعيل قد ذللت له الخيل العراب بعد ، ولم يكن أحد من البشر قد اعتلاها قبله ، ولم يكن العرب قد اتخذوا من إسماعيل قدوة وعملوا على استئناس الخيل . جاء الحصان إلى هذه البلاد مع من وردوها من العرب وقد أطلق عليه البابليون فى أول الأمر : الحمار القادم من البدو .

ونظر ناحية النهر فإذا بسفن كبيرة لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تتهادى

بما حملت من القمح والزيتون والأخشاب والبخور ، وحانت منه التفاتة فإذا بأناس قد تجمعوا عند النهر وقد قبضوا على امرأة طأطأت رأسها فى ذل وتسليم ، فذهب ينظر ما يكون .

وهم الرجال بإلقاء المرأة فى النهر فقال يعرب لرجل وقف إلى جواره :

ـــ ماذا تفعلون ؟

ـــ نحكم الإلـٰه .

ـــ فى ماذا ؟

ـــ فى هذه المرأة التى زنت .

ـــ إنها ستغرق إن كانت تجهل العوم .

ـــ إن كانت بريئة فسينقذها الإلـٰه مردوخ ، هذه شريعة حمورابى شريعة السماء .

ولم ينتظر ليرى إن كان إلـٰههم سينقذها أو سيتخلى عنها ، كانوا يسمون ذلك العبث التحكيم الإلـٰهى ويؤكدون أن إلـٰههم شرع هذا الجزاء يوم أوحى إلى حمورابى بقانونه .

وسار فى طرقات أور وهو شارد اللب حتى إذا ما وصل إلى معبد عشتار رأى العاهرات المقدسات يمارسن الزنا إرضاء لعشتار ، فعجب فى نفسه كيف يلقى بالزانية فى الماء أو فى النار لتنقذها الآلهة إن كانت بريئة بينا الزنا يمارس باسم الدين على مرأى من رجال القانون والكهان !

ودخل إلى معبد عشتار إلـٰهة الجمال والحب واللذة ، وإلـٰهة الحرب ، وإلـٰهة الأمومة الرحيمة ، والعنصر الخلاق فى كل مكان .

واشتد عجبه إذ كيف تجمع إلـٰهة كل هذه الصفات ؟ كيف تجمع بين العهر والأمومة الطاهرة ؟ كيف تصور عارية تقدم ثدييها للرضاع ، وتصور ملتحية تجمع بين صفات الذكران والإناث ؟ ثم يخاطبها عبادها بعد ذلك :

بيأيتها العذراء المقدسة ويأيتها الأم العذراء .

ورأى رجلا يصلى لها فى حرارة فدنا منه وألقى إليه سمعه ، فإذا بالرجل يسبح بحمدها تسبيحا أذهل يعرب وعقد لسانه من الدهشة :

ــ أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا عشتار ، يا ملكة المدائن كلها ويا هادية كل الرجال .

أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا بنة سين العظيم .

ألا ما أعظم قدرتك وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين !

أنت تحكمين وحكمك عدل .

وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .

وقوانين الهياكل والأضرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والغرف الخفية .

أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ؟ وأين البقعة التى لا تعرف فيها أوامرك ؟

إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة .

إنك تنظرين إلى المظلومين وتنصفين فى كل يوم المهانين المحقرين .

إلى متى يا ملكة السماء والأرض إلى متى ؟

إلى متى تتمهلين يا راعية الرجال الشاحبى الوجوه ؟

إلى متى أيتها الملكة التى لا تكل قدماها والتى تسرع ركبتاها ؟

إلى متى يا سيدة الجيوش ، يا سيدة الوقائع الحربية .

يا عظيمة يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة الغضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك .

يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجمل سناك !

يا نور السماء البراق يا نور العالم ، يا من تضيئين كل الأماكن التى يسكنها بنو الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم .

يا إلـٰهة الرجال ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول .

حيث تتطلعين تعود الحياة إلى الموتى ويقوم المرضى ويمشون ويشفى عقل المريض إذا نظر إلى وجهك .

إلى متى أيتها السيدة ينتصر علىّ عدوى ؟

فأمرى فمتى أمرت ارتد الإلـٰه الغضوب .

إن عشتار عظيمة ، عشتار ملكة ! سيدتى جليلة القدر ، سيدتى ملكة ، ابنة سين القوية ، ليس لها مثيل .

وانسل يعرب من معبد عشتار وراح يرقى فى مرتفعات أور فقد كان فى طريقه إلى معبد نانا إلـٰه القمر ، وانساب فى الحرم المقدس ثم دخل المعبد فإذا بأصنام الآلهة فى كوات وإذا بكبيرهم مردوخ فى وسطها ، وراح يراقب الرجال الساجدين والكهنة وهم يطلقون البخور ، ويصغى إلى المغنيات اللاتى كن ينشدن للآلهة فأحس رغبة فى أن يحطم الأصنام كما فعل جده العظيم ، وأن يصيح فى القوم كما صاح : « إنى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » . كان مؤمنا عميق الإيمان ولكنه لم يكن يملك الشجاعة التى يضعها الله فى قلوب المرسلين .

وغادر يعرب أور وخرج مع القافلة المنطلقة إلى بابل ، وكانت القافلة تسير على شاطئ النهر فى الحقول وكانت الثيران تجر المحاريث والفلاحون يزرعون ويحصدون ومياه النهر تقطع الشاطئ بمناجلها البيض ، وسرت القافلة فى معبد الله ليالى وأياما حتى لاح برج بابل للعيون ، وسرعان ما انسابت القافلة من باب عشتار إلى بابل العظيمة ، جنة العرب .

وذهب يعرب إلى السوق وكان الرجال سود الشعر سمر البشرة ملتحين ، يضعون على رءوسهم شعرا مستعارا أو يضفرون شعرهم فى ضفائر تنوس على أكتافهم .

كانوا يرتدون مآزر من الكتان فوقها عباءات ، وكانت أثوابهم ملونة بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق على هيئة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . وقد أخذت هذه الثياب الملونة عيون التجار القادمين من جزيرة العرب فقد كانوا يعرفون الصبغة الفرعونية التى كانت تصبغ بها الثياب فى أرض كنعان ، أما هذه الألوان فقد كانت شيئا جديدا .

واندس التجار العرب يبيعون ويشترون ، وراح يعرب ينظر ويسمع ، سمع كثيرا عن عشتار ومردوخ وآلهة البابليين وعن قانون حمورابى ، عرف عشتار أنها على الدوام فى غواية وحب ، أحبت ذات يوم أسدا فأغوته ثم قتلته ، وشغفت بتموز حبا حتى إذا ما قتل هبطت خلفه إلى العالم السفلى إلى الأرض التى لا رجعة منها . وعلى الرغم من الأساطير التى نسجت حول آلهتهم فقد كان يعجب من بعض الملامح التى كانت فى دين القوم ودين التوحيد .

ولم يطل عجبه فقد اهتدى إلى أنها بقايا دين نوح ، إنهم يتحدثون عن الطوفان ويذكرون تفاصيله بيد أنهم قالوا : إن كل من نجا منه أضحى خالدا لا يعرف الموت ، وإن شماش إلـٰه الشمس كان أحد هؤلاء الناجين .

وكان فى شوق إلى قراءة قانون حمورابى ذلك القانون الذى سرى سريان الأنفاس فى أرض بابل . إنهم يقدسونه تقديس المؤمنين لصحف إبراهيم . فانطلق إلى أسطوانة من الحجر على أحد أوجهها حمورابى وهو يتلقى القوانين من شماش إلـٰه الشمس . إنها شرائع منزلة من السماء .

وراح يعرب يقرأ كيف أن الآلهة نادت حمورابى لكي ينشر العدالة فى العالم ويقضى على الأشرار والآثمين ، ويمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ، وينشر النور فى الأرض ويرعى مصالح الخلق .

واستمر يعرب فى قراءة القانون حتى أتى عليه وقرأ فى ختامه :

« إن الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حمورابى ، التى أقام بها

فى الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ... أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، فى قلبى حملت أهل الأرض سومر وأكد ... وبحكمتى قيدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة .. فليأت أى إنسان مظلوم له قضية أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذى على أثرى ، وليلق باله إلى كلماتى الخطيرة ! ولعل أثرى هذا يكون هاديا له فى قضيته ، ولعله يريح قلبه فينادى : « حقا إن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ، لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة .

ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل ، يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى » .

ووقف يعرب أمام الأثر التذكارى يفكر وهو يعجب : من أين جاءت إلى حمورابى كل هذه الحكم ؟ أيكون ما بين شريعة حمورابى وشريعة السماء من تشابه هو بقايا شريعة نوح ؟ و لم يطل عجبه فالشرائع السماوية كلها واحدة منذ آدم حتى إبراهيم ، وأن تلك الشرائع لم تذهب عن الأرض بل حملت بأساطير الشعوب ، إنها مصدر كل ما فى القوانين الأرضية من رحمة وعدل .

وكان يعرب ممن درسوا الخط العربى الجديد على يد عمه قيدار فكان مهتما بالقلم البابلى ، إنه قلم مسمارى ، فالتجار ورجال الدولة ورجال الدين يكتبون بقلم مدبب على ألواح من الطين ثم يتركونها تجف أو يجففونها بالنار . لم يعرفوا ورق البردى و لم يستخدموه فى الكتابة كما عرفه المصريون وعرفه المجتمع الذى نشأ حول بئر زمزم بفضل جدتهم العظيمة هاجر المصرية .

وملأ أذنيه وقع حوافر الخيل فى طرقات بابل فإذا بقوافل الجياد تنطلق إلى أسواق جنة العرب، فشرد ذهنه وراح يفكر فى الخير العميم الذى جنته بابل من استئناس إسماعيل للخيل، صارت مركز تجارة العالم وتكدست الثروات بها .

وتلفت يعرب حوله فرأى كل شيء ينطق بالبذخ ، ولم يحسد بابل على غناها بل رثى لها ، فاشتغال الكهنة بالتجارة ومغالاة التجار فى الربا وانتشار الجشع فى قلوب أبنائها ، كل ذلك ينذر بقرب الكارثة . أصبح من المستحيل التوفيق فى مجتمعها بين التقوى والشره الذى جعل فوائد القروض عشرين فى المائة ، وفوائد البضائع ثلاثة وثلاثين فى المائة .

كانت بابل دولة قوية على رأسها حكومة قوية تسندها ثروة تجارية ضخمة ، إلا أن عين يعرب كانت ترى السوس ينخر فى أعمدة هذه الدولة ، كان الترف هو الخنجر الذى سوف تنتحر به الأمة التى تتألق كالتاج فوق شعوب العرب .

وعادت قافلة بنى إسماعيل إلى مكة تحمل الأقمشة التى طرزت بمهارة والثياب التى صبغت بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق . وما إن لاحت أرباض أم القرى حتى طفرت الدموع إلى مآق الشيخ يعرب ولم يملك نفسه حتى نشج بالنحيب .

وخف رجال القافلة إلى الكعبة يطوفون بها ، وخر يعرب ساجدا لله رب العالمين .

٨

أو لم يوسف الصديق ليعقوب وإخوته وليمة فخمة تليق بعزيز مصر رئيس وزرائها وقاضي قضاتها ومن جعله الريان على خزائنها ، دعا إليها الرجال الأول فى دولة الهكسوس والعظماء والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارى الأوامر الملكية ورجال الجيش ومستشارى أسرار السماء ، فغص قصره بالقضاة ورجال القصر الملكى وكهنة المعابد ووجهاء من آمنوا بدين التوحيد الذى كان يدعو إليه يوسف بالحكمة والموعظة الحسنة .

وراح يعقوب وبنوه يتحدثون إلى القوم فى ود وقد فتحوا لهم قلوبهم ، وساد جو الحفل المحبة حتى إذا ما دعوا إلى الطعام وجدوا أن يوسف فوق بين أبيه وإخوته وبين المصريين وجعل لكل من الفريقين طعاما ، وحمد يعقوب ليوسف ما فعل فقد كره يعقوب أن يأكل من طعام لم يذكر اسم الله عليه .

وراح يعقوب وبنوه يأكلون مطمئنين ، ولم تدم الراحة التى فاضت فى صدورهم طويلا فقد علموا أن المصريين هم الذين أبوا أن يأكلوا معهم على مائدة واحدة ، فهم يعتبرونهم نجسا ويرون أن سكاكينهم وقدورهم وسفافيدهم نجس حتى إنها تنجس الضحية الطاهرة إذا ذبحت بها أو وضعت فيها .

وبذرت فى صدر يعقوب بذرة الخوف من المستقبل ، أسكنهم الريان بن الوليد أرض جوشن الطيبة فى شرق الدلتا ترويها قناة خرجت من النيل لتصب فى البحر الأحمر وراحت غنمهم وإبلهم وسائر مواشيهم ترعى فى الأرض الخصبة دون منازع ، ولكن كراهية القوم لمقدمهم بدت من أفواههم وأفعالهم

وما تخفى صدورهم أكثر .

وراح يعقوب يفكر فى مصير أبنائه الذين هبطوا مصر ، كانوا فى حبرون غير مستقرين يخافون أن يتخطفهم الكنعانيون ، وقد جاءوا إلى مصر ليعيشوا فى حماية يوسف فماذا يكون مصيرهم إذا ذهب يوسف ؟

إنهم فى أرض جوشن ينعمون بالسلام ولكنه ليس سلاما دائما ، فمن حولهم أناس لا يأكلون معهم فى جفان واحدة إذ يرون أنهم نجس ، لهم حضارتهم ولكن لهم معتقداتهم ولهم ضلالتهم أيضا ، فإما أن ينسى بنو إسرائيل ربهم ويندمجوا فى القوم ويؤمنوا بما آمنوا به ويعودوا للضلالة بعد الهدى ، وإما أن يثور المصريون عليهم فيبيدوهم أو يخرجوهم من ديارهم .

وفكر يعقوب فى بنى إسماعيل وكانوا أسعد حالا منه ومن بنيه ، أقامهم الله فى مجتمع جديد لم تكن له سابقة فشبوا أحرارا من شوائب حضارات من قبلهم فلا خوف عليهم من أساطير من سبقوهم ولا من معتقداتهم ، قد كفلوا مصائرهم وأسلموا وجوههم لربهم .

ألا ما أكثر الآلهة والأساطير فى أرض النيل ؟ إيزيس حملت من أزريس بعد مقتله ، نفخ فيها من روحه ثم صعدوا جميعا إلى السماء ليكونوا آلهة للمصريين ، البقرة حتحور أرضعت الطفل حور بن أزريس من إيزيس فصارت حتحور البقرة المقدسة وفاضت بركتها على إناث البقر فلم يعد المصريون يأكلون لحم إناث البقر تكريما لها واعترافا بجميلها ، وصارت حتحور رمزا لإيزيس .

إيزيس أحب الآلهة إلى قلوب المصريين قهرت الموت بالحب ، وأكدت للناس الذين يؤمنون بالبعث بعد الموت أن ذلك لهو اليقين ، فقد جمعت أشلاء زوجها أزريس بعد أن قطعه أخوه ست إربا إربا ، ونجحت فى أن تجعل أزريس يقوم من الأموات وأن يبعث حيا مرة أخرى .

وصارت إيزيس أم الإلـٰه ، وراح المؤمنون بها يصلون لتمثالها وهى ترضع ابنها حور ، وصار أزريس رمزا للخصب ما دام قادرا على أن يضع فى بطن إيزيس ابنه بعد أن قتله أخوه ست الشرير !

رع إلـٰه الشمس يقطع المستنقعات السماوية كل يوم فى سفينته الإلـٰهية من الشرق إلى الغرب ، وبتاح الإلـٰه الذى خلق الكون أدار البيضة التى نشأ منها العالم على عجلة الفخار .

وأصغى يعقوب وبنوه إلى تمجيدات رع :

ـــ الصلاة لك يا رع عند الشروق ويا أتوم عند الغروب.إنك تشرق وتشرق وتسطع متوجا كملك الآلهة ، أنت رب السماء ورب الأرض الذى خلق الكائنات العليا والسفلى .

أيها الإلـٰه الأوحد الذى كان منذ البدء ، الذى أنشأ العالم وخلق البشر ، والذى أنشأ ماء السماء وخلق النيل . والذى أنشأ ما فيه .

وعجب يعقوب وبنوه من المصريين وآلهتهم ، فما أكثر ما غادر المصريون بلادهم ورأوا الشمس تبزغ من خلف أبراج بابل تنشر ضياءها على أرض شنعار كما رأوها تبزغ من خلف مسلات منف وطيبة وتنشر ضياءها على وادى النيل ، وعلى الرغم من ذلك ظل إلـٰههم فرعونا محليا يحكم أرض الفراعين ، ولم يعرفوا ذلك الإلـٰه الذى يسيطر على العالمين .

قالوا إن رع خلق العالم وخلق البشر وأنه رب السماء ورب الأرض ، بيد أن عالمهم كان الدلتا ومجرى النيل ، وكانت سماؤهم سماء مصر وأرضهم أرض مصر ، وكان الفرعون الإلـٰه يصون مصر وحدودها ويسهر على أمنها وأمن أبنائها وما كان له سلطان خلف الحدود .

وطمع يعقوب فى أن يأتى نصر الله ويدخل المصريون فى دين الله ويؤمنوا بأن الله واحد لا إلـٰه إلا هو فى السماء والأرض . وأن يكون بنوه نبراس الهدى

الذى يهدى إلى دين الحق ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .

واستقر يعقوب وبنوه فى جوشن بالقرب من منديس مدينة باسنت إلـٰهة المرح واللذة ، وأعرض بنو يعقوب عن عبادة الإلـٰهة ذات رأس القطـة ومجونها ، بيد أن الهكسوس اشتركوا فى عيد باسنت وشربوا وعربـدوا ورقصوا وغرقوا فى الشهوات حتى آذانهم ، فعادت المخاوف إلى قلب يعقوب فقد رأى فيما فعلوا الخنجر المصوب إلى قلب حكمهم ، ذلك الخنجر الذى سوف ينتحرون به قبل أن يهب المصريون لطردهم من بلادهم .

الحضارة كالحياة كلاهما فى صراع دائم مع الموت ، كان الهكسوس يصارعون الفناء وإن أسرفوا فى الترف والفسق ، وكان يعقوب يصارع سكرات الموت وقد التف حوله بنوه روبيل وشمعان ولاوى ويهوذا وإخوتهم ، وجاء يوسف يعود أباه فاكتمل عقد الأسباط فصاروا اثنى عشر رجلا يرنون إلى أبيهم الشيخ الكبير فى حب وإشفاق .

وأشار يعقوب إلى يوسف أن اقترب ، فدنا يوسف من أبيه فقال له يعقوب :

— إذا مت فادفنى إلى جوار جدى وأبى .

وسرى صوت إبراهيم فى أذنى يعقوب كأنما كان آتيا من مكان سحيق ، ورآه بخياله الكليل يوم أوصى إسماعيل وإسحق ويعقوب :

— يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

كان يعقوب يموت مسلما كما أوصاه الخليل ، كان يموت على ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، وكان الأسباط مسلمين لم يكونوا هودا ، فيهودا الذى سيصبح جدا لليهود ينظر مع إخوته إلى أبيه وفى العيون دموع وفى القلوب حزن عميق .

وراح يعقوب ينظر بعينين واهنتين إلى بنيه ، حتى إذا ما حضر يعقوب الموت قال لبنيه :

ــ ما تعبدون من بعدى ؟

قالوا :

ــ نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون .

وفاضت روح يعقوب فانهمرت الدموع من العيون ، فقد مات إسرائيل وإن كانت وصيته ترن فى آذانهم وتنسكب فى وجدانهم وتنفعل بها نفوسهم فتتحرك ألسنتهم :

ــ آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وحمل جسد يعقوب الطاهر ليحنط . فقد أوصى ابنه يوسف عزيز مصر أن يدفن هناك فى حبرون إلى جوار جده الخليل وأبيه إسحاق وراح الحناطون يستخدمون التوابل والمر وسائر أنواع الطيب إلا البخور ، حتى إذا انتهوا من عملهم غطوا الجثة بالنطرون أربعين يوما ثم غسلوها وأخذوا يلفون الجسم كله بشرائط من الكتان الشفاف مغطاة بالصمغ . وبذلك تم تجهيز الجثة لتنقل إلى الخليل .

واستأذن يوسف الصديق الريان بن الوليد فى أن يخرج ليدفن نبى الله يعقوب فى الخليل فأذن له ، فخرج يوسف وإخوته يحملون جثمان أبيهم . وراح المصريون يبكون الشيخ المبارك ، وانطلق أكابر المصريين وشيوخهم مع يوسف إلى فلسطين .

واعترض الكنعانيون الجنازة وقاوموا دفن يعقوب فى أرضهم ولكن الجنود المصريين الذين كانوا مع يوسف شقوا طريق الجنازة بأسيافهم حتى

انتهوا إلى قبر الخليل .

ودفن يعقوب إلى جوار إبراهيم وإسحاق ، وعاد يوسف وإخوته إلى مصر ليمضوا أيامهم على الأرض ، وما إن دخل يوسف محرابه حتى راح يدعو الله :

ـ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة ، توفني مسلما وألحقني بالصالحين .

٩

كان خلفاء إسماعيل يعيشون فى تناسق فى مجتمعهم الذى كان ينمو على مر الأيام ، فلم يدع بنو إسماعيل أنهم ورثة النفحة الروحية وحدهم ، ولم يحاولوا أن يغتصبوا الحق الإلٰهى ، ولم يبلغ بهم الزور أن يدعوا أنهم وحدهم الناس وأن يعبدوا ذواتهم من دون الله ، بل كانوا فى قرارة نفوسهم يؤمنون أن لا فضل لهم على من سواهم إلا بالتقوى ، وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

وكانت ولاية البيت لجرهم ، كانوا حكام مكة يحكمون بما أنزل الله ، ولم يكونوا كهنة لهم نفوذ دينى يمكنهم من استغلال الناس باسم الله بل كانوا جميعا يعملون لإرضاء الله وإدراك غاية روحية مشتركة .

وكانت قطوراء قد سكنت إلى الدعة بعدما كان بينها وبين جرهم من قتال فى سبيل ولاية الحرم ، فقد أشبع دين إبراهيم الجوع الروحى فى نفوس المؤمنين وألف بين قلوبهم ، فقضى على روح التعصب ونشر فى المجتمع الجديد روح التسامح والمحبة .

وكانت قلوب بنى إسماعيل تخفق بحب مصر ، فقد كانت جدتهم هاجر أميرة فى مصر قبل أن تقع أسيرة فى أيدى العماليق وتهدى إلى جدهم الخليل .
وكان رواد الإسماعيليين فى غدو ورواح بين مكة ووادى النيل يحملون البخور للمعابد المصرية ، فما كانوا قد ترديا فى هوة التعصب فيحتقروا ديانات المصريين ، بل كانوا يدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكانوا

يؤمنون بأن اضطهاد دين لدين يناقض عقيدتهم السمحة التى تدعو إلى أخوة البشر جميعا ، وإلى الله رب العالمين ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

وكانوا على صلة طيبة ببنى إسرائيل الذين نزلوا بأرض جوشن من دلتا النيل ، كانوا جميعا مسلمين فهم حفدة الخليل ، وكانوا على ملة إبراهيم .
ولم يكن بنو إسرائيل قد انحرفوا عن طبيعتهم البشرية وعبدوا ذواتهم وزعموا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أميون من الأمم التى كتب عليها أن تتخبط فى الظلمات إلى يوم الدين .

كان بنو إسماعيل وبنو إسرائيل على دين واحد ، وكانوا حديثى عهد بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط فأسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وتعاونوا فى مصر على البر والإحسان ولم يتعاونوا على الإثم والعدوان .

ورأى بنو إسماعيل العمال المصريين يعملون فى مناجم سيناء ، فى الأرض التى كانت مركزا لعبادة الإلـٰه « سين » إلـٰه القمر فنسبت إليه ، فعرف بنو إسماعيل شيئا عن التعدين .

ورأوا فى مدن مصر الصناع يعيشون عيشة تدعو إلى الأسى ، يقاسون من سخرية قومهم حتى إن شعراءهم كانوا يتغنون بتحقيرهم قائلين :

— لم أر أبدا الحداد يوفد كسفير .
لا ولا صانع الذهب يؤدى رسالة .
ولكنى رأيت الحداد فى عمله .
بجانب بؤرة موقدة .
لقد كانت أصابعه مثل جلد التمساح .
وكان أنتن من بيض السمك .

ورأوا العمال العراة يقتلعون من المستنقعات قصب البردى من سيقانه ويربطونه حزما ينقلونها إلى المخازن ، ورأوا القوارب تصنع منه وينسج الحصير وتفتل الحبال وتهيأ النعال .

ورأوا كيفية إعداد البردى للكتابة ، بأن تقطع سيقانه طولا إلى شرائح رقيقة وتوضع عليها عرضا طبقة ثانية من الشرائح ، ثم تطرق الأوراق المؤلفة من ذلك بشدة وتجفف وتلصق جنبا إلى جنب .

ورأوا كيف ينسج المصريون الكتان الأبيض ناعما رقيقا كأنه الحرير فى طراوته ونعومته . وكانت صناعة الملابس من عمل النساء ، فإن إيزيس وأختها نفتيس غزلتا ونسجتا وبيضتا ملابس أخيهما أزريس إمام الشهداء وزوجهما العزيز .

ورأوا دبغ الجلود وقطعها بالسكاكين ذات النصل الهلالى ، ورأوا زخرفتها وتلوينهابالأحمر والأخضر لتزيين عربات أكابر القوم ووجهاء البلاد .

ورأوا النجارين يصنعون الأثاث ويشقون الخشب بالمناشير ويزخرفون ما يصنعون بالأزاميل ، وكانوا يعجبون بتأليف المصريين ألواحا كبيرة من ألواح صغيرة تلصق جنبا إلى جنب بأوتاد صغيرة من الخشب .

ورأوا كيف يصنع المصريون الورق المقوى فيضعون قطع الكتان بعضها فوق بعض ثم يلصقونها معا بمادة لاصقة ، ثم يغشونها بطبقة من الجص .

ورأوا صناعة الفخار وعجلة الفخارى ، وعرفوا أن أساطيرهم تقول : إن الخالق خنوم معبود الفنيين صاغ عليها أوائل البشر فى بداية الخليقة . ورأوا صناعة القاشانى والزجاج وإذابة المعادن .

أما الصياغة فقد كان بنو إسماعيل يفهمون أسرارها ، كانوا يتاجرون فى الذهب والفضة بين مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين .

عرف بنو إسماعيل بعض أسرار الصناعة ولكنهم لم ينقلوا إلى بلادهم شيئا

منها ، فقد كانوا يشاهدون ما يقاسيه الصناع فى مصر من البؤس والشقاء لقلة الأجور ، على الرغم من التحف النادرة التى كانت تخرج من بين أيديهم الفنية الخلاقة ، فأبوا أن ينقلوا تلك الصناعات إلى مكة حتى لا تتكون طبقة محزونة تقاسى وحدها وطأة الظلم الاجتماعى .

ورأى بنو إسماعيل فنون المصريين من نقش وحفر وصنع تماثيل وإقامة أعمدة على شكل البردى ، وعرفوا ذلك الإبداع الذى أطلق عليه المصريون « الغسق المقدس » وأعجبوا بالتناسق الفنى الذى يحتم عليهم إذا صوروا شخصا متجها إلى اليمين أن تكون الذراع اليسرى والساق اليسرى هما الممتدتان إلى الأمام حتى لا يتقاطع جسم الإنسان فتصبح أعضاؤه فى شكل غير واضح أو قبيح .

وعلم بنو إسماعيل الشىء الكثير عن دقائق الفن المصرى ولكنهم لم يحاولوا تقليده ، فقد كانوا يعتقدون أن الفنون من عمل النساء كحياكة الملابس وتطريزها .

وظلت صلة بنى إسماعيل بمصر وثيقة ما دام العماليق على عرش البلاد وما دامت عبادة الله فى بنى إسرائيل . وقد أغلق الجنوب أبوابه فى وجه كل ما يأتى من الشمال الذى سقط فى أيدى « الحقا وخاسوت » حكام البلاد الأجنبية ، بيد أن موجة التوحيد راحت تقرع أبواب طيبة الموحدة وتتسلل إلى معابد آمون .

راح كهنة آمون يدمجون الآلهة فى إلـٰه واحد ليقفوا فى وجه دعوة التوحيد التى بذرت فى أرض الشمال ، فصار رع إلـٰه الشمس وحور بن أزريس وخنوم إلـٰه الفنيين وآمون إلـٰه طيبة إلـٰها واحدا هو الإلـٰه آمون ، ولم يجعلوه إلـٰها للشمس ولا للحكمة بل جعلوه الباطن ورمزوا إليه بالهواء .

وأقيمت الصلوات لآمون فى طيبة كنز مصر الذى لا ينضب معينه ،

وراح الكهنة والناس يتلون فى إيمان عميق :

من خلق كل ما هو موجود ،
ومن عينيه نشأ الإنسان ،
ومن فمه الآلهة .
من فطر الأعشاب للماشية ،
وأشجار الفاكهة للإنسان .
من يمنح الحياة للفرخ فى البيضة .
وللطيور فى السماء .
من يمنح الحياة للفرخ فى البيضة .
ويحفظ ابن الدودة حيا .
من خلق ما يعيش به البعوض ،
والديدان ، وكذلك البراغيث .
من خلق ما تحتاج إليه الفيران فى جحورها .
ومن يحفظ الطيور على سائر الأشجار .

وقوى الإحساس الدينى فى نفوس أهل طيبة ، بينا وهن وراح يلفظ أنفاسه فى صدور العماليق ، وكان مترفوهم يعيثون فى الأرض فسادا .

وقد توقف القادة عن القيادة وعن أن يكونوا أسوة حسنة ، وأرادوا أن يحافظوا على كيانهم فلجئوا إلى العسف فوسعت الهوة بينهم وبين سواد الناس ، وبدا أن حضارة الهكسوس بدأت تتحلل .

وترنح الهكسوس قبل أن تهب طيبة للكفاح ، كان سوس الفساد قد نخر فى عظام مملكتهم وكانت الخناجر المسمومة تصوب إليها من أبنائها .

كانت دولة العماليق تنتحر قبل أن يشهر فى وجهها سيف أو يشن عليها الهجوم فرسان آمون .

انتفى التناسق بين مجتمع أورايس فكان ملوك العماليق وحاشيتهم ومن لف لفهم فى جانب، وكان سواد الشعب فى جانب، وانعدم التجانس بين الفريقين فتزعزعت حضارة العرب الذين جاءوا من تهامة من أساسها .

وهب أحمس فى طيبة يؤجج نار الحماسة فى صدور المصريين ويؤكد لهم أن آمون لم يدنس بعار الهزيمة وأنه قادر على نصرهم ، وقاد أحمس جنوده وانطلق لقتال الهكسوس .

كان المصريون يقاتلون فى سبيل تحرير وطنهم وإعلاء كلمة إلـٰههم آمون ، وكان الهكسوس يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وقد دبت روح الهزيمة فيهم قبل أن يلتقى الجمعان .

كانت قلوب المصريين عامرة بالإيمان بينما كانت قلوب الهكسوس هواء ، فما لبث أن انهزم الهكسوس وولوا الأدبار وأحمس فى أثرهم حتى طردهم خارج الحدود .

وتربع أحمس على عرش مصر ورفع آمون على عرش الآلهة ليكون رب الأرباب ، وراح بنو إسماعيل يوجهون تجارتهم وجهة أخرى غير مصر وإن كانوا يرصدون الأحداث ليصلوا ما انقطع بينهم وبين أحب بلاد الله إلى قلوبهم بعد واديهم المقدس .

وعاد بعض من كان من العماليق بمصر إلى تهامة بعد أن طردهم أحمس من البلاد فضاقت مكة بمن فيها ، وصار على الأقوياء من أبنائها أن يضربوا فى الأرض ويبتغوا من فضل الله . وبقى بنو إسرائيل فى مصر يسومهم آل فرعون سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

١٠

كان مجتمع مكة الذى تكون حول البئر جديدا لم تصبه الأسقام المدمرة التى تتعرض لها الأمم ، أسقام طول العمر والملل والجمود . بل كان مجتمعا ينبض حيوية وتسرى فيه نفحة روحية تجدد شبابه على الدوام .

أدرك ذلك المجتمع الكنز الروحى وتاه به فخرا ، وجلبت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فنعم شعب مكة بكنوز الأرض وكنوز السماء . وطمع بنو إسماعيل فى أن يكون الحرم مركز الإشعاع الروحى الذى يفيض منه الإيمان بالله وحده على العالمين ، وباتوا يرقبونه الفرصة لنشر دين الله .

وضاقت مكة بمن فيها بعد أن عاد بعض الهكسوس الذين كانوا فى مصر إلى تهامة وبعد أن تكاثر الناس ، فكان على الأقوياء من أبنائها أن يغادروها وأن يتركوها للخائفين واللائذين بالحرم والشيوخ الذين يتمنون الموت فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وكان بنو إسماعيل من الأقوياء فقد جابوا الآفاق وانطلقوا إلى بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر ، فكانت بابل ودمشق وأواريس ومنف ومكة أرض الله ، لم يتعصبوا إلى وثن السيادة القومية وإن كانت قلوبهم تهوى إلى الوادى المقدس .

لم ترتجف قلوبهم خوفا من الاغتراب عن الأوطان فقد كانوا يؤمنون أنهم أينما ساروا فهم مع الله فى دنيا الله وفى محراب الله ، فإن كانوا يحبون مكة وتعلقت أفئدتهم بحرمها بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، فقد كانوا قادرين على أن يعودوا إليه كلما هزتهم الأشواق أو هوت إليه أفئدتهم .

أصبح نابت بن إسماعيل قبيلة ، وأضحى قيدار قبيلة . وأمسى إذبئيل قبيلة ، وبات كل من مسا ودوما وميسام ويطور وباق أبناء إسماعيل الاثنى عشر قبائل قوية تتأهب للخروج من مكة إلى محراب الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون .

وكان لكل قبيلة زعيم مطاع ما دام يحكم فيهم بما أنزل الله ، وكان هؤلاء الزعماء أناسا يبذلون ذوب نفوسهم لإسعاد شعوبهم الصغيرة فلم يتحول أحد منهم إلى رب من الأرباب ولم يصبح شيخ من شيوخهم نصف إله .

وجاءت قبيلة نابت تطوف بالبيت طواف الوداع قبل أن ترحل إلى المجهول إلى حيث ينزلها الله ، ففاضت عيون الرجال والنساء بالعبرات ، وتحركت شفاههم بالتسبيح لله بينا كانت جوارحهم وقلوبهم ساجدة فى معبد الكون ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا .

وراحوا يشكرون الله على ما رزقهم وعلى أن وقاهم نكسة كتلك النكسة التى أصاب بها بنى إسرائيل فى مصر ، فقد فقدوا حريتهم وصاروا عبيدا أرقاء يعبدون ما يعبد المصريون من دون الله ويقاسون أسوأ صنوف العذاب .

وحانت ساعة الرحيل فخفقت القلوب فى الصدور ، كان حبهم للحرم شديدا وكان أقسى ما يوجع أفئدتهم تصورهم مفارقته وعدم الطواف به كلما خرجوا من مكة أو عادوا إليها ، فعلا النحب والنشيج ، وأخذوا حجارة من البيت تذكرهم بحرمهم المقدس وبأحب بقعة من بقاع الأرض إلى نفوسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وذهبوا إلى قبر نابت إلى جدهم الأعلى الذى كان أول من ولى البيت بعد أبيه إسماعيل ، وألقوا عليه نظرة وداع ثم داروا على أعقابهم ليخرجوا من مكة مرتع الصبا وأرض الذكريات .

ووضعوا الحجارة التى أخذوها من البيت الحرام فى رحالهم وأحاطوها

بتقديس الوثنيين لأصنام آلهتهم ، ثم انطلقوا بخيامهم وإبلهم ومواشيهم تحدوهم الآمال إلى الأرض الجديدة وقد وطدوا أنفسهم على أن يخوضوا أقسى غمار المعارك إذا تحرش أحد بهم أو اضطرهم إلى القتال .

أغرى انتصار أحمس على الهكسوس المصريين على أن يتحولوا من الدفاع عن النفس إلى الغزو بحجة تأمين حدودهم ، فراح خلفاء أحمس يحاربون فى سورية حربا لا هوادة فيها لتوسيع رقعة الإمبراطورية المصرية .

واضطربت المنطقة وانتشرت الحروب وكثرت الاعتداءات ، وكانت قبيلة نابت على يقين من أنها قد تمتشق الحسام لتقرير مصيرها . كان بنو نابت رسل سلام وكانوا فى نفس الوقت فرسان قتال ، لم يكونوا فلاسفة ولا رجال أحلام بل كانوا رجال واقع يؤمنون بدور الحروب فى إيقاظ الشعوب من سباتها ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

ونزلوا حول البحر الميت ، ولم يرتح أهل المنطقة لنزولهم فقد كانت مواشى رواد الإسماعيليين وإبلهم وأغنامهم كقطع الليل نزلت على المراعى كالجراد المنتشر ، فخاف الناس من هذه المزاحمة على مراعيهم وخشوا القوة النازلة بأرضهم .

فنشب قتال بين بنى إسماعيل وبينهم كتب فيه النصر للمؤمنين ، واستقرت قبيلة نابت حول البحر الميت يستخرجون الأسفلت من سواحله الشرقية وترعى مواشيهم فى مروجه الخضر ، ولم يكن ذلك كل ما يطمع فيه بنو نابت بل كان خطوة على الطريق .

وجرت الحياة فى مكة كما كانت تجرى قبل خروج قبيلة نابت ، كانت القوافل فى غدو ورواح والطواف حول بيت الله لا ينقطع فى الليل أو فى النهار ، فقد كان البيت قبلة المؤمنين وكان الأمل ومحط الرجاء ، فلم يجسد

المجتمع المكى السيادة السياسية فى إنسان بشرى و لم يعرف الابن الملكى للإلـه ، فما كان فى مكة ابن لرع أو ابن لمردوخ أو ابن لبعل بل كانوا جميعا عباد الـرحمن وكان الملك لله لا فضل لحاكم على محكـوم ولا لغنـى على فـقير إلا بالتقوى ، وكان التقديس للبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

نجت مكة من الكابوس الطبقى ومن عبء طائفة الكهنة الذين لا هم لهم إلا أن يخدعوا الشعوب لتمتلئ خزائنهم بالذهب والفضة وتروى شهواتهم باسم الإلـه ! ونجت من أن يرعى ملك طموح قطيعهم البشرى للحرب واقتناص الصيد البشرى فى سبيل مجده ورفع شأنه وتخليد اسمه ، وخلت من الكبرياء الذى يسبق تردى الأمم فى هوة الدمار فقد أسلم أهل مكة وجوههم لله .

وتأهبت قبيلة قيدار للرحيل والتفسح فى الأرض فجاء الرجال والنساء إلى الحرم وفى حناجرهم غصص وفى عيونهم دموع ، وطافوا بالبيت وارتفعت الأصوات بالتهليل والدعاء لرب السموات والأرض ، وقبل أن يغادروا أول بيت وضع للناس أخذوا منه حجارة لتذكرهم به إذا ما هوت نفوسهم إليه .

وألقت قبيلة قيدار نظرة على البيت ثم انطلقت قافلتهم فى معبد الله حتى نزلت على طريق القوافل ، فقد كان بنو إسماعيل يعيشون على التجارة ويغذون أرواحهم بمناجاة الله فقد لقنوا أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده .

وراح الرجال يبرمون العقود ويعلمون الصبيان الكتابة فكانت أصوات الصبية فى الخيام تتجاوب فى الفضاء : أبجد هوز حطى كلمن ، وكانت الكتابة عندهم كالماء لا غنى لهم عنها فقد كانت عصب التجارة ، و لم يستغل بنو إسماعيل معرفتهم الكتابة لاستغلال الناس أو لتأييد سلطان جائر كما كان يفعل الكتبة المصريون ، فالطبقة المثقفة المصرية كانت القوة التى تساند العرش وتنظم الأناشيد فى تمجيد الملك الإلـه وتسن القوانين التى تثقل بها كاهل الفلاحين ، وكانت تقبض الثمن إعفاء من المشاركة فى فلاحة الأرض ، بينا

استغل كتبة الإسماعيليين معرفة الكتابة فى تنشيط التجارة لرفاهية أقوامهم وفى نسخ صحف إبراهيم لتعريف الناس بأمور دينهم ، فكانوا سببا من أسباب التناسق بين قانون الطبيعة وشريعة الله . بين العمل والعبادة ، بين خدمة الدنيا والدين .

وجاءت قبيلة دومة تطوف بالبيت الحرام طواف الوداع قبل أن تغادر الوادى المقدس ، وحملت فيما حملت حجارة من البيت المحرم ووضعتها فى الرحال فى تقديس وخشوع ، فقد كانت حجارة من البيت الذى دعا جدهم الخليل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليه .

وخرجت القبيلة بخيامها وإبلها وجيادها ومواشيها وانطلقت إلى الشمال لتنزل على طريق التجارة ، وقد حطت رحالها إلى جوار قبيلة قيدار وعرف مكان نزولها بدومة الجندل .

وتتابعت هجرات قبائل بنى إسماعيل فخرجت قبيلة مسا من الحرم ونزلت فى شرق مؤاب على مقربة من فلسطين فى الشمال الغربى من قبيلة نابت ، ونزلت تيماء فى العلا ، ونزلت إذبئيل على مقربة من غزة وإلى جنوب غربها ، ونزلت قبيلة يطور فى سيناء أرض عبادة الإلـٰه سين وعرف مكان نزولها بالطور .

وحفت قبائل بنى إسماعيل بطريق القوافل المنطلق من مكة إلى غزة ثم وادى النيل وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وإن وضعوا الحجارة التى أخذوها من الحرم فى أماكن أمينة لتصبح أماكن مقدسة على مر السنين .

وأحب بنو إسماعيل أراضيهم الجديدة وبقيت قلوبهم متعلقة بالحرم ، فكان ولاؤهم مقسما بين المجتمع الجديد ومكة ، وكانوا يحسبون أن ارتباط أفئدتهم بمكة كفيل بجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم وشد أزرهم ليكونوا مراكز للإشعاع الروحى فى المنطقة بعد تلك النكسة الرهيبة التى أصابت بنى إسرائيل

فى مصر ، وما دار بخلدهم أن خروجهم فى قبائل متفرقة دون أن يندمجوا ويتحدوا سيعطل سير التاريخ .

كان السبيل الطبيعى أن يمتزجوا فى بوتقة واحدة وأن ينصهروا لتخرج منهم خير أمة أخرجت للناس ، ولكن خروجهم فى قبائل متفرقة فوت عليهم فرصة التوحيد الاختيارى لأنفسهم بأنفسهم ، وربط أجزائهم بعضها ببعض بروابط دولية عالمية .

كانوا يؤمنون بأن الله رب العالمين ، وكانوا فى قرارة نفوسهم يحسون بالأخوة البشرية . فلم يفرق بينهم تعصب و لم يحتقروا ديانات الشعوب التى تربطهم وإياها صلات تجارية وثيقة ، بل كانوا يدعون الله أن يهديهم سواء السبيل ، فهم وإن كانوا ورثة الحضارات ، إلا أن السياسة قد وزعتهم طوائف بعدما خرجوا من مكة وبقيت أفئدتهم جميعا مشدودة برباط المحبة إلى مكة ، إلى حرم الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

١١

انحسر ماء الفيضان عن وادى النيل فراح الفلاحون فى الشمال والجنوب يذرون الحب ويطلقون الخنازير لتدفن الحب فى الأرض بأرجلها ، وهم يغنون ويرتلون الصلوات لآمون العظيم ، بعد أن صار رب الأرباب وإلٰه الآلهة لما انتصر أحمس ببركته على الهكسوس .

وراح بنو إسرائيل يعملون فى مزارع تحتمس الأول وفى إعادة بناء المعابد والقصور التى خربها العرب الفاتحون قبل أن يسمنوا ويترفوا ويجنحوا إلى الدعة والفسوق ، فقد ضربت الذلة على بنى إسرائيل وأصبحوا عبيدا للمصريين .

نسى بنو إسرائيل ربهم فأنساهم أنفسهم ، اصطبغوا بالصبغة الفرعونية وعبدوا آمون والعجل أبيس وسجدوا للأفعى وقالوا : إنها رمز الذكورة المخصبة وممثلة الدهاء والحكمة والخلود ، وأشركوا بالله بعد أن هداهم إلى التوحيد ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا .

وجاء أوان الحصاد فأطلق الفلاحون القردة المدربة لجنى الثمار ، وأطلق فرعون عبيده من بنى إسرائيل لجمع المحاصيل ونقلها إلى مخازنه على ظهورهم ، فقد مسهم فيما أفاضوا فيه عذاب أليم .

كانت الدواب تملأ حظائر فرعون ولكنه لم يأمر باستخدامها فى نقل غلات أراضيه ، بل استخد بنى إسرائيل تعذيبا لهم ، وكان يقلقه أنهم على الرغم من الاضطهاد والضنك الذى كانوا يعيشون فيه يتناسلون ويتكاثرون .

إنهم غرباء عن البلاد جاءوا فى أعقاب العرب الذين وثبوا على الحكم فى

مصر وتغلغلوا فى ربوعها واستولوا على منابع الثروات فيها ، أصبح كثير من الأراضى ملكا لهم والصناعات تحت سيطرتهم وتسربت الأموال من جيوب الشعب إلى خزائنهم .

لقد أوجس خلفاء أحمس خيفة منهم بعد أن خرج الهكسوس من مصر ، فضموا أراضيهم إلى أراضيهم وأموالهم إلى خزائنهم وجعلوا عبيدا لهم وصنفوهم فى أعمالهم . وعلى الرغم من ذلك كان تحتمس الأول يخشى أن يثوروا يوما منتهزين فرصة انشغاله فى حروبه مع السوريين ولو فعلوا لضربوه ضربة فى الصميم ، لذلك كان يضع يده القوية على رءوسهم حتى لا يرفعوها يوما ليوقى نفسه ومملكته ثورة العبيد .

وعاد تحتمس الأول من سورية يحمل الغنائم ويسوق الأسرى فخرج الشعب يستقبل الفاتح المظفر بالأغانى والأهازيج ودخل منف دخول الظافرين ، وهرع لاستقباله أبناؤه تحتمس الثانى وتحتمس الثالث والأميرة حتشبسوت فضمهم جميعا إلى صدره ، ثم أقبل على الأميرة يحدثها فى ود كبير فقد كانت الفطنة والنجابة والحكمة تتراقص على طرف لسانها . فقد كانت أحب أبنائه إليه وإن كانت امرأة . وتأهب لزيارة إلـٰهة آمون الذى أيده بنصره أعدائه ، فتأهبت العاصمة لاستقبال ابنها البطل ، وراح كهنة آمون يطهرون المعبد للحدث العظيم .

واستقبل كبير الكهنة فرعون العظيم وقاده إلى قدس الأقداس حيث خرا معا ساجدين لآمون ، وتكدست القرابين على مذبح الإلـٰه وارتفعت الصلوات وعبقت طيبة كلها برائحة البخور .

وجاء رئيس كهنة وحى الإلـٰه آمون من سيوة ودخل مع الملك فى غرفة خاصة ، وراح رئيس كهنة وحى آمون يهمس فى أذن تحتمس الأول بما أوحى إليه الإلـٰه ! إنه يأمر ابنه الإلـٰهى أن يذبح الذكور من بنى إسرائيل حتى يأمن

الفتنة ، وتكون كلمة آمون هى العليا ويستتب الأمر لتحتمس ولأبنائه من بعده .

وعاد تحتمس الأول إلى قصر منف فرحبت به أحموس أم حتشبسوت وبالغت فى الترحيب فإذا بالفكرة التى طالما خامرته تستولى على كل تفكيره ، فدنا من أحموس فى حب وقال :

— سأوصى بأن ترفع حتشبسوت إلى العرش وأن تشارك أخاها فى الحكم .

وذهب إلى قاعة عرشه فكتب أن ترث حتشبسوت الملك مع أخيها ، وكتب أمرا يقضى بقتل كل ذكر يولد فى بنى إسرائيل .

وهرع عمران إلى أهله وهو مفزوع فألفاهم يصلون ، إنهم أهل بيت من المسلمين فقد كانوا على ملة آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لم يعبدوا آمون ولا العجل ولا آلهة المصريين ، واستمر ينظر إلى زوجه وإلى ابنته وإلى ابنه الصغير هارون فى قلق ، حتى إذا ما أتموا صلاتهم انتبذ بزوجه مكانا قصيا وقال لها همسا :

— أمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل .

ونزل بالزوجة هم ثقيل فهى تعمل فى قصر الأميرة حتشبسوت مع العاملين فيه من عبيد بنى إسرائيل ، وإن أمر إخفاء ما فى بطنها لشىء عسير ، فركبها القلق وباتت تخشى أن تضع ولدا فيذبحه المصريون ، فاحترزت وأخذت تخفى أمارات الحمل وأسلمت أمرها لله لعل الله يجعل لها مخرجا إن الله على كل شىء قدير .

وجاءها المخاض فنزل بها أمن عجيب ، وامتلأت جنبات القصر بأريج أطيب من المسك وأزكى من عطر البخور ، وفى يسر وضعت وليدها دون أن تلتمس أحدا لمعاونتها أو يستقبل الوليد الكريم دنياه بالصياح كما يفعل سائر

الولدان ، وأقبلت المرأة على وليدها وأحست أن جوانحها تشرق بالنور كلما امتدت إليه عيناها ، وأجج ذلك الحب الخطر الذى يتربص به فراحت تضمه إلى صدرها وتمطره بقبلات نابعة من قلب يخفق بالحنان الغامر والحب الكبير .

كانت المرأة وابنتها الكبرى تتناوبان رعايته ، إن ذهبت الأم إلى عملها بقصر حتشبسوت بقيت الابنة إلى جوار أخيها الحبيب ، وإن انطلقت الابنة إلى جناح سيدتها بقيت الأم مع ابنها وهى تترقب فى خوف شديد ، فحياته رهن بصياحه بالبكاء يقتحم رجال فرعون على أثره مخدعها لينزعوه من بين أحضانها ويذبحوه !

ورفعت عينيها إلى السماء فى سكون الليل تلتمس من الله عونه ، فأوحى إليها :

أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخاف ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

ومرت ثلاثة أشهر وهى تفكر فى ذلك الوحى وتسأل نفسها كيف إذا خفت عليه ألقيه فى اليم ؟! إنه سيغرق ! إنه سيموت ! وظلت ترعاه وخوفها يتزايد ، حتى تأكد عندها أنها لن تستطيع أن تخفيه عن العيون المتربصة ببنى إسرائيل ، وبدأت تطمئن إلى ما أوحى إليها فجاءت بسفط من البردى ووضعت ابنها فيه ثم ألقت به فى النهر . وما حمله التيار وبعد عنها حتى همت بالعدو خلفه والبحث عنه لولا أن ربط الله على قلبها وألهمها الصبر والامتثال لأمره لتكون من المؤمنين .

وقالت لأخته :

— قصيه .

فسارت أخته على الشاطئ تتبع أثره لتعلم خبره وهى ترمقه من طرف عينيها وتتظاهر أنها غافلة عنه حتى لا ينكشف أمرها ، فبصرت به عن جنب

وهم لا يشعرون .

وحمله التيار إلى جناح حتشبسوت وقد خرجت مع جواريها يغتسلن فى النيل ، فلمحن بين الأشجار سفطا به غلام صغير ، فهرعت إحداهن إليه وانتشلته فارتفع بكاء الطفل فسمعته حتشبسوت فقالت :

ـــ هذا بكاء طفل صغير .

وجاءت الجارية إليها وهى تحمله وتقول :

ـــ هذا طفل ألقى به أهله فى النيل .

نظرت حتشبسوت إليه فبهرها جماله وألقى الله فى قلبها حبه فضمته إليها وقبلته فى حنان شديد . كانت زوجة تحتمس الثانى وكانت على وشك أن تعتلى العرش معه بعد أن أوصى أبوهما لهما بالملك معا ، وكان أبوهما تحتمس الأول على فراش الموت يلفظ النفس الأخير .

ودخلت حتشبسوت قصرها وهى تحمله وتلصقه بفؤادها فقد تحركت فيها أمومتها ، فلما رأت أخته ذلك اكتنفتها راحة ونزل بقلبها اطمئنان ودنت ترصد ما يكون .

وأقبل تحتمس الثانى الفرعون الجديد ، فلما رأى الطفل قال :

ـــ ما هذا ؟

ـــ طفل التقطناه من اليم .

ـــ إنه ابن من أبناء العبريين ، اقتلوه .

ـــ ارحمه يا مولاى إنه طفل صغير .

ـــ اقتلوه .

ـــ قرة عين لى ولك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وظلت تدافع عن الطفل البرىء وتلتمس من زوجها وأخيها أن يبقيه ، واستوهبته إياه فوهبه لها فهى زوجه وشريكته فى ملكه وقرة عين أبيه .

فرحت حتشبسوت بالطفل الذى استحيته وحملته وضمته إليها وتحركت فيها إحساسات الأم الرءوم ، وبكى الطفل فالتمست له المراضع . وراح النساء يتوافدن على حتشبسوت لإرضاع الطفل الوليد ولكن الطفل يأبى ويستمر فى بكائه وامتناعه عن أن يلتقم ثدى إحداهن فقد حرم الله عليه المراضع من قبل ، إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون .

وحارت حتشبسوت فى أمره ، فدنت أخته منها وكانت تعمل فى قصرها وقالت :

— هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

فنظرت حتشبسوت إليها وقد شاع فى وجهها أمل :

— أتعرفين أهل هذا الغلام ؟

— لا أعرفهم ولكن أعرف امرأة صالحة فلعله يأخذ ثديها .

— اذهبى وأتى بها .

وذهبت أخته تحث الخطا يتهلل وجهها بالفرح ، حتى إذا بلغت غرفتها فى القصر صاحت بأمها :

— أبشرى جاءك الفرج ، إنهم يلتمسونك لترضعيه .

وانطلقت الأم يلفها اضطراب ، ولكنه اضطراب لذيذ فيه لهفة وفيه رجاء ، ودخلت على وليدها وكادت فرحتها تفضح خبيئة نفسها وكادت تهمس فى وجد وهى تضمه إلى الصدر الملهوف : ولدى ، ابنى الحبيب . وكادت تصرح به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين .

وناولته ثديها فالتقمه ، فأشرق وجه حتشبسوت بالفرح ونزل بقلب أمه سكينة ، رده الله إليها كى تقر عينها ولا تحزن وأطرقت برأسها شكرا لله فقد رده إليها ليكون من المرسلين .

وجلست حتشبسوت ترنو إلى الطفل الذى تعلق به فؤادها والذى فجر فى

نفسها ينابيع الحنان والرأفة فشاعت فى نفسها نشوة ، وأرادت أن تدعوه باسمه بيد أنها لم تعرف بماذا تدعوه ، أتدعوه أحمس ؟ إنه اسم عزيز على المصريين فقد سميت أمها أحموسى من شدة تعلقهم به ، ورن اسم أمها فى أذنيها رنينا موسيقيا تشع منه ظلال من القداسة ، ولكن قفزت إلى ذهنها فكرة : إنها وجدته بين الماء (مو) والشجر (شا) فلماذا لا تدعوه « موشا » ، واستراحت للفكرة فراحت تناديه : موشى .

أطلق على موسى اسم فرعونى وما كان مصريا ، بل كان ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ، وما كان يهوديا فلم ينحدر من نسل يهوذا بن يعقوب جد اليهود الأعلى ، وما كان بنو إسرائيل قد انقسموا بعد إلى شيع وما كانوا قد اقترفوا بعد جريمة عبادة أنفسهم وإن كانوا قد أشركوا بالله ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما .

وترعرع موسى فى القصر وقد صار الملك لتحتمس الثانى ولزوجه حتشبسوت ، وكانت حتشبسوت تمقت الحروب وتحب السلام فراحت تعمل على نشر المحبة وإسعاد الناس .

وشب موسى فى القصر وشب معه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه ، كان أخو الملك والملكة ولكن حتشبسوت لم تكن تحبه ، فقد كان على الرغم من ضآلة جسمه يتحدث عن الغزو وقتل الناس وتوسيع رقعة الإمبراطورية .

وراح موسى يركب مراكب فرعون ويلبس ما يلبس فرعون ، وكان الخدم يدعونه « الأمير » و« موسى بن فرعون » . ولكن موسى كان يعرف أهله وأنه من بنى إسرائيل ، وكانت أسعد أويقات صباه تلك السويعات التى يمضيها مع أمه وأخته وأخيه هارون .

ولما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما ، كان يرى كل من فى القصر

يسجدون لآمون ويقدمون له القرابين ، ولكن الله كرم وجهه فلم يسجد لإلـه من آلهة المصريين ، وكان يحز فى نفسه أن قومه الذين اهتدوا إلى رب السموات والأرض ارتدوا إلى عبادة العجل والثور والتيس والأفعى .

وفى ذات يوم أقبل إلى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه فقيل له : إنه خرج إلى منف ، فركب موسى فى أثره ودخل منف مخزن غلال آلهة المصريين والعرش العظيم وكان النهار قد انتصف فأغلقت الأسواق من شدة الحر ، فبينما هو يمشى فى ناحية من المدينة إذ رأى رجلين يقتتلان أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من قصر فرعون ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال :

— هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

وأحس حزنا عميقا فلم يكن يريد قتل الرجل ، وملأه الندم فرفع وجهه إلى السماء وقال :

— رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى .

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال :

— رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين .

فأصبح فى المدينة خائفا يترقب يخشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن هذا القتيل إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل ، فلو علموا ذلك لشكوا فى أنه منهم ولتعذر عليه أن يبقى فى القصر ليعمل على ما فيه مصلحة بنى إسرائيل .

وفيما هو منطلق يتلفت رأى ذلك الإسرائيلى الذى نصره بالأمس يقاتل رجلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

— موسى ، انصرنى يا موسى .

فبان فى وجه موسى الغضب وقال للإسرائيلى :

— إنك لغوى مبين .

وأقبل نحوهما فلما لمح الإسرائيلى الشر فى عينى موسى فرق منه وفر من وجهه وهو يقول :

— أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

سمع المصرى ما قاله الإسرائيلى فذهب إلى القصر وأفشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وكان خباز الملك وبلغ النبأ مسامع تحتمس الثانى وحتشبسوت فدافعت عنه حتشبسوت دون جدوى ، وأعرض عنها فرعون وصاح :

— خذوه واقتلوه بجنايته .

وكان أحد أنصار موسى عند فرعون لما أصدر أوامره بقتله ، فخرج يغذ السير ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال :

— يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين .

فوقف موسى يتلفت فى حيرة لا يدرى إلى أين يذهب ، إنه لو بقى فى مصر لقبض عليه فرعون ونفذ فيه القتل ، فليس أمامه إلا الخروج فانطلق هاربا لا يلوى على شيء .

سار موسى فى حلكة الليل وفى رابعة النهار يضرب فى الصحراء فى الطريق الذى تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن المعادن فى سيناء ، يجوع فلا يجد إلا ورق الشجر ويظمأ فلا يطفئ ظمأه إلا ما يصادف من ماء الآبار ، ولما توجه تلقاء مدين قال :

— عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل .

١٢

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده فى قبائلهم التى أخذت تنتشر فى الأرض بين حدود مصر ودمشق وبابل على طريق القوافل وفى الوادى المقدس ، وكانت مكة قبلتهم ومهوى أفئدتهم ، وكان من خرجوا منها يعودون إليها ليستنشقوا عبير الماضى التليد وليغذوا أرواحهم بالنور الذى ينسكب فى وجدانهم فيشدهم إلى السماء ويجعل لحياتهم معنى أسمى من تحصيل الرزق والانغماس فى الشهوات .

كانوا على دين الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، لم يغيروا ولم يبدلوا بل أسلموا لله رب العالمين . لم يفسد دينهم ولم يتأثروا بدين من حولهم ، ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا .

وكان أول من غير دين إبراهيم من أبنائه بنو إسرائيل فقد نزلوا بأرض مصر يدعون إلى الله الواحد القهار ، وما إن دالت دولة الهكسوس حتى صاروا عبيدا للمصريين يسجدون لآلهتهم ويعبدون آمون والعجل وسائر ما يعبد المصريون من حيوانات وطيور .

وغير أهل مدين دين إبراهيم فجلبوا أصنام الأمم وعبدوها ، وكانوا أهل تجارة فكانوا يطففون الكيل والميزان ويقطعون الطريق ، فبعث الله إلى مدين أخاهم شعيبا قال :

ـــ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض

بعد إصلاحها ذلك خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .

قالوا :

ــ يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد .

قال :

ــ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

قالوا :

ــ يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .

قال :

ــ يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟ واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب .

قال الملأ الذين استكبروا من قومه :

ــ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

قال :

ــ أوَ لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ

نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

واستمر شعيب يدعو قومه :

— يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

* * *

بلغ موسى مدين وقد نال منه التعب والجوع . ورأى شجرة فوقف تحتها يستظل بها ويستريح ، ومد بصره فإذا جماعة من الرعاة يسقون فذهب ليرد الماء فوجد من دونهم امرأتين تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم القوم ، فاقترب موسى منهما وقال :

— ما خطبكما ؟

قالتا :

— لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير .

نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتقدم فرفع تلك الصخرة وحده وكان لا يرفعها إلا عشرة رجال ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ورد الحجر كما كان . وتولى موسى إلى ظل الشجرة وبطنه لاصق بظهره من الجوع وقال :

— رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .

وعادت الفتاتان إلى أبيهما فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعا ؟

قالتا :

— عاوننا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

— يلوح عليه يا أبى أنه جائع مكدود .

فأمرها أبوها أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءت تمشى على استحياء حتى إذا بلغته وهو فى ظل الشجرة قالت له :

ـــ إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

فقام معها وقال لها :

ـــ امضى .

فمشت أمامه فضربتها الرياح فبدت مفاتن جسمها ، فحول موسى عنها بصره وقال لها :

ـــ امشى خلفي ودلينى على الطريق إن أخطأت .

واستمر فى سيره حتى دخل على شعيب ، وراح يقص عليه ما حدث له فى مصر فلما انتهى من قصته قال له الشيخ :

ـــ لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

وقدم الطعام لموسى ، فلما شبع قام لينصرف فقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

ـــ يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين .

فقال لها الشيخ :

ـــ وما علمك بهذا ؟

ـــ إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال .

ـــ وما أدرك بأمانته ؟

ـــ إنى مشيت قدامه فأبى على نفسه أن يخوننى وأمرنى أن أمشى خلفه .

فذهب شعيب إلى موسى وقال له :

ـــ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين .

— ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ، والله على ما نقول وكيل .

وتزوج موسى صفورة وقد أجر نفسه للشيخ ثماني سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه ، وبقي موسى يرعى الغنم ويسجد لله فى معبد الكون ويناجيه فى محراب الوجود ، فقد شب موسى فى قصر فرعون بين جدران وأعمدة ومسلات وفنون تحول بين روحه والانطلاق فى رحاب السموات والأرض لتتصل بروح الأرواح وتضيء بنور الأنوار .

وأحس موسى تناسقا بينه وبين الكون فراح يجوب الآفاق ويتصل بأبناء عمه إسماعيل الذين خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض فنزلوا على طريق القوافل بين الحجاز ومصر وكانوا إخوته فى الدم وإخوته فى الدين ، وقد أرضاه أنهم كانوا لا يزالون على ملة إبراهيم لم يغيروا شيئا منها و لم يبدلوا فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه فلم يكونوا فى حاجة إلى أن يبعث الله فيهم نذيرا .

ومرت السنون وموسى يكابد الحنين إلى أهله ، كان يستقى أخبار مصر من القوافل التى تمر بمدين فى طريق عودتها من وادى النيل ، وقد علم أن حتشبسوت امرأة فرعون التى التقطته وأكرمت مثواه ماتت وأن الأمر أصبح لتحتمس الثالث لا ينازعه فيه منازع .

كانت حتشبسوت تكره ذلك الفتى وإن كان ابن أبيها من إحدى جواريه ، وكان موسى لا يحبه وما كان يحب موسى فما اجتمعا فى القصر يوما إلا دارت المناقشات بينهما حادة عنيفة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان موسى فى شوق إلى مصر ، فلما أتم الأجل قال لزوجه :

— اشتقت إلى أمى وإلى أخى هارون فتأهبى للخروج إلى مصر ، فإن لى فيها شيعة وأنصارا .

وتأهب موسى وزوجه وأولاده للخروج ، حتى إذا أذنت ساعة الرحيل

ودعوا الشيخ وانطلقوا يضربون فى البيداء حتى بلغوا جانب الطور الأيمن فى عشية شاتية شديدة البرودة .

وجاء الليل وغابت النجوم وأخذت السماء تبرق وترعد وتمطر ، فخرج موسى من خيمته ينظر ، وراح يدور ببصره فى الفضاء فآنس من جانب الطور نارا فقال لأهله :

— امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

وانطلق موسى فى وادى طوى يتوكأ على عصاه صوب النار ، فإذا بخشوع عجيب يحيط بالوادى كله ، وإذا بنور لطيف تحسه الأفئدة قبل العيون يغشى المكان ، وإذا بالهواء يفعم بتسبيحات رقيقة ، تسبيحات ملائكية ليس للوجود عهد بها ، وبدا الوادى جليلا ولا غرو فقد كانت الأرض تتلقى وحى السماء :

ودنا من النار فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . فخاف موسى وفر مفزوعا . ولما أفرخ روعه عاد ثانية إلى النار فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين .

وفر موسى مرعوبا ، وما بعد عن النار حتى عاد إليه روعه فدنا منها ، فلما أتاها نودى :

— يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إلـٰه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

وخلع موسى نعليه ولم يذهب عنه روعه ، فقال له الله مؤنسا فهو يعلم

ما فى يده وما يخفى صدره إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء :

— وما تلك بيمينك يا موسى ؟

قال :

— هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .

قال :

— ألقها يا موسى .

فألقاها فإذا هى حية تسعى .. فلما رأها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب .. فناداه ربه :

— يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون .. أقبل ولا تخف إنك من الآمنين .

فلما رجع ورأى الحية تسعى بقى على خوفه فقال الله له :

— خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى .

فمد يده إلى الحية فإذا هى قد عادت عصا كما كانت وقال له الله :

— اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب .

فوضع موسى يده فى جيبه وأخرجها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، وشغل فكره بالعصا التى صارت حية تسعى وبيده التى أضاءت كالبدر فقال له الله :

— فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين .

وعلم موسى أن الله أرسله إلى فرعون فقال :

— رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون .

قال :

ـــ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

ووقف موسى لا يدرى ما يقول فقال له الله :

ـــ اذهب إلى فرعون إنه طغى .

فقال موسى فى ابتهال :

ـــ رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى .

وسار موسى وأهله وهو يفكر فى تحتمس الثالث ذلك الشاب القصير الذى فتن بالغزو وقتل الناس ليكون من الفاتحين ، ودخل موسى وأهله مصر خلسة ، وانطلق إلى أمه فقرت به عينا ، وانتظر حتى جاء أخوه هارون فقام الأخوان يتعانقان ، وراح يقص على أخيه قصته ثم قال :

ـــ يا هارون انطلق معى إلى فرعون إن الله قد أرسلنا إليه .

فقام هارون ليذهب مع أخيه ، فهبت أمهما إليهما تصيح :

ـــ أنشدكما الله لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما .

فقال موسى لأمه :

ـــ لا تخافى ولا تحزنى إن الله معنا ، قال .. فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل .

فقالت له أمه :

ـــ أخشى عليكما من فرعون .

فقال لها موسى :

ـــ اطمئنى ، لقد بعثنى الله لأخلص بنى إسرائيل من العذاب المهين .

وتحرك موسى وهارون للذهاب فقالت لهما أمهما :

ـــ انتظرا حتى الصباح .

ـــ سنذهب إليه الآن .

وانطلقا فى ردهات القصر وكان موسى يعرف طريقه فقد شب فيه وكان ذات يوم أميرا فى أمرائه ، ولم يكن الحراس حراس حتشبسوت فقد أتى تحتمس الثالث بأنصاره وجعل هامان وزيره ، حتى إذا وصلا إلى رئيس أسرار القصر قال لهما :

ـــ ماذا تريدان ؟

ـــ إنا رسول رب العالمين .

ودخل على تحتمس الثالث وقال له :

ـــ إن بالباب مجنونا يزعم أنه رسول رب العالمين .

فقال فرعون :

ـــ أدخلوه .

ودخل موسى وهارون على فرعون ، فراح تحتمس ينظر إلى موسى مليا ثم قال :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل .

وعرف تحتمس موسى فقال له فى استخفاف :

ـــ ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ؟

وعرف موسى أنه يحدثه عن المصرى الذى قتله فقال :

ـــ فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين .

قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

قال :

— رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

فالتفت تحتمس إلى من حوله وقال فى إنكار واستخفاف :

— ألا تسمعون ؟

قال موسى :

— ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله :

— إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

قال موسى :

— رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

وتضايق فرعون فأمر موسى وهارون بالخروج ، ثم رأى أن يذهب إلى معبد القصر ليسمع الكهنة وهم يصلون وقد جعلوا آمون العظيم يمجده حتى ليقر بربوبيته .

أطلق البخور وتكدست القرابين فى المذبح ، ودخل تحتمس الثالث وهامان ورجال القصر ورجال الجيش ورؤساء أسرار السماء وكبار الموظفين ، وارتفعت أصوات الكهنة بالترتيل . كان آمون يخاطب ابنه الإلٰه الملكى تحتمس الثالث :

أتيت فمنحتك نهاية العالم لتدكها بأقدامك .

ودائرة المحيط جعلتها فى قبضة يمينك .

وجعلتها تنظر إلى جلالتك كباشق يحلق عاليا .

ثم ينقض على ما يلتمسه بالقدر الذى يشتهيه .

أتيت فمنحتك أولئك الذى يقتربون من حدودك لتدكهم
بأقدامك .
وقد أسرت سكان الصحراء أحياء .
وجعلتهم ينظرون إلى جلالتك كابن آوى فى الجنوب .
سريع يسترق الخطى وهو يجوب الأرضين .

وظل تحتمس الثالث يصغى إلى الكهنة وهم يزجون إليه المديح والتقديس والتأليه فانتفخت أوداجه ، وعاد إلى القصر يكاد ينفر غرورا ووزيره هامان يغذى فيه ذلك الغرور بقوله :

— إنك جلالتك تعرف كل ما يحدث فما من شيء تجهله ، أحطت بكل شيء علما فأنت إلـه المعرفة وميزان العدل السماوى .

وأصر فرعون أن يجمع الناس ، فلما خفوا إليه وألقوا إليه سمعهم قال :

— أنا ربكم الأعلى .. يأيها الملأ ما علمت لكم من إلـه غيرى .

قال له موسى :

— إنى أدعوك إلى الله .

فقال فرعون فى غلظة :

— لئن اتخذت إلـها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

— أوَلو جئتك بشيء مبين ؟

— فأت به إن كنت من الصادقين .

فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين .

فنظر فرعون مدهوشا فقال له موسى وهارون :

— إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى .

— فمن ربكما يا موسى ؟

— ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

قال :

— فما بال القرون الأولى ؟

قال موسى :

— علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

فقال فرعون فى غيظ :

— أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

قال :

— موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

وتأهب المصريون للعيد وخرجوا مبكرين وانطلقوا إلى الساحة الكبرى ، فاليوم هو اليوم الذى جعله موسى موعدا بينه وبين فرعون . وجاء السحرة الذين جمعهم تحتمس الثالث من أنحاء مملكته واصطفوا صفوفا . وجاء فرعون ووزيره هامان ورؤساء أسرار السماء وجاء سنحوت من كان موظفا فى معبد آمون فجعلته حتشبسوت عظيما فى القطرين وعينته رئيسا من الرؤساء ومشرفا على مشرفى الأعمال فى جميع أنحاء مصر ، كان مستشار الملكة بيد أن تحتمس الثالث نحاه عن منصبه وإن تركه عظيما من عظماء قصره .

وقال فرعون للسحرة :

— ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى .

وخرج موسى ومعه أخوه وسار وهو يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع ، تحتمس فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، يحف به رؤساء أسرار السماء ورئيس وحى آمون الذى جاء من سيوة ليشاهد ذلك الساحر الذى يريد أن يزعزع سلطانهم ، فأقبل موسى على السحرة وقال لهم :

— ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا وقد خاب من افترى .

وراح السحرة ينظر بعضهم إلى بعض ثم قال قائل منهم :

— هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما .

وأقبلوا على موسى وقالوا :

— يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى .

قال :

— بل ألقوا .

فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، فنظر موسى فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، فأوحى الله إليه :

— موسى لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقى موسى عصاه .. فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا :

— آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

وثار فرعون وزاد فى ثورته أن موسى هزمه على مرأى من الملأ ، وأن السحرة سجدوا لإلـٰهه والناس ينظرون ، فخشى أن تشتعل الفتنة وأن يفلت زمام الشعب من يده فقد راح بنو إسرائيل يسبحون بحمد ربهم العظيم ، فقال

للسحرة :

ـ آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .

وكانت حلاوة الإيمان قد مست قلوب السحرة فلم يفزعوا بل قالوا :

ـ لم نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

وآمن له سنحوت مستشار حتشبسوت ورجال من قصر فرعون وإن أخفوا إيمانهم ، وهجر بنو إسرائيل عبادة آمون والعجل وابن آوى والثعبان وما كان يعبد المصريون ، وحرض موسى وهارون بنى إسرائيل على أن يضربوا عن العمل فى حقول الملك وفى مزارع المصريين .

وخاف الأغنياء ثورة العبيد فموسى يفتن بدعوته الفقراء والمستضعفين ، والناس يلتفون به ويعجبون ، وقال الملأ من قوم فرعون لتحتمس :

ـ أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟

قال :

ـ سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

وأمر فرعون بقتل أبناء بنى إسرائيل فنزل بهم كرب شديد . قال موسى لقومه :

ـ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وزاد اضطهاد فرعون لهم فجاءوا موسى يقولون فى ضيق :
ــ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا .
قال :
ــ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون .

وجلس فرعون مهموما فقتل بنى إسرائيل لم يرحه منهم ، إنه لن يعرف الراحة ما دام موسى يسعى فى الأرض فالتفت إلى من عنده وقال :
ــ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه :
ــ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله قد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟

فقال فرعون فى اعتداد :
ــ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

وقال الذى آمن :
ــ يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا

عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .

والتفت فرعون إلى وزيره وقال :

— يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إلـٰه موسى ، وإنى لأظنه كاذبا .

فنظر هامان إلى فرعون وفى عينيه حيرة ، فقال فرعون فى كبرياء :

— يأيها الملأ ما علمت لكم من إلـٰه غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلـٰه موسى .

وقال الذى آمن :

— يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

١٣

دخل موسى على فرعون يطلب منه تخليص بنى إسرائيل من العبودية وأن يرسلهم معه ليتركوا مصر . فقال له فرعون :

ــ إذا تركتهم لك فمن يحرث أرضى ومن يسقى زرعى ومن يصنع لى اللبنات لأبنى صرحى ؟ لا يا ساحر لن أطلق لك عبيدى فادع ربك ليخلصهم من يدى .

وأخذ الله مصر بالسنين ونقص من الثمرات ، فتفشت المجاعة فى البلاد وانتشر الجوع وخشى فرعون العواقب فبعث إلى موسى وقال له :

ــ ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

ــ وإذا رفعه عنكم ترسل معى بنى إسرائيل ؟

ــ أرسلهم معك .

ودعا موسى ربه فجاء بالخصب وعم الرخاء ، ودخل موسى على فرعون يستنجزه وعده فأبى فرعون واستكبر وقال له :

ــ ما أصابنا الجدب إلا بشؤمكم وما فعل إلهك لنا شيئا ، اخرج من عندى فما كنت لأطلق لك عبيدى .

وجاء الفيضان فأتلف الزرع وحاق الضيق بالبلاد ، وفزع فرعون وبعث إلى موسى وقال له :

ــ ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه فرفع مقته عن البلاد ، وذهب موسى إلى فرعون يستنجزه وعده فأبى وتكبر وقال :

— لن أتركهم لك حتى أبنى صرحى وأصعد إلى السماء وأسمع ربك يأمرنى بأن أرسلهم معك .

وسلط الله عليهم الجراد فلم يترك زرعا ولا ثمارا ولا سبدا ولا لبدا ، فجزع فرعون وفزع إلى موسى وقال :

— ادع لنا ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— أوَ ترسل بنى إسرائيل معى ؟

— أرسلهم .

فلما رفع الله عنهم نقمته عاد فرعون إلى الاستكبار وقال لموسى :

— مهما تأتنا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وسلط الله عليهم القمل ، فسقطوا فريسة المرض الفتاك وانتشر فيهم الموت فراح يحصدهم حصدا ، فجزع فرعون وأهله إلى موسى وقالوا :

— يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .

فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ، فأرسل الله عليهم الضفادع والدم فهرعوا إلى موسى وقالوا :

— يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون .

فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون فى قومه قال :

— يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .

فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين .

فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ،

وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين .

ونفد صبر بنى إسرائيل فالمحن تنزل بهم والبلايا تتساقط عليهم ورجال فرعون يسومونهم العذاب : ففزعوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله ليخلصهم من محنتهم العظيمة فقال لهم :

— يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

كانت دعوة موسى هى الإسلام ملة أبيه إبراهيم . إنه يدعو إلى ما كان يدعو إليه آباؤه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا جميعا مسلمين . كان إلـٰهم الواحد الرحمن الرحيم رب العالمين ، ولم يكن يعرف تلك العصبية المقيتة ولا اليهودية المتعصبة التى جاء بها من جاءوا بعده من نسل يهوذا جد اليهود . فما كان موسى يهوديا بل كان حنيفا مسلما ، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا ، وإن كانوا آباء يهوذا ووجدوا من قبله أفلا تعقلون ؟ ! كان يهوذا من الأسباط وكان من الصالحين ، إنه أحد أبناء يعقوب ، حتى إذا ما حضر يعقوب الموت قال له مع من قال لهم من بنيه : « ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلـٰهك وإلـٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـٰها واحدا ونحن له مسلمون » .

وها هو ذا موسى جاء من نسل لاوى بن يعقوب ولم يأت من نسل يهوذا يقول لقومه من بنى إسرائيل : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

فقالوا :

— على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين .

وأوحى الله إلى موسى وأخيه : أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين .

فراح موسى وهارون ينفذان وحى الله فاتخذوا لبنى إسرائيل بيوتا متميزة فيما بينهم ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض لا ليفرق الله بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إذا أراد أن يصب غضبه على المصريين كما قال الجاهلون ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقال موسى وهارون :

— ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال :

— قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون .

وتأهب بنو إسرائيل للخروج سرا ولكن كيف يخرجون وهم أرقاء عبيد الأرض ؟ وذهب موسى وهارون وأكابر بنى إسرائيل إلى فرعون يرجونه أن يأذن لبنى إسرائيل فى الخروج إلى عيد لهم فلم يقبل ، فظلوا به يرجون ويلحفون فى الرجاء حتى قبل وهو كاره . فرح بنو إسرائيل لقرب الخلاص وخرجوا متظاهرين بالاحتفال بالعيد ، وذهب موسى وهارون وبعض القوم إلى حيث وضع تابوت يوسف الصديق وأخرجوه ثم حملوه فيما بينهم فقد عزموا على أن يذهبوا به ليدفنوه هناك فى الخليل إلى جوار إبراهيم وإسحاق ويعقوب الأبرار المسلمين . فلما جن الليل خرج بنو إسرائيل يتسللون واجتمعوا خارج المدينة ، ثم انطلقوا إلى الشمال ليسلكوا نفس الطريق الذى تسلكه بعثات التعدين إلى سيناء طلبا للفيروز .

انطلقوا لا يلوون على شىء ليفروا من الطاغية الذى استعبدهم وأذلهم وساروا مهطعين ، واقترب مؤمن آل فرعون من موسى وقال له :

— يا موسى أين أمرت ؟

— البحر !

وجاء الموكلون بإذلال بنى إسرائيل إلى القصر يسعون ويقولون :

— خرج بنو إسرائيل إلى العيد و لم يعودوا إلى أعمالهم ، فلم يعد فى ضياع الملك من يحرسها ويزرعها ويجنى ثمارها . وذاع فى مصر أن موسى خرج ببنى إسرائيل فهاجت البلاد وماجت ، وجمع فرعون جنوده وانطلق فى أثر الفارين ليعيدهم إلى أراضيه .

ملأ الحنق فرعون واشتد غضبه فشرع فى استحثاث جيشه ليلحق الهاربين ويمحقهم ، فأوحى الله إلى موسى : أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فراح موسى يجد السير ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى كان جنود فرعون يلوحون فى الأفق البعيد . وتراءى الجمعان و لم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة ، فتلفت أصحاب موسى وهم خائفون فالبحر أمامهم والجبال الشاهقة عن يسرتهم وعن أيمانهم ، فوقع الذعر فى قلوبهم وهرعوا إلى موسى يصرخون :

— إنا لمدركون .

— كلا إن معى ربى سيهدين .

وتقدم إلى البحر وأمواجه تتلاطم كالجبال وقال :

— ههنا أمرت .

وجعل بعض الرجال يقتحمون بأفراسهم البحر مرارا ليسلكوه ولكنهم كانوا يرتدون خائبين . وتفاقم الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. عند ذلك أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما ضربه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . فانحدر بنو إسرائيل فيه مسرعين ، فلما جاوزوه وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود سيرته الأولى فأوحى الله إليه :

ـــ واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون .

وأقبل فرعون على صهوة حصانه يهمزه برجليه ويضربه بسوطه حتى وقف على شفير البحر . فلما رآه منفلقا وقف ينظر مدهوشا وفكر فى أن يحجم ، ولكنه لم يشأ أن يظهر أمام جنوده رعديدا وهو الذى دوخ السوريين وبلغ حدود بابل ، فاقتحم البحر وانطلق وتدفق جنوده خلفه حتى إذا كانوا جميعا فى البحر ارتطم البحر كما كان وأخذت الأمواج تتقاذف الجنود ورفعت فرعون وخفضته حتى إذا أدركه الغرق قال :

ـــ آمنت أنه لا إلٰه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

آمن ولم يكن ينفعه إيمانه وكان هو وجنده من المغرقين وابتلعهم اليم .. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

وجاوز بنو إسرائيل البحر وساروا فى سيناء أرض عبادة إلٰه القمر سين ، ورأوا تماثيل الآلهة وكيف يذبح القوم لتلك الأصنام ويسجدون لآلهة يرونها . كانوا حديثى عهد بآلهة المصريين وبالأصنام التى رأوها فى معابدهم وسجدوا لها فحنوا إلى أن يجعلوا لله أصناما بعد أن عرفوا الله رب السموات والأرض واكتشفوا الكنز الروحى . فجاءوا إلى موسى وقالوا له :

ـــ اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة .

كان رسولهم بينهم يفقههم فى أمر دينهم ، ولكنهم من طول ما رأوا المصريين يعكفون على أصنام لهم أثر فيهم وجعلهم يلتمسون إلٰها يرونه إذا دعوه ، أرادوا أن يجسدوا الفكرة المطلقة ، أن يجعلوا لله رمزا ، فغضب موسى وقال لهم :

ـــ إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .. أغير الله أبغيكم إلٰها وهو فضلكم على العالمين ؟

وسار موسى بقومه صوب الأرض المقدسة ، إنه لا يستطيع أن يدخلها

حتى يقاتل أهلها فقال :

— يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين .

قالوا :

— يا موسى إن فيها قوما جبارين . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .

قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما :

— ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

قالوا :

— يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

قال :

— رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

قال:

— فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين .

وبقى بنو إسرائيل فى التيه فى صحراء سيناء القاحلة الماحلة وراحوا يبحثون عن الماء فلم يجدوه ، فجاءوا إلى موسى يفزعون إليه ، فاستسقى موسى لقومه فقال له الله :

— اضرب بعصاك الحجر .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان أسباط بني إسرائيل اثنى عشر سبطا

فكان لكل سبط عين تنبجس ، وأحسوا الجوع فهرعوا إلى موسى يلتمسون الطعام فدعا موسى ربه أن يطعمهم فساق إليهم أسراب المن والسلوى .
وضجر كثير من بنى إسرائيل بحياتهم الجديدة فأين ما هم فيه من خيرات مصر ، فجاءوا إلى موسى وقالوا له :
ــ يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .
فغضب موسى وقال لهم فى سخرية :
ــ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم .
فما إن قرعت سخريته آذانهم حتى زاغت أبصارهم ثم أطرقوا فى خجل شديد . نسوا نعمة الله عليهم إذ نجاهم من فرعون وجنوده ومن الذل المهين وراحوا يشتهون ألوان الطعام بعد أن هجروا غذاء الروح .
وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقبل أن يذهب موسى ليأنس بالله ويناجيه قال لأخيه هارون :
ــ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين .
وانطلق موسى لميقات ربه إلى جبل طور سيناء ، كان الكون خاشعا فى محراب الله وكانت النشوة تملأ جوارحه وقد اتسعت آفاق روحه حتى كادت تستوعب الكون كله ، فقد كان على صلة بربه له الملك لا إلـٰه إلا هو وسع كل شىء علما .
كلمه ربه فناداه وناجاه وقربه وأدناه ، فطمع موسى فى أن يرى الله فقال :
ــ ربى أرنى أنظر إليك .
قال :
ــ لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى .

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال :

ــ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين .

فقال الله :

ــ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

وأوحى الله إليه فيما أوحى :

ــ يقيم لك الرب إلـٰهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلك له تسمعون .

وراح موسى يفكر : نبيا مثله من إخوته ! ترى من أى إخوته يبعث الله ذلك الرسول ؟

واستمر يصغى إلى ما يوحى به إليه :

ــ أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

وفهم موسى أن الله سيبعث فى إخوته نبيا .. لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ولكن ترى من أى إخوته يبعث ذلك النبى ؟

و لم يشأ الله أن يترك رسوله دون أن يوضح له ما شغل باله ، إنه يريد أن يعرف من أى إخوته يأتى ذلك النبى . فأوحى الله إليه :

ــ جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران .

فاران ؟ إنها الأرض التى استقرت بها هاجر وابنها إسماعيل . لقد وضح له كل شىء . إن ذلك النبى الذى سينزل عليه الذكر من فاران من أرض هاجر وإسماعيل ، إنه من بنى إسماعيل . إنه دعوة إبراهيم .

وولى موسى وجهه شطر البيت الحرام ، وإذا بالسكون كله يردد دعوة إبراهيم الخليل : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم

الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم .

وكتب الله له فى الألواح وراح يقرأ ما كتب فيها خافق القلب مبهور النفس : إن الله يأمره أن يسبحه ويقدسه لا إلـٰه إلا هو ، ولا يشرك به شيئا ، ولا يقتل النفس التى حرم الله ، ولا يحلف باسمه كذبا ، وأن يكرم أباه وأمه ، ولا يقتل ، ولا يزنى ، ولا يسرق ، ولا يشتهى امرأة صاحبه ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبه .

وقال الله لموسى :

— وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟

قال :

— هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى .

قال :

— فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا .

كان موسى قد ذهب لميقات ربه وكان قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما أتمها بعشر وانقضت تلك الليالى ولم يعد جاء السامرى وقال لهم :

— إن موسى قد احتبس عنكم ، إنه ليس براجع إليكم فينبغى لكم أن تتخذوا إلـٰها .

وفكر بنو إسرائيل فيما يقول السامرى فوجدوه يصادف هوى فى نفوسهم ، فقد التمسوا من موسى من قبل أن يجعل لهم إلـٰها كما للأقوام الذين مروا بهم آلهة ولكن موسى أبى . وها هو ذا موسى قد ذهب فما الذى يحول بينهم وبين اتخاذ إلـٰه لهم ؟ لقد عبدوا العجل لما كانوا عبيدا فى مصر ولقنوا أن روح الله تحل فى العجل المقدس ، فجاءهم السامرى بعجل له خوار صنعه من حلى المصريين ، واجتمع القوم يعبدونه والسامرى يقول لهم :

— هذا إلـٰهكم وإلـٰه موسى فنسى .

فقال لهم هارون :

— يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى .

قالوا :

— لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى .

ورجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فبلغ سمعه أصوات عزف ، فانطلق إلى الصوت فإذا بالقوم يعزفون ويرقصون حول العجل ، فصاح فى غضب :

— بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم .

وألقى الألواح وقال :

— يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى !

وذهب يبحث عن هارون فلما وجده أخذه برأسه يجره إليه ويقول :

— يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ، أفعصيت أمرى ؟

— يابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

وجره موسى من شعره وهو يقول :

— هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ؟

— يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى .

فرفع موسى وجهه إلى السماء وقال :

— رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

وبعث إلى السامرى فلما جاء قال له :

— فما خطبك يا سامرى ؟

قال :

ـــ بصرت بما لم يبصروا به ، بصرت بجبريل فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها على العجل وكذلك سولت لى نفسى .

قال :

ـــ فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا .

ونسف موسى العجل وقال لقومه :

ـــ إنما إلٰهكم الله الذى لا إلٰه إلا هو وسع كل شىء علما .

وأطرق بنو إسرائيل خجلا فقال لهم موسى :

ـــ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم .

ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون .

ورأى بنو إسرائيل أن يستغفروا ربهم فكلموا موسى ، فاختار موسى سبعين رجلا من علماء بنى إسرائيل وانطلقوا ليعتذروا عن بنى إسرائيل ، واقتربوا من الجبل فصعدِ موسى يكلم ربه وصعد بنو إسرائيل يسمعون .

أشرق الجبل بنور ربه لكأنما كان غارقا فى بحر من النور ، وساد الوجود خشوع وعبق المكان بأريج طيب لا نظير له فى طيب الأرض ومسكها وعطورها ، وغشى القلوب أمن عجيب ، وهامت النفوس لتنداح فى روح الأرواح لتفر منه إليه ، لتهيم فيه .

وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجل ، ثم رجع إلى قومه فقالوا له :

ـــ يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السّماء فماتوا جميعا ، فقال موسى لربه :

— رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .

قال :

— عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء .

وظل موسى يناجي ربه حتى بعثهم من بعد موتهم ، فعادوا فى التيه لا يفكرون فى الدخول إلى الأرض المقدسة فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ، وتقضت السنون فمات هارون فحزن عليه بنو إسرائيل فقد كان عليهم لينا ، ومات بعده موسى فشق ذلك عليهم وراحوا يبكونه والتفوا حول فتاه يوشع بن نون .

وانقضت سنون التيه فخرج بنو إسرائيل بقيادة يوشع لغزو الكنعانيين ، ودارت بين الفريقين معارك قاسية مريرة وراح يوشع يسرف فى القتل ، كان ممن يؤمنون بقانون الطبيعة الثانى وهو : أن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا .

وتأخر فتح أورشليم فغضب ذو النون من ربه وذهب مغاضبا فظن أن لن يقدر الله عليه . واستمر القتال وحاق الغم بذى النون و لم يجد له ملجأ إلا الله فنادى فى الظلمات أن لا إلٰه إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجاب له ربه ونجاه من الغم وجاء النصر والفتح ودخل بنو إسرائيل بيت المقدس ، وكذلك ينجى الله المؤمنين .

وعكف بنو إسرائيل على كتاب الله ، على الفرقان الذى فرق بين حياة العبودية فى أرض مصر وحياة الحرية فى حياتهم الجديدة . « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

١٤

انتشرت قبائل الإسماعيليين فى سيناء وعلى طريق قوافل التجارة الذى يربط مكة بالشام ، حول البحر الميت وفى دومة الجندل ، وقد أحبوا أوطانهم الجديدة وإن تعلقت أفئدتهم بالبيت العتيق .

كان ولاؤهم لمجتمعاتهم الجديدة عظيما ولكن ولاءهم لمكة كان أعظم ، فقد عرفوا سعادة الدنيا فى التجارة ، فى الخروج من تلك المجتمعات الجديدة لينتشروا فى الأرض وليبتغوا من فضل الله ، بينا كانت سعادة الآخرة تتمثل فى ذلك البيت الذى أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل .

كانوا كلما هزهم الشوق إلى بيت الله يعودون إليه ليطوفوا به ويبتهلوا إلى الله أن يأتيهم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويملئوا جوانحهم بالنور الذى يفيض على البيت . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

انقسمت وحدتهم السياسية ولكن الإشعاع الروحى المنبعث من أفئدتهم المؤمنة كان يؤلف بينهم ، وكان يجعل الصلة بين بنى إسماعيل فى أوطانهم الجديدة وإخوانهم اللائذين بالحرم وبين بنى إسرائيل فى فلسطين صلة طيبة ، فقد كانوا جميعا ورثة النفحة الروحية التى جاء بها آباؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكانوا جميعا مسلمين . ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .

وبعدت الشقة بين بنى إسماعيل والحرم فلم يكن الخروج من مجتمعاتهم

الجديدة إلى البيت الذى تهوى إليه أفئدتهم أمرا سهلا ، ولم تكن المرات القليلة التى تتاح لهم للزيارة لتشفى الغليل أو تطفىء نار الشوق ، فهم يريدون فى مجتمعاتهم الجديدة بيوتا يطوفون بها كلما خرجوا من دورهم ويتمسحون بها كلما عادوا من أسفارهم ، بيوتا مكرمة مطهرة مقدسة يستحب فيها مناجاة الله وذرف دموع التوبة لله رب العالمين .

وطال على الناس الأمد فقست قلوبهم ، وبدأ شباب الإسماعيليين يولون مكة ظهورهم ، وهموا بأن يطلقوا العنان للنفس وأن يعيشوا وفق طباعهم دون ضابط أو وازع ، وخاف شيوخهم أن يفلت الزمام وأن يندثر الدين وأن تتقطع الأسباب بين حملة شعل التوحيد وبين السماء ، فأخرجوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من البيت المحرم يوم خرجوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض لتذكرهم بالوادى المقدس أحب بقاع الأرض إلى أفئدتهم ، وحملوها فى إجلال وهم يدعون الله فى خشوع ، تسيل عبراتهم على ذقونهم من شدة الانفعال ، وتنطلق ابتهالاتهم من حناجرهم شكرا لله رب العالمين .

ووضعوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من أول بيت وضع للناس فى مكان أعدوه للعبادة ، وجعلوا لها حرما آمنا كذلك الحرم الذى فى مكة ، ووضعوا علامة يبدءون من عندها الطواف ، ثم راحوا يطوفون بها سبعا تشبها بالطواف حول الكعبة .

وضل سعى شيوخ بنى إسماعيل فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فقد فتحوا أبواب الفتنة على مصاريعها وإن ظنوا أنهم أعادوا إلى شعوبهم جوهر الدين الذى يغذى الروح ويسيطر على الذات وينظم الشهوات .

وراح بنو إسماعيل فى طور سيناء وفى دومة الجندل وفى أرض النبط ، أرض أبناء نابت بن إسماعيل الذين نزلوا حول البحر الميت يستخرجون الأسفلت ،

يطوفون بالحجارة التى جاء بها آباؤهم من الحرم المقدس كلما خرجوا من دورهم فى الصباح وقبل أن يعودوا إلى دورهم فى المساء ، وصارت لأماكن العبادة تلك قدسية كقدسية البيت المحرم فى الوادى المقدس .

كانوا يطوفون بالحجارة ويدعون الله وحده لا شريك له ، لم يشركوا بالله و لم يجعلوا له أندادا و لم يتخذوا له ذرية ولا أزواجا ، إذا تتلى عليهم صحف إبراهيم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا .

ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم .

وذهبت أيام تحتمس الثالث (فرعون موسى) وأيام أمنحتب الثانى الذى قاد ستة من ملوك الكنعانيين الآراميين من البلاد التى أخضعها فى سورية إلى طيبة وقدمهم قربانا إلى آمون ، وجاءت أيام أمنحتب الثالث فتزوج أميرة من أميرات سورية وفتح أبواب مصر للتجار ، فعاد بنو إسماعيل إلى أسواق منف وطيبة يحملون الطيب ومنتجات بابل وسورية ويستبدلونها بالصناعات المصرية من خزف وحلى ونسيج .

* * *

سارت قافلة بني إسماعيل فى أرض مصر قاصدة طيبة كنز مصر العظيم ، وراح رجال القافلة يمدون أبصارهم لكل ما يرون ويلقون السمع للفلاحين والصناع ورجال الدين ، ويصيخون الآذان لابتهالات الكهنة لإلٰههم آمون .

كان المصريون يعتقدون أن فرعون إلٰههم وأن سلطان ذلك الإلٰه أرض مصر وأنه يقف على حدودها ليحميها من أعدائها ، فلما جاء الهكسوس وجاء بنو إسماعيل ثم جاء من بعدهم يوسف وموسى يرفعون مشعل التوحيد تأثرت

الديانة المصرية بمعتقداتهم ، فصار إلـه الفراعين الذى لم يكن سلطانه يتجاوز أرض وادى النيل يرى جميع العالم فى كل ساعة ، وأصبح رب العالمين .

ولاح لقافلة بنى إسماعيل معبد لآمون فحطوا الرحال وذهبوا إلى المعبد ينظرون ويسمعون . فراح الكهنة يرتلون لآمون الباطن الذى رمزوا إليه بالهواء ، فهو لا يرى كما أن الهواء لا يرى :

— إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك .
ومصور دون أن تصور ،
منقطع القرين فى صفات .
أنت خالق الكل ومانحهم قوتهم ،
أنت الذى ترى ما خلقت ،
والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضى أسرى كل يوم .
بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها .

وراح بنو إسماعيل ينظرون إلى التماثيل الجميلة التى غص بها المعبد ، إنها ثمرة الفن المصرى الذى أطلقوا عليه اسم الغسق المقدس ، إنها روحهم فقد كانت روح مصر فى عقيدتها وقد ترجمت تلك العقيدة إلى تماثيل ، إنها لتزدهر كلما ازدهرت فلسفتها . وطافت بأذهانهم تلك الحجارة البركانية التى يطوفون بها فى أوطانهم ، ولكن سرعان ما طردوا الخواطر التى راحت توازن بين حجارتهم وتماثيل آلهة المصريين ، وراحوا يستغفرون الله ويعوذون به من همزات الشياطين .

وانطلقت قافلة بنى إسماعيل إلى طيبة وكانت مدينة غنية عظيمة تخلب الألباب وتسبى العقول ، قصورها شامخة ومتنزهاتها منسقة تنسيقا بديعا وبحيراتها الصناعية منتشرة هنا وهناك ، والرجال والنساء يغدون ويروحون فى أحدث الأزياء . كانت مدينة مترفة يتغنى بها الشعراء ويجوس التجار خلالها

يبيعون ما جلبوا من السلع ويشترون أجود ما تنتجه الصناعات المصرية .

واصطف الشعب على جانبى الطريق الذى يؤدى إلى الهيكل العظيم بالكرنك ، فقد كان فرعون أمنحتب الثالث فى طريقه إلى معبد آمون ، وكان ولى عهده أمنحتب الرابع الذى سيعرف فيما بعد باسم إخناتون إلى جواره فى مركبته الملكية ، وكانت زوجة فرعون الآسيوية وأم إخناتون ولى العهد فى عربة ملكية زينت بأجمل زينة .

كان إخناتون شابا ضئيل الجسم كبير الرأس برز رأسه من الخلف بروزا كبيرا ، وقد غرست فيه أمه الآسيوية عقيدة التوحيد التى كانت لا تزال منتشرة فى قبائل بنى إسماعيل وبنى إسرائيل وعند بعض الموحدين فى الممالك السورية .

وبلغ الركب الملكى معبد الكرنك فراح إخناتون ينظر إلى الفتيات المقدسات الجالسات على جانبى الطريق فى اشمئزاز . كان الكهنة يخدعون الشعب ويوهمونه أن هؤلاء العاهرات إن هن إلا سرارى لآمون ، ولكن إخناتون ما كان يصدق ذلك الزعم فقد كان على يقين أنهن خليلات كهنة آمون الذين يستغلون الدين لابتزاز أموال السذج .

كان إخناتون شابا مستقيما وكان يرى فى تعدد الآلهة كفرا ، فإبراهيم دعا إلى التوحيد فى مصر أيام الهكسوس ، وجاء يوسف من بعده ليدعو إلى الله وحده ، ثم جاء موسى فى أيام تحتمس الثالث يدعو إلى الله الواحد القهار وما عهد موسى ببعيد ، فتغلغلت دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى فى إخناتون حتى النخاع .

ووقف بنو إسماعيل ينظرون ، ثم دخلوا معبد آمون فى طيبة ورأوا ضخامة تماثيل الآلهة وطقوس رجال كهنة آمون الأثرياء وما تكدس فى المذابح من ثيران وأبقار وطيور وأسماك وعسل وبيض وخبز ، فعادت أفكارهم تربط بين

تماثيل آلهة المصريين وبين الحجارة البركانية السوداء التى جاء بها آباؤهم من البيت المقدس والتى يطوفون بها آناء الليل وأطراف النهار .

ومضت أيام أمنحتب الثالث واعتلى العرش آمون حتب الرابع ذلك الشاب التقى الذى لقنته أمه الآسيوية عقيدة التوحيد ، فاتخذ مستشاريه من الآسيويين ، وكان أول ما فعله أن غير اسمه من آمون حتب أى آمون راضى إلى إخناتون أى آتون راضى ، فقد عزم على أن يوحد الآلهة فى إلـٰه واحد ، وقد رمز لذلك الإلـٰه بقرص الشمس « آتون » .

كان إخناتون يمقت آمون وكهنة آمون فراح يمحو اسم آمون أينما وجد فى آثار طيبة ، ولما كان مؤمنا بأن للعالم كله إلـٰها واحدا فقد راح يمحو أسماء الآلهة حيثما وجدها ، وراح يشرد كهنة آمون ويصادر أموالهم التى ابتزوها من الشعب باسم آلهة ما أنزل الله بها من سلطان .

وبنى إخناتون لإلـٰهه الجديد مدينة « أخيتاتون » لتكون عاصمة لملكه ، وراح الشعراء ينظمون قصائد تمجيد آتون ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات لقرص الشمس رمز الإلـٰه الواحد :

ما أكثر أعمالك وأجلها !
إنها على الناس خافية .
يأيها الإلـٰه الأحد ،
من لا يوجد معه إلـٰه آخر ،
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك ،
وحينما كنت وحيدا لا شىء إلا أنت ،
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان ،
وجميع ما على الأرض ،
مما يمشى على رجليه ،

وما فى عليين مما يطير بأجنحته ،
وفى الأقطار العالية سورية ،
وكوش وأرض مصر ،
فإنك تضع كل إنسان فى موضعه ،
وتمدهم بحاجاتهم ،
وكل إنسان لديه رزقه ،
وأيامه معدودة ،
والألسنة فى الكلام مختلفة ،
وكذلك تختلف أشكالهم وألوانهم ،
لأنك تخلق الأجانب مختلفين .

ولم يذكر إخناتون أزريس ومحكمته ولا أخته إيزيس ولا ابنه حور ، ولم يعترف برع ولا ببتاح ولا بالآلهة الكثيرة التى عبدها المصريون ، كان يدعو إلى إلـٰه واحد كما دعا من قبله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، وقد قال هؤلاء الرسل : إن المؤمنين يحسون الله فى قلوبهم ، وقال إخناتون لإلـٰهه : إنك لا تزال فى قلبى . ولكن دعوة إخناتون كانت ردة إذا قيست بملة إبراهيم ، فقد دعا إبراهيم ومن جاء بعده من ذريته من الرسل إلى عبادة إلـٰه واحد فوق الطبيعة ، فجاء إخناتون وجسد الفكرة المجردة ورمز إلى الله بقرص الشمس ، فكانت دعوته نكسة بين دعوات التوحيد التى سبقته .

ولم يخلد كهنة آمون للدعة بل راحوا يقاومون حركة إخناتون فى ضراوة ويتهمونه بالمروق ، ويوسعون الأرض إذاعة أن هيبة مصر ضاعت فى سورية ، وأن إمبراطورية تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث قد أخذ ظلها يتقلص ، وأن الوهن دب فى البلاد ، وراحوا يحرضون الخبازين الحانقين على الثورة بعد أن كسدت تجارة بيع « فطائر الشعائر » التى كانت تقدم على

مذابح الآلهة بعد أن قوض الدين الجديد الآلهة وشعائرهم .

وراحوا ينفخون فى نار حقد الصناع الذين كانوا يعيشون على صنع تماثيل إزيس وأزريس وحور وبتاح وأبيس والآلهة الأخرى ، وأخذوا ينفثون السموم فى صدور الكتاب الذين كانوا يحترفون كتابة الأدعية من كتاب الموتى ذلك الكتاب الذى لعنه إخناتون ، وراحوا ينزغون بين سواد الشعب بتذكيرهم بأيام آمون المجيدة أيام أن أيدهم بنصره فطردوا الهكسوس وفتحوا ما فتحوا من بلاد أعدائهم .

وأمسى إخناتون غارقا فى بحر من التذمر ، وبذل كهنة آمون الأموال لشن الحرب على ذلك المارق الذى كان فى أخيتاتون يتغنى بمجد إلـٰهه ولا يمتشق الحسام فى وجه من ثاروا عليه فى سورية ، فقد كان داعية سلام يحلم بأن يندمج الناس فى أخوة عالمية فى ظل رب العالمين .

واشتدت الثورة على إخناتون وقاد الكهنة ثورة الشعب على الدين الجديد ، حتى إذا ما ذهب إخناتون وجاء بعده توت عنخ آتون أرغمه الكهنة على أن يمحو اسم آتون من الوجود وأن يصبح اسمه توت عنخ آمون ، فاستجاب لهم فعادت عبادة آمون واشتد نفوذ كهنته وصار إخناتون مجرم أخيتاتون .

وطوى الزمن عصر إخناتون وذهب جيل وجاء جيل جديد من بنى إسماعيل فى تجارة قومهم . وكانوا من النبط من نسل نابت بن إسماعيل ممن نزلوا حول البحر الميت يستخرجون الأسلفت وإن كانوا يرقبون فرصتهم لينتشروا فى الأرض المجاورة ، فساحوا فى أرض مصر ومدوا أبصارهم إلى تماثيل الآلهة فرأوها تماثيل دقيقة الصنع مميزة الملامح بها لمسات فنية تستهوى الأفئدة وتسر الناظرين . أين من هذه التماثيل الحجارة البركانية الخشنة التى يطوفون بها ؟

وما عاد بنو إسماعيل من مصر إلى أرض النبط حتى كانوا يحملون تمثال امرأة

جميلة ، وسرعان ما عادت إلى أذهانهم أساطير العرب قبل أن يدعو إبراهيم إلى عبادة الله ، عبادة الإيل . كان العرب قبل أن يعرفوا التوحيد يعبدون الشمس والقمر والنجوم فى بابل وفى سيناء وفى اليمن ، وكانوا يؤمنون بأن القمر هو رب الأرباب وأن الشمس هى زوجه وأم الآلهة ، وأن عشتار أو عشتر هى ابنتهما أو ابنهما حسب اعتقاد كل قبيلة ، فلما جلب النبط تمثال امرأة عادوا إلى أساطير الأولين ، إنهم يعبدون « الإيل » رب الأرباب فليكن تمثال المرأة الذى جلبوه زوجة الإيل كما كانت الشمس زوجا للقمر ، وأطلقوا عليها الإيلات أى زوجة الإيل ، وصارت رمزا للشمس .

وعاد النبط من أبناء نابت بن إسماعيل إلى عبادة الكواكب كما كان يعبدها العرب قبل أن يبعث الله جدهم الخليل هدى ونورا للعالمين ، وتطور الاسم من الإيلات إلى الليلات ثم اللات ، وذاعت عبادتها فى قبائل بنى إسماعيل الأخرى التى خرجت من مكة لتتفسح فى الأرض ولتعمل على نشر دين الله ، وصارت اللات أشهر معبودات بنى إسماعيل .

نسى بنو إسماعيل ما كانوا يدعون إليه من قبل وكانوا أول من غير دين الآباء : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب بعد بنى إسرائيل فى مصر قبل أن يبعث الله إليهم موسى ليعيدهم إلى دين الله ، وشاعت فيهم بدعة جلب الأصنام من البلاد التى يطوفون بها للاتجار ، وجعلوا لله أندادا بعد أن كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

وجلب النبط من مصر فيما جلبوا تمثال إيزيس ووضعوه فى معابدهم وسجدوا له ، وأطلقوا عليه العزيزة وجعلوها رمزا لكوكب الصباح . ولما كان العرب يميلون إلى تفخيم آلهتهم فقد أطلقوا عليها العزى وجعلوها بنتا من بنات الله ، وسرعان ما انتشرت عبادة العزى فى قبائل بنى إسماعيل الممتدة من طور سنين إلى أرض النبط إلى دومة الجندل .

ولما كان مما يسر الرجال أن يحملوا تماثيل النساء فقد حملوا تمثال امرأة وجاءوا به إلى أرض النبط ، وقد كان من الميسور أن تصبح تلك المرأة بنتا من بنات الله فله البنات ولهم البنون ، ولكن عرف بنو إسماعيل من البلاد التى جابوها التى تعكف على عبادة الأصنام أن للموت إلـٰها وللحظ إلها ، فجعلوا تلك المرأة للحظ والمنايا ، وأطلق عليها النبط « منوتن » ، التى صارت فيما بعد مناة .

وصارت اللات والعزى ومناة من الأسرة الإلـٰهية الغرانيق العلى ، وصارت شفاعتهن ترتجى . أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

١٥

اتخذ بنو إسرائيل العبرية ــ لغة الكنعانيين ــ لغة لهم ، وأقاموا فى أورشليم خيمة الرب ووضعوا فيها التابوت فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

وكان حلم بنى إسرائيل أن يقيموا مكان خيمة الرب بيتا مطهرا كذلك البيت العتيق الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل فى وادى مكة ، ولكن الكنعانيين كانوا يشنون عليهم الحرب بين وقت وآخر ولم يتركوهم فى سلام أبدا ، فقد كانت الأرض للكنعانيين وكان بنو إسرائيل وافدين يريدون أن يثبتوا سلطانهم فى فلسطين .

ولما طال على بنى إسرائيل الأمد وقست قلوبهم نسوا الله الواحد القهار وعبدوا ما يعبد الكنعانيون ، عبدوا بعلا وعشتارا وآلهة الوثنيين الأخرى وغرقت خيمة الرب فى الدنس ، فقد اتخذ الكاهن عالى خدمة الخيمة تجارة لجمع الأموال ، ووقف أبناؤه ببابل لتحصيل اللذات ، فكانوا يترصدون الفتيات الإسرائيليات الجميلات ليضاجعوهن قبل الدخول للعبادة والاستغفار ، وكان عالى يعلم بما يأتيه أبناؤه فلا يزجرهم ولا ينهاهم فقد تفشت الفاحشة فى بنى إسرائيل تفشيها فى معابد عشتار .

وكان يعيش فى تلك الخيمة شمويل ذلك الغلام الهابط من نسل النبوة ، وقد وهب حياته لعبادة الله فكان يدعوه بقلب سليم ، ولولا ذلك الغلام المبارك لأنزل الله غضبه على الخيمة الغارقة فى الدنس والمنكرات .

وفى ذات ليلة دخل شمويل لينام إلى جنب الشيخ عالى ، وفيما هو غارق

فى نومه بلغ سمعه صوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ـــ شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فزعا إلى الشيخ فقال :

ـــ يا أبتاه دعوتنى ؟

فنظر الشيخ إلى الغلام فى إنكار ثم قال له :

ـــ يا بنى ارجع فنم .

فرجع شمويل فنام وإذا بصوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ـــ شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فزعا إلى الشيخ فقال :

ـــ يا أبتاه دعوتنى ؟

فقال له الشيخ وهو نائم :

ـــ ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبنى .

فرجع شمويل وما إن داعبه النوم حتى سمع صوتا أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

ـــ شمويل .. شمويل . قم !

فقام ونظر وهو يعجب ، كانت الخيمة غارقة فى نور يبده القلب ويريح النفس ويجعل الروح تهيم لتسبح فى ذلك النور الذى يملأ الجوانح بالسكينة والأمن ، وإذا بوحى يلقى إليه :

ـــ اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك ، فإن الله قد بعثك فيهم نبيا .

وأوحى الله إليه ما أوحى ، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب .

وفى الصباح قال عالى لشمويل :

ـــ ماذا حدث البارحة ؟

فقال شمويل :

ــ أوحى إلى أن الله سينزل غضبه عليك وعلى بيتك جزاء سكوتك على ما يفعله أبناؤك من المنكرات .

فأطرق الشيخ مليا ثم قال :

ــ أتوب إلى الله وأقرب له قربانا .

ــ لن يقبل منك .

فقال عالى فى استسلام :

ــ هو الله يفعل ما يشاء .

وصار شمويل نبيا لبنى إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده وهجر السيئات ، فكانوا يصغون إلى دعوته ويعجبون ، فهو يتكلم كما كان يتكلم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، ولكنهم ما كانوا يعملون بما يقول فقد أغرتهم الدنيا وصاروا عبيد اللذات .

وتأهب الكنعانيون أهل فلسطين لقتال بنى إسرائيل ، وتأهب بنو إسرائيل لقتالهم ودارت الحرب بين الفريقين ، فانهزم بنو إسرائيل وقتل منهم خلق كثير ، فاجتمع شيوخهم يفكرون فيما حاق بهم فأرجعوا سبب تخلى الله عنهم إلى أنهم خرجوا للقاء أعدائهم دون أن يأخذوا معهم التابوت المبارك الذى وضعوا فيه بعض الألواح المقدسة التى نزلت على موسى ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

إنهم ما جاءوا أعداءهم ومعهم التابوت إلا أيدهم الله بنصر من عنده ، فبعثوا الرجال ليحضروه ليبدل خوفهم أمنا ويقلب الهزيمة نصرا ، وما إن رأوا التابوت حتى دبت الحماسة فى صدورهم فهتفوا مستبشرين ، فتجاوب الهتاف فى أرجاء المكان وصك آذان الكنعانيين فأشاع الخوف فيهم ونزل الرعب فى قلوبهم لما علموا أن بنى إسرائيل أحضروا التابوت الذى به

ينتصرون .

وقام رجل من الكنعانيين يحمسهم ويحضهم على القتال فقال :

— يا قوم لقد جاءكم أعداؤكم بإلـههم لقتالكم ، فإذا أصابكم الوهن فستهزمون وتصبحون عبيدا لبنى إسرائيل بعد أن كانوا عبيدا لكم ، فحاربوا عن نسائكم وأبنائكم وأعراضكم .

وهجم الكنعانيون على الأعداء وقد كشروا عن أنيابهم ففر بنو إسرائيل مفزوعين ، فقد كانت قلوبهم خواء وما كانت هتافاتهم المدوية للتابوت إلا صيحات جوفاء أطلقتها الحناجر لتذهب فى الهواء . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وتساقط بنو إسرائيل قتلى تحت سيوف الكنعانيين ونجا بجلده من أطلق ساقيه للريح ، وسقط التابوت غنيمة باردة فى أيدى الأعداء ، واستمر الهاربون فى جريهم حتى ابتعدوا عن ميدان الطعن والنزال .

ودخل رجل المدينة ممزق الثياب يحثو على رأسه التراب وفى وجهه هلع واضطراب ، فانجفل الناس إليه يسألونه :

— ماذا وراءك ؟

فقال وهو يتلفت كأنما يعدو خلفه مارد جبار :

— الهزيمة والانكسار .

فارتجت المدينة بالصياح وبلغت الأصوات مسامع عالى فقال :

— ماذا جرى ؟

— هزمنا هزيمة منكرة .

— وماذا فعل الناس ؟

— قتل منهم الآلاف .

— وأبنائى ؟

ـ قتلوا جميعا .

ـ والتابوت ؟

ـ أخذه الأعداء .

وبان فى وجه الشيخ القهر الشديد وعلاه عبوس ومال إلى الوراء فى ضيق فوقع على رأسه ودقت عنقه أمام خيمة الرب التى خلت من التابوت ، وفى نفس المكان الذى كان يضطجع فيه أبناؤه مع فتيات إسرائيل الجميلات الوافدات للعبادة والاستغفار !

ومرت السنون وشمويل يدعو بنى إسرائيل إلى الله ، وفى ذات يوم جمعهم وقال لهم :

ـ توبوا إلى الله وأخلصوا له وانزعوا من عبادة بعل وعشتار والآلهة الأخرى التى لا تملك لكم نفعا ولا ضرا ، واعبدوه وحده يخلصكم من أعدائكم وينصركم عليهم . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

فقالوا له :

ـ تبنا إلى الله وأنبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم تطهيرا لأنفسهم وتقربا إلى الله ليؤيدهم بنصر من عنده ، ونشب القتال بين بنى إسرائيل وبين الكنعانيين أهل فلسطين فانتصر بنو إسرائيل بعد أن طهرهم شمويل من رجسهم وبث فيهم روح التضحية والإقدام ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

وأمسى شمويل شيخا فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل به وقالوا له :

ـ يا شمويل أصبحت شيخا وقد جئناك لتدعو ربك ليجعل علينا ملكا

يحكمنا ويجمعنا حوله ككل شعوب الأرض ، ويقودنا لنقاتل فى سبيل الله .

فقال لهم شمويل :

— إن ذهبت تركتكم لله وهو خير راع لكم .

— يا نبى الله إننا نعلم ذلك ، ولكننا نريد ملكا يلم شملنا ونلتف حوله .

فقال لهم شمويل ليردهم عن رأيهم :

— أتعلمون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ يأخذ أبناءكم ليركضوا أمام مراكبه ، ويجعل لنفسه آلاف الخدم والعبيد ليحرثوا أرضه ويحصدوا حصاده ، ويأخذ بناتكم سرارى وحظايا ، ويستولى على أجود أراضيكم ليمنحها عبيده ، ويسخر عبيدكم وجواريكم ليعملوا فى أرضه ، وستصبحون جميعا عبيدا له ، وستضرعون إلى الله أن يخلصكم منه ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

— يا نبى الله إننا نعلم كل ذلك ونقبله ، فكل ما نبغيه أن يكون علينا ملك يجمع كلمتنا ويقودنا لقتال أعدائنا الذين أذلونا .

فقال لهم شمويل :

— هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

فقالوا :

— وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .

وراح شمويل يصلى لله ، للإيل الذى نسب إليه كما نسب إليه من قبل إسماعيل وإسرائيل ، وخر ساجدا يدعوه أن يجيب رغبة قومه . وفيما هو فى سجوده أوحى الله إليه أنه سيجعل طالوت ملكا عليهم ، فخرج شمويل إلى قومه وقال :

— يا قوم إن الله استجاب لدعائنا وسيبعث ملكا .

فقالوا له فى لهفة :

— من هو ؟

ـــ طالوت .

ـــ طالوت ؟!

وانبعثت من القوم أصوات استنكار ، فقد كان طالوت رجلا فقيرا وقد صار بنو إسرائيل عبيد المال ، قالوا :

ـــ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟

فقال شمويل :

ـــ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم .

ـــ وما أدرانا أن الله اختار طالوت ليكون ملكا علينا ؟

ـــ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

وتحققت آية الله فإذا بهم يجدون التابوت أمامهم ، ففرحوا وهتفوا بحياة أول ملك فى إسرائيل .

وجمع طالوت بنى إسرائيل حوله وراح يقودهم من نصر إلى نصر ، ودارت معارك بينه وبين العماليق فقد كان العرب يغيرون على مملكة إسرائيل بعد أن بعدت الشقة بين أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق ويعقوب ، وبعد أن عبد حملة النفحة الروحية العظيمة الأوثان فى قبائل أبناء نابت وقيدار ودوما ومسا وإخواتهم وفى أرض إسرائيل .

وفى ذات يوم دخل شمويل على طالوت فألفاه شامخا متكبرا قد غره الملك فراح يحاكى الملوك فى تكبرهم ، فقال له شمويل :

ـــ أصبحت ملك إسرائيل يوم كنت متواضعا فى نفسك ، فما الذى غرك لتعصى أوامر الله ؟

فقال طالوت :

— سأتضرع إلى الله أن يغفر لى خطاياى .

وأراد شمويل أن ينصرف فأمسك طالوت بذيل جبته فتمزق ، فقال شمويل :

— يمزق الله مملكة بنى إسرائيل عنك .

— قد أخطأت . والآن فأكرمنى أمام شيوخ شعبى وأمام الله وارجع معى وسوف أسجد لله أو أدعوه إن يغفر ذنبى .

وسجد شمويل وطالوت لله ملتمسين غفرانه ، وبعد أن تمت الصلاة دخل طالوت قصره وكلمات شمويل ترن فى أذنيه : « يمزق الله مملكة بنى إسرائيل عنك » فأحس انقباضا ، فماذا لو استجاب الله دعاء نبيه ؟ إنه كان فقيرا فأكرمه الله فصار ملكا وقد ألف عيشة الملوك ، وإنه لمما يحز فى نفسه أن تزول عنه أبهة الملك والسلطان .

وظل طالوت قلقا حزينا ، فلما دخل عليه غلمانه أنكروه وقالوا :

— روح عن نفسك يا مولانا .

— إن الأفكار السود تعبث بى .

— ابعث إلى رجل يحسن الضرب على العود يبدد من حولك هذه الكآبة .

فقال أحد الغلمان :

— إنى أعرف غلاما يرعى الغنم ويحسن الضرب على العود ، إذا غنى أصغى الكون وخشعت القلوب ، فصوته عذب لا يحاكيه صوت فى الوجود .

فقال طالوت :

— علىّ بهذا الغلام .

فخرج العبيد يبحثون عن داود حتى إذا عثروا عليه عادوا به إلى الملك ،

وراح طالوت ينظر إليه فارتاح إلى منظره ؛ كان أشقر جميلا وكانت عيناه زرقاوين وفى وجهه صفاء يعكس صفاء نفسه ، وكان قصيرا بيد أنه لم يكن قميئا .

وأخذ داود يضرب على العود ، وما انبعثت الأنغام حتى أحس طالوت كأنما السحر يسرى فى الهواء ، وشعر بالضيق يجلو عن صدره وبالنشوة تمشى فى أوصاله . إنها نشوة من تهيم روحه لتتصل بروح الروح وتضيء جوانحه بنور النور . وارتفع صوت داود العذب الحنون يمجد الله ، ولا غرو فقد كان داود سبطا من الأسباط ، كان من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن :

ـــ يا رب ما أعظم اسمك فى الأرض !

ويا لروعة جلالك فوق السماء !

الأطفال والرضع يسبحون بحمدك .

وطيور السماء تقدس لك .

والقمر والنجوم صنع يمينك .

يا رب ! ما أمجد اسمك فى الأرض !

وأحس طالوت تواضعا يغشاه فخر ساجدا لله وقد غشيته راحة وطمأنينة وأمن .

وكان على بنى إسرائيل أن يتأهبوا للقتال فجاء طالوت وقال لهم :

ـــ إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى ، إلا من اغترف غرفة بيده .

إن الله مبتليهم بنهر ليعرف قائدهم المطيعين ممن لا يضغون إلى الأوامر ولا يعترفون بالنظام ، فلا خير فى جيش يعصى فيه الجنود أوامر قائدهم ولا يحترمون النظام ، فالنظام سند الروح المعنوية وسبيل النصر وإعلاء كلمة الله .

وخرج إخوة داود مع الجيش وبقي داود يرعى غنم أبيه ويقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض فتفتح آيات الله بصيرته وترهف نفسه وتنطلق روحه رفرافة مجنحة فى رحاب خالق الكون وواهب الحياة . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقــوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .

وسار جيش بني إسرائيل حتى إذا وصلوا إلى النهر راح الرجال يشربون منه وعصوا أمر طالوت إلا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يقفلوا راجعين فلا خير فى جنود لا يطيعون ما يصدر إليهم من أوامر دون تفكير .

وعبر طالوت والذين معه النهر وانطلقوا حتى أصبحوا أمام جيش جالوت حاكم الكنعانيين ، فلما رأوا جيش جالوت الجرار مشى الرعب فى أوصالهم فقالوا :

— لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال الجنود الذين يظنون أنهم ملاقو الله :

— كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وأصبح جيش طالوت أمام جيش جالوت وجها لوجه ، فدعا المؤمنون ربهم قالوا :

— ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

وبدأت المناوشات بين الجيشين فكان الرجال يخرجون للرجال يتجالدون ويتبارزون ، وخرج من بين الصفوف جالوت وكان طويلا جدا فى وجهه صرامة يبعث منظره الرعب فى القلوب ويزلزل الأرض تحت أقدام الأبطال الصناديد .

ووقف يتألق فى زهو تحت أشعة الشمس وكان على رأسه خوذة من نحاس

تتألق فتنبعث منها أشعة تشيع فى صفوف بنى إسرائيل رعبا شديدا . وكان يخيل لبنى إسرائيل أن درعه النحاسية حصن منيع ، وكان فى يده رمح هائل تتراءى على سنانه المنون ، وصاح فى صوت يقصف كالرعد :

ــ يا طالوت لم يقتل قومى قومك ؟ اخرج لقتالى أو أخرج لى من شئت من جنودك ، فإن قتلتك كان الملك لى وإن قتلتنى كان الملك لك .

وساد فى ميدان القتال سكون رهيب ولف الخوف معسكر بنى إسرائيل ، فما كان أحد منهم يجرؤ على أن يفكر فى التقدم لقتال ذلك الجبار الرهيب ، وصاح طالوت فى جنوده :

ــ من يخرج لقتال جالوت ؟

فلم يخرج أحد فما كان أحد ليرمى نفسه فى أحضان الموت عن طواعية . وتقدم جالوت صوب صفوف بنى إسرائيل فتأخروا مرعوبين فضحك جالوت وجلجلت ضحكاته لتنزل الرعب فى قلوبهم ، فانبعثت الهتافات من صفوف جنوده وتطايرت عبارات الزراية والاستخفاف بمن يزعمون أنهم جنود رب السموات والأرض .

ومرت الأيام وجالوت يبرز كل يوم بين الصفوف يدعو الرجال للنزال فلا يجرؤ أحد على أن يخرج له . فحز ذلك فى نفس طالوت ، وأراد أن يشجع الرجال على الخروج لقتال ذلك الطاغية الذى يسخر منهم كل يوم ، فصاح فى جنوده .

ــ من يقتل جالوت كرمته وزوجته ابنتى وجعلت بيت أبيه حرا فى إسرائيل .

فلم يغر ذلك الوعد أحدا من بنى إسرائيل فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت يزف إلى الموت قبل أن يزف إلى ابنة طالوت .

وانقضت أربعون يوما والحرب دائرة وجالوت يخرج كل يوم بين

الصفوف يتألق فى الشمس ، ويصيح بالرجال الصناديد أن يخرجوا لقتاله فلا يجرؤ أحد على الخروج ، فكان يسخر بهم وكانت سخريته مريرة تحز فى نفس ملكهم طالوت .

وفى ذات يوم ترك داود غنمه وذهب ليرى إخوته المحاربين ويقدم لهم الطعام ، فبلغ ساحة القتال فوجد الجيشين اصطفا للنزال وخرج جالوت بين الصفوف وراح يصيح فى زراية واعتداد :

— أما من أحد يريد أن يقاتلنى ؟

فانكمش بنو إسرائيل ولم يتقدم منهم أحد ، فأحس داود دماءه تثور فى عروقه وتتدفق حارة إلى رأسه ، فما بال هؤلاء الرجال يحجمون عن قتال ذلك الرجل ؟ وغضب داود لله فقد رأى المؤمنين يخافون رأس الكفر ولا يخجلون من الله الذى يحاربون فى سبيله ، فانطلق داود بين الصفوف كعاصفة مزمجرة غاضبة وصاح :

— أنا أقاتلك .

فهرع إخوة داود إليه وصاحوا به :

— أمجنون أنت ؟ إنه جالوت .

فقال داود فى إيمان :

— إن من هو أقوى من جالوت يؤيدنى .

— عد إلى غنمك يا داود إنك تقدم على الانتحار .

وتقدم طالوت منه وقال له :

— إنك غلام وهو رجل حرب .

— دعنى يا مولاى أقتله إن الله معى .

وألبس طالوت داود ثيابه وجعل على رأسه خوذة من نحاس ، وألبسه درعا وقلده سيفا وقال له :

ـــ اذهب والله يرعاك .

وهم داود بالسير ولكنه لم يقدر ، فنزعها عن نفسه وقال لطالوت :

ـــ إنى أجيد استعمال المقلاع فما صوبته إلى شيء إلا أصبته .

وتقدم داود و لم يكن فى يده إلا هراوة ومقلاع ، وتقدم جالوت وفى يده حربته التى طالما انتصر بها على أعدائه وكان رأسها يزن ستمائة شاقل من الحديد ، وقد غطى جسمه بالزرد الكامل من خوذة ودرع خفيف ودرع صغير ودرعى الساقين وقد امتلأ غرورا ، فما يحسب أن هناك سلاحا فى أيدى أعدائه من بنى إسرائيل بقادر على أن ينفذ إليه .

ونظر جالوت إلى داود الذى تقدم لقتاله دون درع وقال له :

ـــ يا فتى ارجع فإنى لا أريد أن أقتلك .

فقال داود فى حزم :

ـــ لا ، بل أنا مصمم على أن أقتلك .

ضحك جالوت فى سخرية ولكن سرعان ما ماتت سخريته فقد ألقى الله فى قلبه الرعب من ذلك الفتى الأعزل ، وأخذ الريب جالوت كل مأخذ وصاح :

ـــ هل أنا كلب حتى تأتى إلىّ بهراوة ؟

أتكون استهانة ذلك الفتى خطة محكمة ؟ ترى ماذا يكمن فى جراب الراعى الشاب ؟ أيملك سلاحا سريا يفوق حربته ودرعه ؟ فالفوز معقود لمن يملك أحدث سلاح . كان سلاح جالوت أمضى سلاح حتى هذه الساعة وقد حقق له ذلك السلاح كل نصر . ترى أيصمد ذلك الفتى الأعزل الذى لا يملك إلا هراوته لضربة من رأس حربته الذى يزن ستمائة شاقل من الحديد ؟!

وساد المعسكرين هدوء واشرأبت الأعناق وشخصت الأبصار ، وسار

جالوت إلى داود الأعزل ليضربه ضربة تقضى عليه فأخرج داود من جرابه حجرا ووضعه فى مقلاعه . ثم أدار داود المقلاع وأرسل الحجر فأصاب به عين جالوت فسقط فخف داود إليه وقعد على صدره وحز رأسه فانبعثت أصوات الهلع من صفوف الفلسطينيين وأصوات التهليل من صفوف بنى إسرائيل .

قتل داود جالوت فزلزل ذلك قلوب الكنعانيين فما دار بخلدهم أن غلاما يجدل ملكهم الجبار العتيد ، وبعث ذلك الحماسة فى صدور بنى إسرائيل فشددوا على أعدائهم النكير وأعملوا فيهم القتل حتى فروا من أمامهم مهزومين .

وعاد طالوت منتصرا فخرج بنو إسرائيل لاستقباله ، وراحت الإسرائيليات يرقصن ويغنين فرحات مستبشرات بنصر الله وأخذن ينشدن أن الملك ضرب أعداءه وأن داود استحق أن يتزوج ربوات ابنة الملك العظيم . فاستشعر طالوت بعض الكدر فما كان داود إلا راعيا يرعى الغنم لا يليق أن يصاهر الملك ، ونسى طالوت أنه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكا لبنى إسرائيل .

كان داود متواضعا فى نفسه عظيما عند الله فلم يلتمس أن ينفذ الملك وعده ويزوجه ابنته ، فما خرج لقتال جالوت طمعا فى ربوات ولكنه تقدم لقتله إرضاء لإلـٰه إسرائيل .

وعين طالوت داود قائدا لجيوشه فكان لا يخرج إلى غزوة إلا عاد منها منتصرا ، واشتهر داود وعلا ذكره ولكن لم يتملكه الغرور ، كان يصلى لله ويصوم ويعتكف أياما ليتعبد ، فقد كان يريد أن يكون عند الله كآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وأحب الشعب داود ورأى الملك أن يصاهره فبعث إليه من يقول له :

ــ إن الملك يوافق على أن يعطيك ابنته ميرب لو طلبتها زوجة لك .

فقال داود فى صدق :

ــ ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟

وتزوجت ابنة الملك الكبرى من رجل آخر ، واستمر داود فى غزواته ، وكان دخوله وخروجه أمام الشعب فأصبح محط آمال بنى إسرائيل . وشغفت ميكال ابنة الملك به حبا فأرسلت إلى أبيها من يذكر له أن ميكال ابنته تهوى داود ولا تطيق العيش بعيدة عنه فبعث طالوت إليه الرسل يقولون له :

ــ إن الملك يحبك ويقدرك وهو يرى أن يزوجك ابنته ميكال إظهارا لإعجابه بك ومكافأة لك على الوفاء والإخلاص .

فقال داود :

ــ ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟!

ــ أنت قائده المظفر من يسير النصر فى ركابه ، أنت طالع السعد فى مملكته .

ــ إنى رجل فقير وليس من الهين على رجل مثلى أن يصاهر الملوك .

ــ أنت رجل حرب قدير وبمثلك توطد العروش .

واستمر الرسل فى إقناع داود بقبول الزواج من ميكال التى تحبه حتى اقتنع ، وتم الزواج ففرحت ابنة الملك العاشقة ، وزاد داود بتلك المصاهرة علوا ورفعة فى أعين بنى إسرائيل .

وزاد حب الشعب لداود وتعلق به كل من فى القصر حتى أهل بيت الملك ، فأحس طالوت غيرة وراحت تلك الغيرة تزداد على الأيام حتى فكر فى قتل داود .

وفى ذات يوم أفضى إلى يوناثان ابنه وولى عهده أنه سيقتل داود ليبقى على الملك فى أسرته فقد أصبح داود خطرا على العرش ، فقلوب الشعب تلتف

حوله والزمن حليفه فإذا ترك حيا فلن يحول بينه وبين الملك حائل .

كان يوناثان يحب داود وكان يؤمن بصلاحه وتقواه فهرع إليه وقال له :

ــ أبى يلتمس الليلة قتلك فاهرب من وجهه إلى الخلاء واختبئ ، حتى إذا ما أصبح الصباح خرجت أنا وأبى إلى قرب مخبئك وتحدثنا عنك فتسمع ما يدور بيننا من حديث .

وهرب داود من وجه طالوت ، فلما جاء الصباح خرج طالوت وابنه وأقبلا حتى وقفا بالقرب من مخبأ داود وقال يوناثان :

ــ ليت مولاى الملك لا يخطئ فى حق عبده داود ، فداود لم يخطئ فى حقك فهو يبذل قصارى جهده إرضاء لك . لقد شهر نفسه سيفا فى يدك على أعدائك وأنزل بهم الهزائم وأنت لا ترضى أن تريق دما بريئا . تذكر أن الرب الذى اختارك ملكا على هذا الشعب يرقب أعمالك ويعرف ما تخفيه فى صدرك.

فأطرق طالوت قليلا وقد أحس ندما على ما فكر فيه فقال :

ــ أقسم ألا أمد يدى إلى داود بأذى ما حييت .

وعاد طالوت وابنه إلى القصر يتسامران ، وخرج داود من مكمنه وانطلق إلى الملك فقابله الملك باشا مرحبا .

وخرج داود لقتال الكنعانيين فضربهم وانتصر عليهم وعاد إلى بنى إسرائيل مظفرا فاستقبلوه استقبالا فخما رائعا ، وبلغت مسامع طالوت هتافات الجماهير فتحركت الغيرة فى صدره وراحت تعذبه وتضنيه .

وجلس داود يوما إلى الملك يشجيه بصوته الحنون ، كان داود يمجد الله والدموع تسيل على خديه فقد كان يرتجف من خشية الله . واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب .

لم يكن طالوت يصغى إلى الصوت العجيب الذى ينفث السحر بل كان

يصغى إلى شيطانه الذى يوسوس له أن يقتل من سلبه حب شعبه ، فرفع الرمح وطعن به داود ولكنه أخطأه ، فنهض داود وفر من وجهه .

وهرب داود إلى بيته وذهب إلى ميكال يقص عليها خبره ، فقالت له :

ـــ إنى أعرف أبى ، اهرب بنفسك الليلة لأنه سيبعث فى أثرك من يقتلك .

وهم داود بالخروج فقالت له ميكال :

ـــ لا تخرج من الباب فعبيد أبى يرصدونك ويرقبون خروجك ليقتلوك ، تعال .

وساعدته على الخروج من فتحة فى الحائط فانطلق هاربا من الموت الذى يتربص عند الباب .

ووضعت ميكال فى فراش زوجها تمثالا وغطته بغطائه لتخدع الرجال الواقفين بالباب يترصدون داود .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى فسمعت ميكال طرقا على الباب فذهبت لتجد عبيد أبيها ، فلما انفرج الباب قالت للرسل الذين بعث بهم الملك :

ـــ ماذا تبغون ؟

ـــ مولانا يطلب داود .

ـــ إن زوجى مريض .

وعاد الرسل إلى الملك فأمرهم أن يأتوا إليه بداود من فراشه ، وقفل الرسل عائدين وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا التمثال فى استقبالهم .

واشتد غضب طالوت وصاح بابنته :

ـــ لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدى ؟

فانبرت الزوجة المحبة تدافع عن زوجها ، ولكن دفاعها لم يذهب الغضب عن الملك فبعث رسله ينقبون عن داود .

وجاء إليه رسله يخبرونه بمكانه فخرج إليه فى جنوده ، وما إن وصل إلى

حيث كان حتى وقف ينظر لا يجرؤ على أن يتقدم خطوة واحدة . فقد كان داود والنبى شمويل يصليان فى خشوع وقد غمر المكان نور إلٰهى وطافت به نفحات ربانية تملأ القلوب رقة ومحبة وإيمانا وتسليما . وأحس طالوت كأن فيض النور قد غسل فؤاده مما فيه من حقد فتقدم إلى حيث كان شمويل وداود وهو مسحور ، وفى مثل لمح البصر تذكر نعمة الله عليه إذ جعله ملكا على شعبه بعد أن كان سقاء فخلع ثيابه وخر ساجدا لله رب العالمين يصلى له ويدعوه فى ذلة وانكسار .

وسرعان ما عاد طالوت إلى ما كان فيه وعاد إلى حقده على داود وراح يلتمس الفرص لقتله ، وقابل داود يوناثان ولى العهد وقال :

— ماذا جنيت حتى يلتمس أبوك طلبى ؟

— سامحك الله إن أبى قد عفا عنك .

— إنى أحس الشر يحيط بى من كل مكان .

— إن أبى لا يفعل شيئا إلا أخبرنى به ، فلو كان ينوى قتلك لحدثنى عن ذلك .

— لقد علم أبوك حبك لى فأخفى عنك عزمه .

— وماذا ترى ؟

— غدا أول الشهر وعلىّ أن أشارك الملك فى مجلسه فى الوليمة التى يعدها كل شهر ، ولكنى أرى أن أتخلف عن هذه الوليمة ، فإذا سأل أبوك عنى فقل له إن داود استأذننى فى الذهاب إلى بيت لحم ليقدم قربانا إلى الرب ، فإذا قال الملك : « حسنا » كان ذلك دليل الرضا والسلام ، أما إذا غضب وثار كان ذلك آية على ما يضمر لى من شر .

واتفقا على أن يختبئ داود حتى يكتشف يوناثان خبيئة نفس أبيه ويخبره بما يضمر له ، فقال داود لصديقه :

— أخشى إذا جئت إلىّ أن يبعث الملك رجاله فى أثرك يتعقبونك ليهتدوا إلى مكانى .

— فماذا نفعل ؟

— والله لا أدرى .

— أخرج مع غلام من غلمانى فإذا كان الملك راضيا عنك فسأرمى سهامى وآمر الغلام أن يلتقط السهام القريبة منه ، أما إذا كان الملك حاقدا عليك فآمر غلامى أن يلتقط السهام البعيدة عنه .

وانطلق داود يختبئ وذهب يوناثان التقى إلى القصر . ووافى ميعاد الوليمة فجلس الملك فى صدرها وجلس كل واحد فى مكانه وبقى مقعد داود خاليا . ومر اليوم الأول ولم يقل الملك شيئا . وجاء اليوم الثانى وجلس كل فى مكانه وبقى مقعد داود خاليا فقال الملك :

— أين داود ؟ غاب اليوم وغاب الأمس .

فقال يوناثان :

— التمس داود منى أن أسمح له بالذهاب إلى بيت لحم ليقدم إلى الرب قربانا ، وسألنى أن يذهب ليرى إخوته فأذنت له .

فغضب طالوت غضبا شديدا وصاح بابنه :

— يا أحمق ألا ترى أنه ما دام داود يمشى على وجه الأرض فلن تتربع يوما على عرشك . ابعث من يأتى به لأقتله .

— كيف تقتله ولم يفعل ما يوجب القتل ؟ حرام أن تهدر دما بريئا !

— إنى أقتله من أجلك .

— لا أرضى أن تسفك الدماء باسمى .

— عزيز علىّ أن أرى الملك يفلت من بين أصابعك وأنا أنظر لا أفعل شيئا .

— أين ذهبت حكمتك ؟! أنسيت أن الله يعطى الملك من يشاء ؟!

— حكمتي تهيب بي أن أقتله ، إذا تربع على العرش فلن يتركك تمشي في الأرض يوما . سيقتلك ويقتل أسرتك جميعا . فما كان لملك جديد أن يترك أحدا دون ذبح من أسرة من سبقه ، إني سأقتله لأحييكم جميعا .

فقال يوناثان وهو يغادر المكان :

— لن أسمح بذلك ما دام فيّ عرق ينبض .

وانقضت الليلة وبزغت الشمس تنشر أشعتها على الكون وخرج يوناثان يحمل قوسه وسهامه ومعه غلام صغير ، وما إن بلغ مكان اختفاء داود حتى تناول القوس ووضع فيه السهام وأطلقها بعيدا وصاح بغلامه :

— التقط السهام التي تجاوزتك ، أسرع ، اركض ، لا تقف .

وفهمها داود فخرج على حذر وانطلق وهو يترقب فالملك حاقد عليه يريد اغتياله . لقد أصبح طريد القانون فراح يحث الخطا هاربا بحياته .

١٦

أصبح داود طريد القانون ، إنه عرضة للقبض عليه وتنفيذ القتل فيه فى أية لحظة ، ومن يبدى له الصداقة يعرض نفسه للمهالك.واستمر فى فراره حتى وصل إلى نوب مدينة الكهان ودخل على أخيالك الكاهن ، فاضطـرب الكاهن لما رأى داود دخل عليه وحيدا فما اعتاد أن يراه إلا فى جنده وأبهته ، وأوجس خيفة فقال له فى ريب :

ــ لماذا أنت وحدك ؟

فقال داود فى همس كأنما يفضى إلى الكاهن بسر :

ــ أمرنى الملك أمرا وأوصانى ألا يعلم به أحد ، لذلك خرجت وحدى حتى لا يفطن أحد إلى خروجى .

وتلفت داود ثم قال :

ــ أيمكنك أن تمدنى بطعام ؟

ــ ليس عندى إلا الخبز المقدس .

وقدم له الخبز فلما تناوله منه قال :

ــ أيمكنك أن تمدنى بسلاح لأنى خرجت على عجل دون سيف أو رمح ؟

فقال كاهن نوب :

ــ ليس عندى إلا سيف جالوت الذى قتلته ، فإن رأيت أن تأخذه فخذه .

ــ علىّ به ، إنه سيف بتار .

وخرج داود لينضم إلى أهله وما درى أن أحد خدم طالوت كان فى المعبد

يسترق السمع ويعد عليه حركاته وسكناته .

وتقاطر الرجال على داود حتى اشتد ساعده واحتمى بالجبال ، فلما بلغ طالوت خروج الرجال إلى غريمه وقف فى رجاله وقال لهم :

ـــ ما لقلوبكم قد تغيرت علىّ ؟ وما بالكم تخفون عنى أن ابنى قد تعاقد مع داود ؟ وما بال أفئدتكم قد تحجرت ؟ أيمنحكم داود جميعا حقولا وكروما وينصبكم رؤساء على الجند ؟ ماذا فعل لكم داود حتى أصبحت قلوبكم معه ؟

فتقدم الخادم الذى رآه فى المعبد وقال فى هدوء :

ـــ رأيت داود فى نوب يتحدث مع أخيالك ، وقد أعطاه الكاهن مئونة وسيف جالوت .

فبعث الملك من يحضر له أخيالك وجميع أهل بيته ، فلما مثلوا أمامه قال الملك للكاهن فى غضب :

ـــ ما الذى جعلك تتآمر علىّ وتتحالف مع عدوى ؟

ـــ حاشاى أن أفعل ذلك يا مولاى .

ـــ منحت داود طعاما وأعطيته سيفا ونفحته ببركاتك .

ـــ إننى أعرف داود أكثر رعاياك إخلاصا لك ! إنه زوج ابنتك .

ـــ إنه عدوى .

ـــ ما كنت أعرف يا مولاى شيئا من ذلك .

ولم يصغ طالوت إليه وقال فى غضب :

ـــ فلتمت أنت وأهل بيتك .

وصاح طالوت فى خدمه :

ـــ اقتلوا هؤلاء الذين تآمروا على الملك مع داود .

ووقف الخدم مشدوهين فما كانوا يظنون أن يقتل طالوت رهبان الرب ،

وفطن طالوت إلى ترددهم فصاح فيهم :

— اقتلوهم .

ولكن أحدا من الخدم لم يتقدم ، فصاح فى الخادم الذى أفشى سر داود :

— اقتلهم أنت .

وتقدم الرجل يقتل أخيالك وأهل بيته . ولم يشف ذلك الدم المسفوك غليل الملك فبعث جنوده إلى نوب مدينة الرهبان ليضربوا أهلها بالسيف ، فسقط الرجال والنساء والأطفال صرعى ولم ينج إلا غلام انطلق يخبر داود بما حل بنوب مدينة الرهبان .

وقبل أن يفعل داود شيئا ترامى إليه أن الفلسطينيين أغاروا على قعيلة الواقعة على الحدود بين أرض إسرائيل والفلسطينيين ، فأمر رجاله أن يتأهبوا للخروج للقتال فقال له رجاله :

— إنا ها هنا خائفون نترقب ، نخشى أن يهبط علينا طالوت وجنوده ، فكيف تريد أن نذهب إلى قتال الجبارين ؟

فقال داود لرجاله :

— سنخرج للقتال وسننتصر على أعداء إسرائيل .

فقال الرجال فى اضطراب :

— كيف نغادر الحصون لنذهب إلى مدينة لها أبواب وأسوار ؟

— أوحى إلىّ أننا منتصرون .

وخرُج داود وضرب أعداءه وساق أمامه الغنائم والأسلاب ، وبلغ طالوت أن داود ورجاله الثائرين دخلوا قعيلة فأيقن أنهم وقعوا فى يده فما أيسر أن يحاصرهم فى مدينة ذات أسوار وأبواب ، ولكنه ما إن بلغ قعيلة حتى ألفى داود ورجاله قد خرجوا منها هاربين .

كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ففى ذات يوم خرج طالوت فى ثلاثة

آلاف رجل يطلب داود ، واستمر فى تنقيبه حتى بلغ الكهوف وأحس التعب يمشي فى أوصاله ، فدخل إلى كهف ونام .

وكان داود ورجاله فى ذلك الكهف فلما رأوا طالوت نائما قالوا لداود :

— هذا هو طالوت قد ساقه الله إليك فقم فاقتله .

فقال داود فى إخلاص :

— حاش أن أقتل رجلا اختاره الله ملكا لبنى إسرائيل .

وهم الرجال بالانقضاض على ملكهم فقال لهم زاجرا :

— حذار أن يمسه أحدكم بسوء .

وسار داود على حذر حتى إذا اقترب من طالوت الغارق فى سباته قطع طرف جبته ، ثم عاد إلى مكانه ينتظر استيقاظ الملك . وقام طالوت من رقاده وانطلق صوب باب الكهف ، وما إن خرج منه حتى مس أذنيه صوت يناديه :

— مولاى .

— هذا صوت داود ، أأنت داود ؟

— نعم أنا داود يا مولاى ، لماذا تلقى السمع إلى من يوسوسون لك أننى عدوك ، وأننى أريد لك الأذى ؟ انظر إلى طرف جبتك ، لقد قطعته وأنت نائم لأدلك على ولائى ، فما كنت أقتل ملكا اختاره الله ، إنى أتركك وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

فانهمرت دموع طالوت وقال :

— أنت أبر منى يا داود ، ظفرت بى وعفوت . إنى أسأت إليك يا ولدى وقتلت رهبان الدير دون ذنب . سأبتهل إلى الله وأدعوه عله أن يغفر لى ذنبى .

ووقع فى قلب طالوت التوبة وأقبل على البكاء ، وكان كل ليلة يخرج وينادى :

ـــ أريد عالما عابدا يعلمنى كيف أتوب إلى الله !!

فقال له قائل :

ـــ هل تدرى ما مثلك ؟ إن مثلك مثل ملك نزل قرية فغربت الشمس وصاح ديك فتطير منه فقال : لا تتركوا فى القرية ديكا إلا ذبحتموه . ونفذوا أمره وعندما أراد أن ينام قال : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج . فقالوا له : وهل تركت ديكا يسمع صوته ؟ وأنت هل تركت عالما فى الأرض تسأله هل لك من توبة ؟

وخرجت جحافل الفلسطينيين لقتال إسرائيل وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهيبة قاسية وأخذ طالوت يقاتل فى حرارة ليكفر عن ذنبه فقد كان متأهبا للاستشهاد لعل الله يغفر له دماء الرهبان الزكية التى سالت كالأنهار فى نوب .

وانخلعت قلوب بنى إسرائيل أمام هجوم الفلسطينيين الرهيب فولـــوا مدبرين ، وثبت طالوت وأبناؤه للقتال ، وراح يوناثان يحارب فى قوة وبأس يذب عن أبيه :

ـــ وسقط يوناثان صريعا فأحس طالوت كأن خناجر تمزق فؤاده ، وسقط أبناؤه حوله يخبطون فى دمائهم فراح يئن كوحش جريح ، وأصابه سهم فى عنقه فأرداه .

وجاء الكنعانيون يسلبون القتلى فوجدوا طالوت صريعا فحزوا رأسه ونزعوا سلاحه وراحوا يطوفون بالرأس فى الأسواق وهم يتصايحون فرحا ، وفى ذلك الوقت كان رجل من بنى إسرائيل يفر مرعوبا كأنما يقتفى أثره الشياطين . .

وأقبل الرجل وقد شق ثيابه وراح يحثو التراب على رأسه فهرع داود إليه وقال :

— من أين أنت آت ؟

— من عسكر إسرائيل .

— كيف خلفتهم ؟

— فر الناس من المعركة مهزومين ، وقد سقط الرجال قتلى ، وصرع طالوت وابنه يوناثان .

وشعر داود بالحزن يعتصره وفاضت فى نفسه مشاعر الحب للملك ولابنه يوناثان الصديق ، فراح يندبهما فى صوت حزين :

— مجدك يا إسرائيل صريع على شوامخك .

كيف سقط الجبابرة ؟!

لا تذكروا هذا النبأ فى جت .

ولا تذيعوه فى شوارع أشكلون ،

لئلا تفرح الفلسطينيات ،

لئلا تشمت بنات الأجلاف .

يا جبال جليوع ،

لا تدعى الطل ولا المطر يتساقط عليك ،

ولا المراعى تنبت على سفوحك ،

لأن هناك ألقى مجن الجبابرة ،

مجن طالوت دون أن يمسح بالدهن المقدس .

إن الحبيبين طالوت ويوناثان لم يفترقا فى حياتهما ،

وها هو ذا الموت يجمع بينهما .

كانا أخف من النسور وأشد من الليوث .

يا بنات إسرائيل ابكين على طالوت بالدمع الهتون ،

طالوت الذى دثركن فى الديباج ،

وجعلكن ترفلن فى ثياب موشاة بالذهب .
كيف سقط الجبابرة فى وسط المعمعة ؟!
يا يوناثان ، إن خوفى عليك عميق يا يوناثان !
كنت لى حبيبا .
وكان حبك لى عجيبا !
كيف سقط الجبابرة .
وتكسرت أدوات القتال ؟

ونصب ابن طالوت ملكا على إسرائيل ، ومرت السنون وداود فى حبرون يحكم عشيرته ويقضى بين الناس ويتلقى وحى السماء ، ويمضى نهاره وليله يتعبد لله رب آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . ويجتهد فى عبادته . وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا .

وفى ذات يوم جاء الناعى ينعى إليه ابن طالوت فعلم داود أن موعد تنصيبه ملكا على إسرائيل قد حان . وسرعان ما جاء أكابر بنى إسرائيل إليه يدعونه ليكون ملكا على كل الأرض ، ونودى بالنبى الكريم ملكا على إسرائيل ، ولما كانت حبرون لا تصلح لتكون عاصمة للمملكة كلها خرج داود وزوجاته ورجاله وجنوده وانطلقوا إلى حصن أورشليم .

وقسم داود الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه .

وجاء يوم عبادته ودخل محرابه يمجد الله بصوته الذى تخشع له الأفئدة والطيور والوحوش فى الغاب ، وجاء رجلان يتلمسان مقابلته فقال لهما الحراس :

— إنه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم لأنه فى يوم عبادته .

فانطلق الرجلان إلى السور وتسلقاه ودخلا على داود وهو غارق فى عبادته ، فما شعر إلا وهما جالسان بين يديه فخاف منهما فقالا له :

— لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط .

قال لهما :

— قصا علىّ قصتكما .

— إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، وقد قهرنى وأخذ نعجتى وضمها إلى نعاجه .

كان داود يتلفت فى خوف فقال دون أن يسأل الخصم الآخر :

— لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

— يا داود ما هكذا يكون القضاء ، حكمت قبل أن تسمع طرفى الخصومة .

فنظر داود فلم ير شيئا فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهماه . وظن داود أنا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

وكان العماليق يغيرون على إسرائيل على الدوام فلم تنقطع إغارتهم عليها منذ أن خرجوا من مصر . لقد طرد الهكسوس من وادى النيل وبقى بنو إسرائيل للذل والهوان حتى خرج بهم موسى إلى التيه ، ثم قادهم فتاه يوشع بن نون لينزلوا أرض فلسطين .

كان العماليق يمقتون بنى إسرائيل فبعد أن منحوهم الحماية أيام سلطانهم على مصر لم يحفظوا لهم هذا الصنيع بل انضموا إلى المصريين وتخلوا عنهم ، فلما صار ملك بنى إسرائيل إلى داود خرج فى جيش جرار لقتال العماليق .

ودارت الحرب بين الجانبين حتى انكسر العماليق وانسحبوا إلى قلب الجزيرة ، فاقتفى داود أثرهم حتى دخل يثرب . وراح علماء بنى إسرائيل يتلفتون ، إنها أرض ذات نخل فلعلها تكون مهجر ذلك النبى الذى بشر به موسى ، وعادت إلى أذهانهم تلك الآيات التى أوحى الله بها إلى عبده كليم الله : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ، فأكلمهم بكل ما أوصيه به » .

إن الله سيتلألأ من فاران ، من الأرض المقدسة التى أنزل إبراهيم بها هاجر وإسماعيل ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ونزل بعض أحبار بنى إسرائيل فى يثرب ينتظرون ذلك الرسول النبى الأمى الذى سيبعث فى الأمم لا فى بنى إسرائيل . الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة .

١٧

كانت إسرائيل فى ذروة مجدها ، فنبى الله داود يحكم بين الناس بالحق ويحاول أن يذيب أسباط إسرائيل الاثني عشر فى أمة واحدة موحدة ، وأن يقضى على العصبية القبلية بعد أن هزم أعداء بنى إسرائيل .

وكان داود على علم ببيت الله المحرم الذى كرم الله به بنى إسماعيل ، وكان يقدسه وينظر إليه نظرة إجلال ويتمنى أن يكون لبنى إسرائيل بيت مقدس فى أورشليم عوضا عن خيمة الرب التى شدت من جلود البقر ، ولكن استغراقه فى العبادة شغله عن أن يبنى الهيكل أو يقيم القواعد من البيت .

ورزق داود بسليمان ومرت السنون فكبر داود وشاخ ، وفى ذات يوم جلس للناس يحكم بينهم وكان سليمان حاضرا فجاء خصمان قال أحدهما :

ــ إن غنم هذا الرجل دخلت حقلى وأكلت ما فيه من الزرع .

فسأل داود صاحب الغنم :

ــ هل فعلت غنمك هذا ؟

ــ نعم .

ــ يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم مقابل زرعه الذى فسد .

كان سليمان فى الثانية عشرة من عمره فالتفت إلى أبيه وقال :

ــ غير هذا يا نبى الله .

ــ ماذا ترى يا سليمان ؟

ــ يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى إذا عاد الحقل كما كان أخذ صاحب الحقل حقله

وأخذ صاحب الغنم غنمه .

وتهللت أسارير داود لحكمة ابنه وقضى بما قال ، ولما انقضى مجلسه ودخل إلى أهله وأقبلت زوجه إليه أخبرها أنه سينصب ابنها سليمان ملكا من بعده .

وظن أدونيا بن داود أنه وارث العرش بعد أبيه ، فجهز عجلات وفرسانا ورجالا يجرون أمامه ، ورأى أن أباه شاخ و لم يعد يصلح للملك فعزم على أن ينادى بنفسه ملكا على إسرائيل ، فأعد وليمة فاخرة دعا إليها جميع إخوته ما عدا سليمان ودعا خدام الملك ليبايعوه بالملك فى ذلك الحفل .

ودخل حكيم من حكماء القصر على أم سليمان وقال لها :

ـــ دعا أدونيا إخوته إلى وليمة لينصب نفسه ملكا على إسرائيل دون أن يعلم داود . ادخلى إلى داود الآن وقولى له : أما وعدتنى أن يكون سليمان ملكا من بعدك ؟ فما الذى جعل أدونيا يطلب الملك لنفسه ؟ وفيما أنت تحادثين الملك أدخل أنا لأشد أزرك .

ودخلت أم سليمان على داود وقالت له :

ـــ وعدتنى أن يخلفك ابنى سليمان على عرشك ، ولكن ها هو ذا أدونيا يذبح الذبائح ويمد الموائد ويدعو جميع إخوته ليبايعوه بالملك دون علمك ، فماذا أنت فاعل ؟

ودخل حكيم القصر وقال :

ـــ أأنت أمرت أن يكون أدونيا ملكا من بعدك ؟

فقال داود :

ـــ ادع لى رجالى .

ودخل رجال داود المخلصون فقال لهم :

ـــ أركبوا سليمان على بغلتى وانفخوا فى الأبواق واهتفوا : يحيا الملك

سليمان ، لقد نصبته ملكا على إسرائيل .

وركب سليمان بغلة داود ونفخ فى الأبواق ، فجاء الناس من كل فج عميق يهتفون بحياة الملك الجديد .

وصكت الهتافات آذان من دعاهم أدونيا إلى الوليمة التى جهزها لينادى بنفسه ملكا على إسرائيل فارتعدت فرائصهم وانتشر الخوف فى جوانحهم فتفرقوا ذعرا ، ودبت الرهبة فى قلب أدونيا وخشى أن يفتك سليمان به ففر إلى خيمة الرب وقال :

ـــ لن أبرح حتى يأتينى الأمان من أخى .

وأمنه سليمان فوفد عليه يعرض ولاءه ، وتربع سليمان على عرش أبيه فخر داود ساجدا فى فراشه وقال :

ـــ لك الحمد يارب على ما أوليتنى من نعم ، إلٰهى اغفر لى عجزى لأن بيانى قصر عن أن يفصح عما يجيش به صدرى . لك الحمد يارب إذ وهبت لى اليوم من يجلس على عرشى وعيناى تبصران .

وراح سليمان يقنع أسباط بنى إسرائيل بنبذ الشقاق وهجر الحروب وبذل الجهود فى الصناعة والتجارة ، فأنشأ صلات ودية مع حيرام ملك صور ، وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم إلى أورشليم . فازدهرت عمليات استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات إسرائيل الزراعية .

ووطد أواصر الصداقة مع قبائل بنى إسماعيل التى انتشرت على طريق القوافل ، ومع العرب الذين التفوا حول البيت المحرم ، وراح يستخرج من جزيرة العرب الذهب والحجارة الكريمة .

وآمن سليمان بعدم جدوى الحروب إذ كان رجل سلام وإن كان على استعداد لامتشاق الحسام ، فتزوج ابنة فرعون مصر ليقوم السلام مكان الصدام بين مملكته ومملكة الفراعين .

وراح يحاول أن يقضي على النزعة الانفصالية بين قبائل الأسباط الاثنتى عشرة وأن يؤلف منها شعبا واحدا ، ولكنه أخفق فقد كانت النعرة القومية متأصلة فيهم ، وكانت كل قبيلة تعتقد أنها أشرف مما عداها من القبائل وإن كانوا جميعا ينتسبون ليعقوب ، وإن كان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب !

وخرجت البعثات لاستخراج المعادن ولاستيراد العاج والقردة والطواويس لتباع للأثرياء المحدثين بأثمان باهظة ، واحتكر تجارة الخيوط والخيل والمركبات ، وفرض الزكاة على الأغنياء والقادرين ، وكان يعشر القوافل المارة بفلسطين ، فتكدست الأموال فى بيت المال وامتلأت أورشليم بالفضة وكادت تكون فى عداد الحجارة والحصى .

واستولت على لبه فكرة إقامة هيكل الله فى أورشليم بعد أن ضرب فى قلب صحراء جزيرة العرب وحج أول بيت وضع للناس ، فعزم على إقامة بيت الله ، وما فكر فى أن ينافس البيت العتيق أو الكعبة المقدسة بل أراد أن يجمع خيام الرب التى انتشرت فى قبائل الأسباط الاثنتى عشرة فى هيكل واحد ليوحد قبلة بنى إسرائيل كما توحدت قبلة بنى إسماعيل .

وجمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلن عن عزمه على تشييد هيكل لله فهب الأغنياء يتبرعون ، وجاء الصناع من كل أنحاء بنى إسرائيل ليكون لهم شرف العمل فى بيت الله .

واستمر العمل فى بناء الهيكل سبع سنين ، ثم واصل مهرة العمال الذين جاءوا من صيدا وصور العمل ثلاثة عشر عاما لبناء الصرح ليكون مقرا للملك سليمان الحكيم .

وصار الهيكل مركزا روحيا لبنى إسرائيل وعاصمة لملكهم فنشأت الوحدة السياسية ، وراح الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وعاد الناس لعبادة الله وحده رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود ،

ونبذوا عبادة العجل والحية وبعل وتموز وعشتار وآلهة الوثنيين فى بابل وسورية ومصر .

وفى ذلك الوقت كان الناس فى اليمن فى ضنك كبير يتنفسون فى حذر ويتلفتون فى ذعر ويتهامسون فى خوف ، فقد هجرت الطمأنينة سبأ بعد أن سادها الطغيان ونزل بها الرعب والفزع ، فزلة لسان أو إشارة امتعاض أو غمغمة استياء كافية لإطاحة الرءوس ، فالذى استلب الملك من ملكهم طاغية قُدَّ قلبه من الصخر . كان قاسيا لا يعرف الرحمة فأذاق الشعب صنوف العذاب وسقاه الذل وجرعه الهوان ، إنه يلغ فى الدماء ولوغا وتستريح نفسه لأنات الألم وتأوهات الشقاء .

وخيم على سبأ سحائب داكنة من الذل والخنوع ، وأحست بلقيس ما يقاسى الناس من كرب بعد موت أبيها فتألمت وزاد أساها على مر الأيام فانقلب حقدا على الطاغية الغشوم ، فما كان الشعب الوديع يستحق كل ذلك الاضطهاد .

أطرقت مهمومة تفكر فيما تفعله لذلك الشعب الذى رماه سوء حظه بحاكم مستبد ظالم لا يطاق ، فالتمعت فى رأسها فكرة فبيتت العزم على إنفاذها لعلها تريح الناس من ذلك الطاغية الجائر ، وتعيد إلى القلوب الطمأنينة وإلى سبأ العظيمة الأمن والاستقرار .

تزينت وأرخت شعرها السبط الناعم الأسود فتهدل رائعا ، وتحلت بأفخر اللآلئ وأكرم المعادن ، وأبرزت الفتنة فكانت آية من آيات الحسن والجمال ، ثم انطلقت إلى قصر الطاغية تسبى العقول وتلعب بالأفئدة وتأخذ بالألباب .

ودخلت على الملك فلان القلب القاسى فخفق خفقات ورنا إليها فى حنان وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كشفت عن إعجابه وافتتانه ؛ ودنت منه فأجلسها إلى جواره وأقبل عليها يحدثها فى اشتياق فحدثته فى لين ونظرت إليه

فى دلال فهفت نفسه إليها ، وما فارقته حتى كان أسير وجهها المشرق وعينها الناعمة وقدها المياس .

وترادفت زياراتها للملك فهام بها حبا ، فكان إذا خلا بنفسه يشاغله طيفها فتلوح له فى جاذبيتها وفتنتها فيخفق قلبه ويطرق ليستعيد حديثها فيحس سعادة ، كان حديثها يدغدغ حواسه وطلعتها تزلزل كيانه ونظرة منها تغمره بالنشوة ، فعزم على أن يتزوجها لتشاركه ملكه وتملأ قصره أنسا وسرورا .

وأوفد إليها رسله فاستجابت لطلبه ، وأقيمت فى سبأ الأفراح وتأهب القصر لاستقبال بلقيس الأميرة الجميلة ابنة الملك الراحل المحبوب .

ووفدت بلقيس فى ثياب العرس فكانت أروع من الزهر وأندى من الفجر وأحلى من الربيع ، فهرع إليها الملك وفى صدره لهفة وفى عينيه حب وانطلقا إلى صدر المكان لتجرى المراسيم .

وانفضت الحفلات فنهض الزوجان إلى غرفتهما وانصرف المدعوون وساد القصر هدوء ، ورنا الملك إلى بلقيس الجميلة فتحركت مشاعره وهم بالدنو منها ، فقدمت إليه كأس خمر فتجرعها فانتشت روحه ، واقترب منها فقدمت له كأسا أخرى فعبها ، وراحت تقدم له الكئوس حتى سكر فزحف إليها وهو مخمور وفتح ذراعيه ليضم إلى صدره عروسه الحسناء ، فأقبلت إليه واستلت من صدرها خنجرا أغمدته فى صدره ، فارتمى على سريره غارقا فى دمائه يعانى سكرات الموت ويلفظ آخر الأنفاس .

وسارت بلقيس فى ردهات القصر ثابتة الخطو حتى إذا بلغت العرش ألفت أعوانها يرصدون قدومها فى قلق ، فألقت إليهم برأس الطاغية واتجهت إلى سرير الملك وجلست شامخة ، فانطلق أعوانها خفافا ليزفوا إلى الشعب النبأ العظيم ، نبأ تخليص سبأ من سلطان الجور واعتلاء بلقيس عرش البلاد .

وذهبت بلقيس إلى معبد الموقاة إلـٰه القمر وقدمت القرابين ، ثم انطلقت إلى

معبد ذات حميم إلـٰهة الشمس وسجدت لها شكرا أن أيدتها ومكنتها من الطاغية الذى قتل أباها واستبد بالشعب .

ومرت سبع سنين وبلقيس تحكم شعبها من قصرها فى صرواح ، تبعث قوافل الطيب واللبان إلى إسرائيل وسورية ومصر وتعود تلك القوافل بخيرات البلاد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون القمر والشمس وعشتار فقد كانوا قوما يعبدون النجوم والكواكب ككل العرب الذين لم يعتنقوا ملة إبراهيم أو الذين ارتدوا عن دين التوحيد .

ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال :

— يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين .

وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة :

— يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .

فتبسم ضاحكا من قولها وقال :

— رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

وتفقد الطير فقال :

— ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين .

فمكث غير بعيد فقال :

— أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبإ يقين . إنى وجدت امرأة

تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إلـٰه إلا هو رب العرش العظيم .

قال :

ــ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

قالت :

ــ يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين .

قالت :

ــ يأيها الملأ أفتونى فى أمرى . ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

قالوا :

ــ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين .

قالت :

ــ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون .

فلما جاءوا سليمان قال :

ــ أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

قال :

ــ يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن :

— أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين .

قال الذى عنده علم من الكتاب :

— أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ..

فلما رآه مستقرا عنده قال :

— هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم .

قال :

— نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون .

فلما جاءت قيل :

— أهكذا عرشك ؟

قالت :

— كأنه هو .

وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها :

— ادخلى الصرح .

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال :

— إنه صرح ممرد من قوارير .

قالت :

— رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون خبير . ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير .

يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين .

١٨

انقضت أيام داود وسليمان وكانا من سبط يهوذا ، ففتنت هذه المرحلة الفذة سبط يهوذا فتملكهم الغرور واعتبروا ذلك السمو الروحي الذي بلغته مملكة إسرائيل في عهد داود وسليمان امتيازا منحه الله لهم وحدهم دون سائر البشر ، فزعموا أن اليهود من كان جدهم يهوذا بن يعقوب هم شعب الله المختار ، أما أبناء الأسباط الأحد عشر الأخر فهم كالأمم سواء بسواء .

زعموا أن النعمة الموروثة لليهود وحدهم فعبدوا ذواتهم وإن حسبوا أنهم يعبدون الله رب الناس ، ملك الناس جميعا ، لا فرق عنده بين من جاءوا من سبط يهوذا أو من سبط لاوى أو من سبط إسماعيل ، فهو رب العالمين . قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

وصارت سماحة دين إبراهيم تعصبا مقيتا ، وأصبح إلـٰه الناس إلـٰه إسرائيل ، بل إلـٰه اليهود وحدهم ثم صار إسرائيل نفسه . فقد راحوا يقولون في صلاتهم : اسمع يا إسرائيل ! وقد انحرف بهم ذلك الغرور إلى العقم الفكرى بعد أن ورثوا مع أبناء إسماعيل النفحة الروحية العظيمة وكنز الوجود ، وانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل ، وعكف أحبار اليهود على التوراة يفسرونها على هواهم في تنطع وتعصب وضيق أفق فأفسدوا توراة الله « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وقبل أن تنقسم مملكة إسرائيل إلى مملكتى يهوذا وإسرائيل كانت مملكة

آشور تتكون فى شمال العراق . فقد كان هناك شعب مقاتل يعبد آشور الإلـٰه العظيم من يحكم الآلهة جميعا ، وقد وحد شلمنصر الأول دولة آشور قبل أن يستولى بنو إسرائيل على أرض كنعان ، ووسع تفلت فلاصر الأول هذه الدولة الناشئة قبل أن يصبح طالوت ملكا . وبعد أن مات سليمان وانقسمت دولة إسرائيل صار آشور ناصر بال الثانى ملكا يحكم بابل وآشور من قصره فى عاصمة ملكه نينوى .

فأصبح آشور أبا الآلهة وسيد الأقطار وسين العاقل سيد التاج الممجد فى فخاره ، شماش قاضى السماء والأرض الذى يمحق العدو ويساعد العدالة .

صار آشور كل شيء فى حياة الآشوريين لا يفعل شيء إلا باسمه ، ولا يدور القتال وتنشب المعارك وتذل البلاد إلا لمجده ، ما من ملك من ملوك آشور إلا يقدم عقب عودته من القتال تقريرا عما كان من الخسائر التى تكبدها العدو إرضاء لآشور البطل الذى يحط الأشرار وينصر المؤمنين !

كانت آشور تعترف اعترافا صريحا بأن الحكم هو تأميم القوة ، أن تكون الجيوش وموارد الدولة فى قبضة الحاكم يوجهها حيث يشاء آشور ، فشب الشعب الآشورى شعبا مقاتلا استغل عبقريته فى تطوير فن الحرب ، فنظم فرق المركبات والفرسان والمشاة والمهندسين الذين يقوضون أبنية أعداء آشور ، وطوروا آلات الحصار وعرفوا أهمية الانقضاض السريع على الأعداء ، وتقدمت عندهم صناعة الحديد فألبسوا الجنود حللا حديدية سابغة .

وكانت أبواب المدينة وأبواب القصر الآشورى فى حراسة ثيران مجنحة لها رءوس آدمية من البازلت الأسود ، فقد كان الثور المجنح فى آشور روحا خيرا تحرس أبواب المدينة المقدسة وقصر الملك الذى وهب روحه لإلـٰهه خالق الناس ، وكانت الأجنحة رمزا لمسارعة الإلـٰه لفعل الخيرات .

وما كان فى قصور ملوك آشور ما يوحى بالخير فالجدران مزينة بصور المعارك الحربية والاحتفالات التى تجرى عقب أن يكتب آشور النصر لشعبه على أعدائه . إنها مناظر بشعة تنبض بالوحشية : سهام تتطاير لتستقر فى القلوب ، وبطون تبقر ونسور تنقض من السماء تنهش جثث القتلى .

* * *

سار الملك شلمنصر الثالث فى ردهات القصر على رأسه التاج على هيئة مخروط ناقص تعلوه شوكة يربطه شريط تدلى أطرافه على كتفيه ، وكان الملك يرتدى قميصا مزركشا له أهداب وينتعل نعلا لا يغطى إلا عقبيه وفى أذنيه حلقات كبيرة ويتقلد عقودا من التمائم ويلف فوق ساعديه أساور وتتدلى من منطقته أساور وسيوف .

وانطلق إلى المعبد وخر ساجدا لآشور وكان له إلـٰه حرب تسلح بقوس وسدد سهمه إلى قرص مجنح ، وكانت زوجته بعليت ، عشتار الآشورية إلى جواره ، وهى محاربة كذلك وبطلة قتال لا تبقى ولا تذر على أحد من أعداء آشور .

كانت بعليت تحمل جعبتى سهام إحداهما على الكتف اليمنى والأخرى على الكتف اليسرى ، وفى إحدى يديها قوس واستلت باليد الأخرى سيفا مرهفامنذرة بالويل والثبور لأعداء آشور . وانتشرت عن يمين وشمال آشور وبعليت تماثيل سين وشماش وأدد وبعل ومردوخ والآلهة الأخرى .

وأتم شلمنصر صلاته وذهب ليستوى على عرشه ، فكان أول ما فعله أن راح يقرأ فى إعجاب ما سجله سلفه تجلات بلاسر الأول على أسطوانة من أسطوانات قاعة العرش :

ـــ إن آشور والآلهة العظام الذين جعلوا ملكى عظيما منحونى القوة والنفوذ وأمرونى أن أمد حدود أراضيهم ، وقد وضعوا فى يدى أسلحتهم

القوية التى تعصف بأعدائهم .

لقد هزمت الأراضى والجبال والمدن والأمراء أعداء آشور وأخضعت بلادهم ، وحاربت بشجاعة ستين ملكا وانتصرت عليهم نصرا مؤزرا ، ولم يكن هناك من هو كفء لى فى المعركة .

وانتقل شلمنصر الثالث إلى أسطوانة أخرى وراح يقرأ ما سجله ملك آخر من أسلافه فاشتعلت فى نفسه الرغبة فى الغزو والقتال وعربدت فى جنباته شهوة أن يسجل أعماله المجيدة فى سبيل آشور على أسطوانة من أسطوانات قصره ، وراح يحلم بذلك اليوم الذى يقدم فيه إلى إلـٰهه تقريره عن غزواته فى سورية وفى أرض الفراعين .

وجلس على عرشه وراح يجرى وراء خياله فرأى نفسه على رأس جيشه فى عربة القتال والنسور تحلق فوقه ، يطأ بقدميه قبائل بنى إسماعيل يفتك برجالهم ويسبى نساءهم ويبيح لجنوده أن ينهبوا مخازن غلالهم .

تهللت أساريره والتمعت فى عينه القسوة ، فيا ويل بنى إسماعيل يوم ينقض عليهم انقضاض الصواعق المزمجرة ، ويا ويل دمشق وملكها ، ويا ويل بنى إسرائيل فلن يكتفى بتمزيقهم وتشتيت شملهم بل سيأسر آلهتهم ويلقى بها تحت أقدام آشور .

واستولى عليه الانفعال فراح ينمق الكلمات التى سيرفع بها تقريره إلى مولاه نبأ فوزه المبين يوم ينصره آشور على أعدائه :

ـــ آشور السيد العظيم .

من له الحكم على الآلهة جميعا .

من يعطى التاج والصولجان .

من يثبت دعائم الملكية .

عشتار الأولى بين الآلهة .

سيدة الصراع من تخوض أعنف المعارك فتكلل بالنصر .
يأيتها الآلهة العظام ، يا من تحكمون السماء والأرض .
يا من عظمتم ملكية شلمنصر الأمير المحبوب ، من له الحظوة فى قلوبكم .
البطل الرائع الذى اصطفيتموه وتوجتموه ورسمتم إلى الأبد مصيره الملكى .

لقد جاء اليوم الذى سطع نوره وقضى بتأييدكم على أعداء آشور .

قتلت بسيفى خمسين من المحاربين ، وألقيت فى النار ثلاثمائة أسير ، واستوليت على خزائن الذهب والفضة ، وسقت أمامى إلى معابدكم المقدسة الإبل والماشية والغنم والعبيد .

وبترت أيدى كثير من أعدائكم ، وجدعت آناف آخرين ، وصلمت آذانهم وفقأت عيونهم وأحبطت أعمالهم وتركت مدنهم طعمة للنيران .

وشخص بصره إلى السماء وقال :

— أى آشور العظيم ، سأفعل ما أوحيت إلىّ : سأفعل ما لم يفعله ملك من قبلى حتى ترضى ، فلا تخزنى وانصرنى على أعداء آشور .

واستولت على لبه فكرة غزو قبائل الإسماعيليين والقضاء على ملك دمشق وملك بنى إسرائيل ، وامتدت أحلامه فأخذ يفكر فى الاستيلاء على مصر ، وإنه ليوم من أعظم أيام التاريخ يوم ينتصر آشور على اللات إلـٰهة العرب ويهوذا إلـٰه بنى إسرائيل وآمون إلـٰه المصريين ، وجاء شهر تموز شهر تجمع الجيوش كما كتب ذلك إلـٰه العلم الآشورى على عباده فقد فرض عليهم القتال فى ذلك الشهر ، فبعث شلمنصر إلى العرافين وطلب منهم أن يستشيروا الآلهة فى حملته على بنى إسماعيل والسوريين .

وعكف العرافون على أمعاء الذبائح ينظرون فيها ليروا ما سجل آشور فى لوح القدر بعد أن اغتسلوا وأطلقوا البخور وقدموا القرابين ، ونام بعضهم

بعد أن اجتهدوا فى صلواتهم وابتهلوا إلى الآلهة أن تلقى فى صدورهم رغباتهم فى الأحلام ، وسهر آخرون ينظرون فى النجوم .

وجاء العرافون إلى شلمنصر وقد تهللوا بالنبأ العظيم وقالوا :

ـــ إن السيد الكريم آشور المبجل يأمر مولانا بالخروج ، فسر على بركة آشور .

وجاء « التورتان » وهو أكبر موظفى البلاط ، وجاء كبار القواد إلى حيث جلس الملك يرسم خطط الغزو ، وراحوا يقرءون تقارير العيون المنبثة فى سورية فى أمل ، فقد كانت التقارير جميعها متفائلة تؤكد نجاح الحملة وانتصار آشور .

وتأهب الجيش للخروج من نينوى وكان جيشا من أحدث الجيوش ، كان المشاة مزودين بمعاول من البرونز ومسلحين بالأقواس والرماح وغطيت صدورهم بالدروع وهى قشور محارية مروحية الشكل تلبس فوق الدثر ، وعلى رءوسهم خوذات مخروطية تتدلى منها صفائح جانبية لحماية الأذنين .

أما حملة الأقواس فقد علقوا الجعب على ظهورهم وتألقت أعينهم بالبريق كأنهم الصقور .

وجاءت عربات القتال وأخذت مكان الصدارة من الجيش ، وكانت العربة صندوقا فوق عجلتين ضخمتين عاليتين . وفى مؤخرة الجيش كانت الإبل تحمل المؤن والماء .

وهاج الجنود وماجوا وارتفعت ضحكاتهم ونداءاتهم وتجاوبت الساحة بأصواتهم ، وسرعان ما سرى همس فى الجيش ، الملك .. الملك ، فاستقرت الألسنة وحبست الأنفاس .

وجاء الملك فى عربته ووقف خلفه جنديان يحملان علمين ، وكان معه فى العربة أحد الخصيان ليقود العربة إذا رأى الملك أن يستريح . وجاء القواد فى

عرباتهم خلف الملك صفا صفا ، وراحت النسور تحوم فوق رأس الملك وجيشه وكانت نسورا مدربة تنهش جثث الجرحى والقتلى ، وكان عبثها بالجثث أشد فتكا من الرماح والسهام والسيوف .

ونفخ فى الصور فانطلق جيش آشور كجراد منتشر على رأسه شلمنصر الثالث إلى أرض بنى إسماعيل وأرض سورية ومملكة إسرائيل التى انقسمت إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا ، لتكون كلمة آشور هى العليا ولتذل آلهة العرب والكنعانيين والآراميين والعموريين وبنى إسرائيل ، ذلك هو الخزى العظيم .

١٩

قابل جندب ملك العرب الشماليين رسول بنهدد الثانى ملك دمشق وألقى إليه سمعه . لقد جاء الرسول يدعوه ليدخل فى حلف الأخلامو حلف الرفاق ، لوقف توسع الآشوريين الطامعين فى المنطقة ، فسرعان ما استجاب للدعوة فقد كانت ممالك بنى إسماعيل التى تكونت بين بادية العراق والطور تمقت الآشوريين أشد المقت لما اشتهر عنهم من القسوة وغلظ القلوب .

كانت العلاقات طيبة بين بنى إسماعيل فى الشمال وبين جيرانهم ، فالصلات متوطدة بينهم وبين الآراميين وبينهم وبين بنى إسرائيل ، ولكن البغضاء تملأ أفئدتهم لآشور فكانوا على استعداد ليمدوا أيديهم لكل مناوئ لهؤلاء المستبدين .

كان بنو إسماعيل يتعشقون الحرية وكانوا يفضلون أن يجودوا بدمائهم على أن يخضعوا لسلطان دولة من الدول أو لطاغية مفتون ، ولما كانت أطماع الآشوريين تهدد حريتهم فقد رحب جندب بدعوة بنهدد ودخل فى حلف الأخلامو وهو مستريح الضمير .

وانطلق رسول بنهدد إلى أورشليم وقابل آخاب ملك إسرائيل بعد أن خرج من هيكل سليمان يتلفت ، فقد صلى أخاب صلاة حارة لإلـٰهه يهوذا ، بيد أن السكينة لم تنزل قلبه والطمأنينة لم تعرف طريقها إلى نفسه بل ذهبت شعاعا فقد كان مشغول البال حائرا قلقا .

ودعا رسول بنهدد آخاب إلى الدخول فى حلف الرفاق فلم يسارع أخاب لاستجابة الدعوة ، فقد كانت العداوة على أشدها بين الآراميين وبنى إسرائيل

منذ أن قامت الحروب بين الدولتين واستولى داود على دمشق إلى حين .

وراح آخاب يفكر فى العماليق وكان يعرف مقتهم لدولة إسرائيل ، فقد غزوا مملكة إسرائيل فى عهد داود وتغلغلوا فيها حتى وضعوا أيديهم على عسلوج . فإن كان داود نجح فى أن يطرد العماليق بعد ذلك من أرض إسرائيل ويتعقبهم حتى يثرب فقد دالت مملكة داود وابنه سليمان وانقسمت إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا وصار بنو إسرائيل يخشون أن يتخطفهم الناس ، فكل من حولهم من الشعوب يرون أنهم وافدون على البلاد وأنهم اغتصبوا الأرض من الكنعانيين . وزاد فى مقت الناس لهم تلك الدعوة التى اعتنقها من جاءوا من سبط يهوذا بعد أن صار الملك فى داود وسليمان وكانا من ذلك الفرع ، بأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أميون محرومون من رحمة الله !

وفكر فى ملك حماه حكام المدن الفينيقية ، فرأى أنهم يرحبون جميعا بدعوة من ملك دمشق ليصدوا تيار الآشوريين ، واهتدى إلى أنه لن يستطيع أن يتخلف عن تلبية هذه الدعوة وإن كتب له النصر على الآشوريين .

كان جيش شلمنصر قد خرج من نينوى يحمل معه إلٰه آشور ، وهو فى طريقه إليهم ولا قبل لهم به إذا لم يتحدوا ، فاستجاب آخاب لدعوة رسول بنهدد ومد يده إلى المتربصين به وبدولته ، فمن يدرى بماذا تجرى المقادير يوم يلتقى جيش اتحاد الرفاق بجيش الآشوريين .

ونجح بنهدد فى تكوين اتحاد الأخلامو من اثنى عشر ملكا ، وراح كل ملك يبعث بجنوده إلى الميدان فبلغ الجيش ستين ألف مقاتل ، وبعث جندب ملك العرب بألف جمل عليها رجال لكأنهم الرماح يطل من نصالها المنون .

وسار بنهدد على رأس جيش من الآراميين والفينيقيين وبنى إسماعيل وبنى إسرائيل وقد جمع الخطر المشترك بين الأعداء وإن ظلت قلوبهم متنافرة ، وانطلق جيش الرفاق إلى حلب يرقب جيش الآشوريين .

وجاءت العيون تنبئ أن شلمنصر يتقدم جيشه فى عربته الحربية وأنه يطوى إليهم الأرض طيا ، فخرج بنهدد لملاقاته وتراءى الجمعان عند قرقار شمالى حلب ، فضج عسكر آشور بالدعاء لإلـٰههم :

— أيها الإلـٰه الأعظم آشور !

يا أيها الإلـٰه العطوف ،

يارب الأرباب وخالق السماء !

يا من منحك مردوخ السلطة منذ الأبد ،

يا من خلقت البشر ،

يا من أمرتنا أن نخضع الشعوب لسلطانك ،

فهيئنا لطاعتك لنخرج إلى القتال فى سبيلك ،

لنمد سلطانك على الشعوب ،

فأيدنا يا آشور بنصرك .

وأظهرنا على أعدائك أيها العطوف .

وفزع جنود اتحاد الأخلامو إلى السماء فراحوا يصلون ، وكان كل شعب منهم يبتهل إلى إلـٰهه ويدعوه أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، فراح بنو إسماعيل يسألون « الإيل » إلـٰه إبراهيم وإسماعيل أن يجعلهم الأعلين فقد كانوا يؤمنون بالله وبأنه وحده خالق الكون والمتصرف فى عباده ، فإن كانوا قد حملوا معهم أصنام اللات والعزى ومناة ، فما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

وارتفعت أصوات بنى إسماعيل :

— يا ربنا ، يا رءوف يا رحيم !

يا من خلق الخلق .

يا من تعلم ما نسر وما نعلن ،

يا من لا يحب المستكبرين ،

انصرنا على القوم الظالمين .

وانتهوا من الابتهال فارتفعت أصواتهم بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك وسعديك ! ما أحبنا إليك .

وراح بنو إسرائيل يستنصرون إلـٰههم يهوذا على عدوهم وارتفعت أصواتهم بالصلاة :

— السمع يا إسرائيل !

وراح الآراميون والفينيقيون يبتهلون إلى بعل إلـٰه الحرب ، من حاكمه الناس ظلما وقتلوه فقام من بين الأموات ليكون إلـٰها فى السماء ، وطفقوا يدعونه لينصرهم على أعدائهم .

ودارت معركة رهيبة فى قرقار ، انطلق شلمنصر فى عربته الحربية ليشق صفوف جيش الاتحاد وطار فرسانه خلفه ، وإذا بالعرب من بنى إسماعيل الذين كانوا على ظهور إبلهم يخرجون لصد ذلك الهجوم ، وتراشق الجانبان بالسهام والنبال ، وشد الآراميون والفينيقيون والإسرائيليون أزر بنى إسماعيل وحمى وطيس القتال وارتفعت الصرخات والأنات وانتشرت على أرض المعركة جثث الآشوريين والعرب من إسماعيليين وآراميين وفينيقيين وإسرائيليين ، وانقضت النسور تبقر البطون وتنهش الجثث .

وشد الأخلامو على الآشوريين واستبسلوا فى النضال واستمات جنود آخاب فى القتال ، فقد كانوا أكثر المقاتلين خوفا من انتصار الآشوريين .

كان العبريون إذا انتصروا على عدوهم يضربون رقاب الرجال ويسبون النساء والأطفال ويأخذون الأموال ويسوقون الأنعام إلى هيكل سليمان ، كانوا غلاظ الأكباد بيد أنهم كانوا يعلمون أن الآشوريين أشد منهم قسوة ، فلا غرو أن كانوا يرتجفون خشية أن تدور الدائرة عليهم وأن يحملوا إلى نينوى

للذل والعذاب .

واشتد القتال واختلطت الخيول بالجمال والتحم المشاة وتقارعت السيوف وغاصت الخناجر فى القلوب ومزقت الصدور وعاثت النسور فى الجثث وتكسرت النصال على النصال وثار النقع كالجبال ثم انتشر كالسحاب ، فاختفت فى جوفه أنات الجرحى ودماء القتلى وصرخات المفزوعين وكر الفرسان وانقلاب عربات القتال وصيحات القواد أن شدوا فقد لاح النصر يا رجال !

وانجلت المعركة دون أن يظهر فريق على فريق وإن كان شلمنصر يرغب فى الانسحاب ليلعق جراحه ، وإن كان جنود اتحاد الوفاق يتمنون أن يرفع الآشوريون أيديهم عنهم وأن تقف المعركة التى طحنتهم ، فقد نال منهم القتل والتعب والكلال .

وانسحب شلمنصر وفى قلبه عداء مرير لجندب وبنى إسماعيل وحقد هائل على آخاب وإسرائيل ومقت شديد لبنهدد الذى جمع الأخلامو ليقاوموا رغبة آشور العظيم ، وانطلق إلى نينوى وهو يتميز غيظا ليقدم تقريره عن الحرب التى دارت بينه وبين اتحاد الرفاق إلى إلٰهه الذى أمره أن يشن هذه الحرب الضروس ، وراح يواسى نفسه بأنه سيعود لقتال الأخلامو وسيحملهم أسرى إلى نينوى ليذبحهم تحت أقدام آشور العطوف .

وعاد جندب والذين معه من بنى إسماعيل إلى ممالكهم وقد علموا أن العداوة باتت سافرة بينهم وبين آشور . وأن الأيام تخبئ لهم كفاحا مريرا قاسيا إذا أرادوا أن يحافظوا على حرياتهم ، وإذا رغبوا فى أن يكون لممالكهم وجود فى الحياة .

٢٠

أراد شلمنصر الثالث أن يقلد جده شلمنصر الأول ، فيصيد الممالك كما كان يصيد الأسود ، وأن يذل مردوخ وبعل واللات وآمون لآشور العظيم ، ولكنه تكبد خسائر فادحة فى الأرواح وفى عدة القتال وعاد يجر أذيال الإخفاق وإن قتل فى وقعة واحدة ستة عشر ألفا من السوريين ، وفرض الجزية على المغلوبين يؤدونها عن يد وهم صاغرون .

كان تذمر الشعب والجيش فى نينوى قد تجاوز الهمس ، وبدا أن الخطر استفحل فقام ابنه تفلت فلاصر الثالث بالثورة عليه فانتزع الملك منه ، ولما كانت سمورامات أم الملك ذات نفوذ قوى فى البلاط فقد راحت تحكم دولة آشور .

ولم يكن من اليسير على الشعب أن يخضع لامرأة فراح رجالها يوهمون الشعب أن سمورامات من نسل الآلهة ، إنها نصف إلـهة ونصف ملكة وأنها تحكم شعبها بذلك الحق الإلـهى ، فصدق الناس ما بذره رجال القصر والكهنة فى صدورهم وأسلسوا لها قيادهم .

وراحت الأساطير تنسج حول سمورامات أنها قائدة باسلة ومهندسة بارعة وحاكمة محنكة مدبرة ، فصدق الناس كل ما قيل لهم ولا غرو فهى من نسل مقدس طاهر قادر على ما لا يطيقه البشر .

وماتت سمورامات ذات الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية بعد ثلاث سنوات من حكمها ولم يمت ما نسج حولها من أساطير ، بل نقلت أسطورتها قوافل التجارة مع ما نقلت من آلهة واستقرت فى اليونان لتصبح سمورامات أسطورة

سميراميس اليونانية .

وصار الملك تفلت فلاصر الثالث الحاكم باسم آشور العظيم فى مملكة آشور ، فراح يجمع الجيوش ليخضع لإلـٰهه العطوف آلهة الممالك المجاورة ، وكان يطمع فى إخضاع سورية وإسرائيل ومملكة يهوذا التى تكونت فى السامرة بعد أن انقسمت إسرائيل إلى مملكتين متنافستين متنابزين بالألقاب . يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

وراح بنو إسماعيل يتحصنون فى موقعهم فى طريق الجيوش ، فالطامعون فى مصر من الآشوريين والطامعون فى بلاد ما بين النهرين من المصريين لا بد أن يخضعوا العرب الشماليين لسلطانهم ليتقدموا فى أمان ويحققوا أطماعهم ، دون أن يخشوا وثبة هؤلاء العرب الذين يتعشقون الحرية ويشنون الغارة على الفرق الضاربة فى الصحراء ليسلبوا الجنود ويغنموا الجيوش .

ولم يكن إخضاع بنى إسماعيل أمرا ميسورا فهم يعرفون الدروب فى الصحراء الواسعة والمسالك التى تيسر لهم الفرار دون أن يجرؤ أحد على اقتفاء آثارهم خشية الموت عطشا ، فقد كان لبنى إسماعيل آبار سرية يعلمون أماكنها ولا يعرف أعداؤهم عنها شيئا .

وكان لبنى إسماعيل أطماع ككل القبائل التى أثرت من التجارة . كانوا يرصدون الأحداث الدائرة حولهم ويتربصون ضعفا من الممالك القوية القريبة منهم ليثبوا عليها وينتزعوا السلطان منها ، وكان لهم فى قبائل العماليق أسوة حسنة إذ رعوا فى سورية وفى دلتا النيل ، فلما دب الضعف فى الحكام وآنسوا منهم خورا وثبوا على الملك فى سورية ومصر فانتزعوا الحكم وأسسوا مملكة الهكسوس .

وكانت قبيلة قيدار أقرب قبائل الإسماعيليين إلى آشور وقد أسلمت قيادها لكاهنة القبيلة ، فاجتمع الرجال وانطلقوا إلى زبيبة ملكة القيداريين وكاهنتهم وراحوا يسألونها الرأى فى الجيوش التى تتجمع فى نينوى لتنطلق نحو الغرب لا تبقى ولا تذر .

كانت زبيبة فى دومة الجندل تصوم النهار وتصلى الليل وتنظر فى النجوم فى أكباد الذبائح فى الفجر تقرأ فيها مستقبل قومها كما كان يفعل كهنة بابل على عهد إبراهيم الخليل ، فكان الرجال يلقون إليها سمعهم ولا يبرمون أمرا إلا إذا أشارت به وباركته وأكدت أن ما تنطق به إنما هو من وحى الآلهة .

كان بنو قيدار على دين إبراهيم وقد خرجوا من مكة لينشروا دين الله ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم راحت أساطير الشعوب التى اختلطوا بها تؤثر فيهم فلم يبق من دين إبراهيم إلا ذلك الإيمان الذى يبذره الله فى أفئدة الناس ، فجعلوا لله شركاء وزوجات وبنات وأصبحوا فى ضلال مبين .

وكانت زبيبة تمقت الآشوريين وتعمل فى الخفاء على تقويض ملكهم ، فكانت تبعث البعوث من دومة الجندل إلى بابل لشراء الدقيق والثياب وما تحتاج إليه من مواد . فكان رجالها يسلكون البادية يدرسون طبيعتها ومواقع حصونها ، فقد كانت زبيبة تحلم بذلك اليوم الذى تثب فيه على آشور وتقضى على ظلمها .

وكان رجالها يجوسون خلال الأسواق بالنهار ويجتمعون تحت جنح الظلام بذوى الرأى والسلطان من أهل بابل يحرضونهم على الثورة ويؤكدون لهم استعدادهم للوقوف إلى جانبهم وإمدادهم بالرجال والفرسان والعتاد ليعيدوا إلى بابل مجدها التليد .

ولم تكن قبيلة مسا بعيدة عن فلسطين ، كانت تعيش فى منطقة يقعقع فيها السلاح فكان عليها أن تتأهب للدفاع عن كيانها ، فوضع رجالها أيديهم على

مقابض سيوفهم وجعاب سهامهم فالعدوان يطل من العيون .

وكانت قبائل بنى إسماعيل الأخرى فى المنطقة التى تعيش على فوهة بركان ، فما أن انسحب شلمنصر من قرقار حتى دب الخلاف فيمن أسسوا اتحاد الرفاق وعادت أطماع بنهدد تطل برأسها .

ذهب بنهدد إلى معبد إلـٰهه هدد فى منبج يحيط به رجال الدولة والكهان ورجال الدين وكان معبدا فخما يضارع هيكل سليمان ، وأطلق البخور وارتفعت أصوات المرتلين والمرتلات وقدمت القرابين ودخل بنهدد وكبير الكهنة إلى قدس الأقداس ، وخر ساجدا لإلـٰهه ولم يرفع رأسه وراح يعاهد ربه على القضاء على إسرائيل والاستيلاء على هيكلهم المقدس .

وخرج بنهدد ليحارب من زعموا أنهم شعب الله المختار ، فاجتاح أراضى إسرائيل وأخضع مملكة يهوذا وساح فى السامرة وأرغم ملكهم على أن يدفع له الجزية وانطلق حتى بلغ سهل فلسطين الساحلى ثم اتجه جنوبا حتى ضم شرق الأردن إلى أراضيه .

وسيطر بنهدد على طرق التجارة بين بلاد ما بين النهرين والساحل ومصر وبلاد العرب وبات على حواشي ملكه قبائل مسا وقيدار ونابت وقبائل بنى إسماعيل الأخرى التى تعيش على التجارة ، فكان على هذه القبائل أن تهادن ملك دمشق أو تخوض المعارك لتحرر شرايين حياتها من سيطرة بنهدد .

كانت قبيلة نابت لا تزال فى مواضعها على ساحل البحر الميت تستخرج الأسفلت وقد عرفت بالنبط ، وكانت تتطلع إلى مناجم النحاس فى أرض سدوم ، بل إلى « سلع » عاصمة الأدوميين الحصينة فى وادى موسى .

كان موقع « سلع » حصينا وكان النبط يحلمون بأن تصبح عاصمة ملكهم يوما ما . كان يحرس مداخلها جبلان عاليان لا يسمحان إلا بمرور فارس واحد أو اثنين على الأكثر ، فما أيسر حمايتها من هجوم الأعداء ، ويمر

بين الجبلين وادى موسى ثم ينفرج على شكل مروحة تحيط بها الجبال الشاهقة ، وتنتهى من الناحية الغربية بممر آخر أكثر ضيقا من مدخلها ، وعند رأس الوادى نبع غزير يمد ذلك الحصن الطبيعى بالحياة .

وكانت قبيلة مسا ترقب الأحداث الجارية فى المنطقة فى حذر وقد تأهبت للدفاع عن حريتها ، وكانت قبيلة أدبئيل فى سيناء فى عدة القتال فبنهدد لم يهاجمها ولكن من يدرى ماذا يكون غدا ؟

كان شيخها أدبئيل الذى سمى باسم جده العظيم أدبئيل بن إسماعيل قوى الشكيمة مقاتلا من خيرة الفرسان ، وكان ذا آمال عريضة يطمع فى أن يمد سلطانه على الأراضى المتاخمة لسيناء ، وكانت دلتا النيل تتخايل له وتغريه بأن يثب وثبته وأن يخوض غمار المخاطرة .

كانت قبائل بنى إسماعيل قوية ولكن انقسام الوحدة العملية للحياة السياسية قعد بهم عن أن يخرجوا إلى نظام الأمم . أحبوا مجتمعاتهم الجديدة ودانوا بالولاء الروحى لمكة ، ولكن صلتهم بالنبع الروحى لما طال عليهم الأمد أصابها الوهن وراحت كل قبيلة تتخذ لها آلهة وتجعل لها حرما كحرم مكة المقدس ، فعطلوا سير التاريخ وصار عليهم أن يتريثوا حتى يشتد ساعد قبيلة منهم وتقوى وتنتشر وتصهر تلك القبائل المعتزة بعصبيتها فى أمة واحدة .

كانت دعوة إبراهيم عالمية فإذا بأحفاده يتعصبون لوثن السيادة القومية ويشركون برب العالمين أربابا محليين ، فتعالى الله عما يشركون .

وكان تفلت فلاصر يرقب الأحداث فى سورية ليثب عليها بجيوشه ويخضعها لآشور ، وما كان يريد أن يرتكب ذلك الخطأ الذى تردى فيه شلمنصر يوم قاد جيوشه إلى دمشق ثم قفل راجعا دون أن يقضى على أعدائه ويحمل آلهتهم ليلقى بهم تحت أقدام آشور .

نجح بنهدد أيام شلمنصر فى أن يجمع الملوك فى اتحاد الرفاق ، فلما انتهت

الحرب فى قرقار دون أن يظهر فريق على فريق لم يتريث بنهدد بل قام يحارب رفاق الأمس ويخضعهم لسلطانه حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

فصمم بنهدد عرى الاتحاد وخان التحالف وخاض غمار حروب مع رفاق الأمس فأوهن جيشه وحطم جيوش إسرائيل ويهوذا وأتاح الفرصة لتفلت فلاصر ليحقق أحلامه ، إنه سوف يزحف برجاله وفرسانه لقتال جيوش مثخنة بالجراح .

وجاءت عيون قيدار إلى زبيبة ملكة قيدار وكاهنتها التى تتصل بالسماء وقالوا لها :

ــ إن تفلت فلاصر جمع جموعه وعما قليل يخرج من نينوى ليطأ بعجلاته وفرسانه أرض القبيلة فى طريقه إلى سورية .

واعتزلت زبيبة القبيلة ودخلت خلوتها وراحت تصلى لإلٰهها وتستخيره وتنظر فى النجوم وفى أحشاء الذبائح لتقرأ ما يخبئه القدر لقبيلتها إذا نشبت الحرب بينها وبين الآشوريين .

وخرجت على قومها باسرة الوجه كاسفة البال وقالت :

ــ لا قبل لنا بتفلت فلاصر وجنوده .

وتعلقت أعين الرجال بها وقالوا :

ــ وبم تشيرين ؟

ــ أن تدفعوا الجزية .

وحدثت همهمة استياء بين شباب القبيلة المتحمسين وبدرت منهم بوادر العصيان فهم يفضلون الموت على أن يفقدوا حريتهم ، فقالت لهم زبيبة مواسية :

ــ إن تدفعوا لآشور الجزية اليوم ، فستكون نهاية آشور غدا على أيديكم .

غدا ؟ ترى متى يأتى ذلك الغد ؟ وكثر الأخذ والرد والجذب والشد وتمكنت زبيبة من أن تفرض إرادتها على قومها ، فدفعت قبيلة قيدار الجزية لآشور وإن راحت تتحين فرصتها لتطعن قلب آشور القاسى طعنة تدول بعدها دولة أولئك الذين يقوم ملكهم على الحرب حتى تنتشى أرواحهم بسفك دماء أعداء آشور .

وسرت عدوى دفع الجزية لتفلت فلاصر إلى سائر قبائل بنى إسماعيل اتقاء لشر الآشوريين . فدفعوا جميعا ما فرضه عليهم الملك الذى غطت جحافل جيشه أرض الصحراء ، وأبى الشيخ أدبئيل أن يخضع لذلك الهوان الذى فتحت أبوابه زبيبة ملكة قيدار وكاهنتها ، وزحف بجيشه حتى دخل غزة ووقف يرصد ما تتمخض عنه الأحداث فى المنطقة .

وانطلق تفلت فلاصر لقتال بنهدد ، والتقى الجمْعان بالقرب من دمشق ودارت رحى حرب قاسية بين الجانبين لا هوادة فيها ، فكانت عربات الآشوريين تشق صفوف الآراميين ، وكان فرسانهم يلقون الرعب فى القلوب ، وكان تفلت فلاصر يتوغل فى قلب جيش أعدائه فيثير حماسة جنوده ، وراحت السهام تتطاير والرماح تغوص فى القلوب والسيوف تطيح بالرءوس وانقضت النسور تنهش جثث الضحايا فتخلع أفئدة الآراميين .

وأرغم جيش بنهدد على الانسحاب فدخل دمشق وأغلق أبوابها خلفه . وراح يدافع عن المدينة دفاع اليائس المستميت . واعتلى الجنود الآراميون الأسوار وراحوا يصبون الزيت المغلى على رءوس المهاجمين فاختلطت صيحات الفزع بأنات الجرحى بعجيج المعركة وضجيجها بأوامر القواد للجنود أن يصبروا ويصابروا وأن يشددوا النكير .

وانهمرت سهام الآشوريين على المدافعين عن الأسوار كوابل من الطل ، وتقدمت فرق هدم الأسوار ودك الحصون فى حماية الرماة ، وعملت المعاول

فى جدران السور حتى نجحت فى أن تنقبه فتدفقت الجنود من النقب تدفق السيل الجارف ، واشتد القتال حول باب دمشق حتى ظهر الآشوريون على الآراميين ففتحوا الباب فانقضت العجلات منه تشق الصفوف وتشيع الذعر فى المدافعين ، واندفع الفرسان كالليوث وقد أطل من سيوفهم المنون ، ودارت رحى معركة رهيبة وزلزلت دمشق زلزالا شديدا .

وراح الآشوريون يدكون الحصون ويسبون النساء ويهدمون الدور ويحرقون البساتين ويصنعون من جماجم المقاتلين جبالا يزينون بها الأسوار . وما انتهت المعركة حتى كانت الرياض حطاما تتراقص على خرائبها ألسنة النيران .

وساق تفلت فلاصر الأسرى والإبل والماشية والغنم واستولى على ما كان فى دمشق من أموال وأجلى سكانها . وانطلق إلى مملكة إسرائيل وأخضع أورشليم ، ثم اندفع إلى مملكة يهوذا فى الشمال وغطى أرض السامرة بجثث اليهود ورواها بدمائهم وحمل ما شاء من الأسرى والغنائم والأموال والنساء .

وأصبح تفلت فلاصر أمام أدبئيل وجها لوجه . إنه أول زعيم من زعماء بنى إسماعيل يرفض الخضوع وحمل الجزية إلى آشور ، وفكر تفلت فلاصر مرات قبل أن يخوض غمار معركة مع ذلك الشيخ العربى الذى أبى إلا النزال ، ترى لو هاجم أدبئيل المتحصن فى سيناء ألا تهب مصر لنجدته دفاعا عن حدودها ؟

كان تفلت فلاصر مزهوا بنصره على الآراميين وبنى إسرائيل واليهود ، وكان يحلم بالعودة إلى آشور وعلى رأسه أكاليل النصر يسوق الأسرى والغنائم إلى إلـٰهه الرحيم ، وما كان يريد أن يكدر زهوه أو يثلم فخره فرأى أن يصالح أدبئيل ويعينه « قيبو » مندوبا عنه على مقاطعة مصرى ، وجعل تحت تصرفه خمسة وعشرين موضعا من عسقلان حتى حصن القلعة البيضاء مفتاح الطريق

بين سيناء ومصر ، فامتد سلطان أدبئيل من غزة إلى طور سيناء ، ومن دومة الجندل والبادية حتى حدود دمشق .

وانطلق تفلت ناصر إلى منبج ليزور معبد هدد إلـه الآراميين إرضاء لمن تبقى من الشعب الذى كومت رءوس مقاتليه كالجبال ، وسيق رجاله ونساؤه زمرا أسرى يضربون فى الأرض مع الغنم والبقر والخيل والجمال فى طريقهم إلى آشور ، وما إن دخل المعبد حتى فغرفاه من الدهشة فقد كان المعبد رائعا أروع من معابد آشور فى نينوى ومعابد مردوخ فى بابل ومعابد سين فى أور ، إنه استعار فخامته من فخامة معابد الفراعين ، وزاد فى روعته امتزاج الهندسة المصرية باللمسات الفنية للآراميين .

ودخل تفلت فلاصر قاهر الآراميين والإسرائيليين واليهود إلى المعبد وهو يتلفت . كان تمثال هدد إلـه الرعد فى كوة بطنت بالذهب وإلى جواره تمثال زوجه ومن حولهم تماثيل إيل وشمش ورشف وكان يعرف ببعل شمين أى رب السموات ، وكان هدد يعرف برامون .

عرفت سورية وما حولها التوحيد منذ أيام إبراهيم الخليل بل منذ إدريس ، منذ ذلك الزمن السحيق الذى عرفت فيه مصر الله قبل عصر الأسرات ، وعرفت بلاد ما بين النهرين الله الواحد القهار منذ أن دعا نوح قومه أن يعبدوا الله ما لهم من إلـه غيره ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم واتخذوا من أسماء الله الحسنى تماثيل كل تمثال يعبر عن صفة من صفاته ، فآشور الرحيم وإيل الله وبعل شمين رب السموات وآمون الباطن وذو الشرى رب البيت ، وتعصبت كل دولة لإلـهها وحاربت الدول الأخرى لتكون كلمة معبودها هى العليا ، ونسى الناس جميعا أنهم يعبدون إلـها واحدا وإن تعددت أسماؤه وأنه رب العالمين .

وأمر تفلت فلاصر أن تؤخذ أبعاد معبد هدد وأن يبنى مثله فى أورشليم لينافس هيكل سليمان ويعبد فيه آشور ، ثم انطلق بما حمل من نفائس وأموال وآلهة وأسرى إلى نينوى .

وخرج شعب آشور لاستقبال البطل المظفر ، وغصت طرقات الموكب بالناس وقد تهللت أساريرهم بالفرح الفياض ، وانطلقت الهتافات من الحناجر فقد كانت احتفالات النصر أروع ما يهز مشاعر الآشوريين ، وسار الأسرى زمرا إلى الساحة الواسعة وراح الكتبة يحصون الرءوس والغنائم ليأخذ الملك نصيبه منها ويحمل إلى الكهنة ورجال الدين نصيب آشور !.

وجلس تفلت فلاصر وحوله رجال القصر وكبار ضباط الجيش والكهنة ورجال الدين ، وجىء بالأسرى وزعماء العموريين وشيوخ بنى إسرائيل وأكابر اليهود ووضعوا على الخوازيق ، ثم جاء الجلادون بمديهم الطويلة وراحوا يسلخون الأسرى وهم أحياء ثم يغطون الجدران بجلودهم بين صيحات الفرح وتهليلات النشوة المعربدة فى الصدور ، فقد فاضت غبطة الشعب لأن آشور مكنهم من أعدائهم ففعلوا ما فعلوه إرضاء لآشور العطوف ! آشور الرحيم !

كان بنو إسماعيل يمقتون الآشوريين أشد المقت ، فإن كانت زبيبة أشارت بدفع الجزية لهم اتقاء لشرورهم ، وإن كانت قبيلة مسا رضيت أن تطاطئ رأسها إلى حين ، وإن كان النبط أحفاد نابت بن إسماعيل رحبوا بملك آشور وقبلوا أن ينزل بينهم ، وإن كان الشيخ أدبئيل من كان زعيما لقبيلة أدبئيل قبل أن يكون « قيبو » لتفلت فلاصر ، إلا أن قلوبهم كانت تنطوى على الحقد الشديد لآشور تلك الدولة التى قامت على التعذيب والتنكيل وسفك دماء الأبرياء وقتل الرجال وسلخ جلودهم وهم أحياء واستحياء النساء .

٢١

ضاقت شمس ملكة عريبى وكاهنتها بقبضة آشور الحديدية ، فحنثت بالقسم الذى أقسمته لشماس إلـٰه العدل ، فقد أقسمت ألا تتعرض للآشوريين بأذى . إلا أنها راحت تغير على أطراف آشور لتنال من هيبتها وتطمع أعداءها فيها .

وانتفخت أوداج تفلت فلاصر غيظا لما بلغه أن الملكة شمس كاهنة قبيلة عريبى حنثت فى قسمها العظيم وأبت أن تؤدى الجزية للإلـٰه العطوف .

إن ما فعلته شمس شوه جلال الاحتفالات التى أقامها ابتهاجا بانتصار إلـٰهه آشور على آلهة بنى إسرائيل والآراميين وكل الشعوب التى دحرها وأرغمها على أن تخر ساجدة تحت أقدام إلـٰهه العظيم .

إنه أشعل النيران فى المدن ليصعد دخانها بخورا لإلـٰهه العطوف ، وأطاح بالرءوس وكومها أهراما تقربا إلى إلـٰهه آشور ، وسلخ أعداءه وهم أحياء ونشر جلودهم على جدران مدينته لعل ربه يرضى ، فجاءت شمس لتدنس كل أعماله الباهرة التى ما قام بها إلا بأمر ربه العظيم .

وأحس رغبة طاغية فى إشباع غضبه فلن تهدأ نفسه قبل أن يسوى قبيلة عريبى وملكتها بالأرض وأن يضع رءوس زعمائها يربوع وخاطر وخباب ونمر على أنقاض حصونها ، وأن يتوج حراب جيشه برءوس العرب الذين تمردوا على سلطان آشور ، وأن ينسف مملكة شمس نسفا .

وجاء شهر تموز ذلك الشهر الذى كتب سيد العلم الإلـٰه « نن إيجى أزاج » فى لوح قدره أنه فصل تجمع الجيوش ، فتطهر الملك وذهب إلى معبد

آشور يقدم القرابين ويناجى إلـٰهه :

« إنى خارج لمحاربة شمس وقبيلتها لأنها منعت جزيتها وهداياها عن الإلـٰه آشور .

إنى سأذلهم ليخضعوا لمولاى آشور .

وسأقتل رجالهم وأسبى نساءهم وأيتم أطفالهم وأحمل أموالهم وأسوق مواشيهم إرضاء لمولاى آشور .

أى آشور العطوف ، سأحمل كاهنتهم شمس التى خانت عهدك لتخر ساجدة تحت أقدامك يا مولاى » .

وخر تفلت فلاصر ساجدا ثم قام وانسحب من المعبد مطأطئ الرأس يرجع القهقرى دون أن يولى ظهره لمعبوده .

وبعث الملك يستدعى « التورتان » القائد الأعلى لجيشه ، فلما مثل بين يديه أمره أن يجهز جيشا لقتال شمس وقبيلتها عريبى وأن يمد مشاته بمعاول برونزية ليدكوا بها الصخور والحصون .

وعلمت شمس أن تفلت فلاصر يتأهب لغزوها فاستدعت يربوع وخاطر وخباب ونمر زعماء القبيلة وقالت لهم :

ـــ إنى لا أحب أن أقطع أمرا دونكم أنتم رءوس القوم وسادتهم ، إن ملك آشور يتأهب لقتالنا فأشيروا على بالرأى .

ـــ الرأى رأيك ، إننا لا نتصل بالسماء وإنما وضعناك على رءوسنا لما بينك وبين السماء من أسباب ، قولى لنا ماذا يخبئ لنا الغيب ؟

فأطرقت شمس وقالت :

ـــ لا يزال نجم آشور ظاهرا ، إن دار القتال بيننا وبينهم فستكون الغلبة لهم .

ـــ الحكمة تقضى أن نحمل الجزية إلى الملك قبل أن يدهمنا بعرباته وخيله

ورجله .

فقالت شمس :

— سيطلب منكم أن تجددوا العهد لشماش وأن تسجدوا لآشور .

— سنجدد العهد وسنخر ساجدين وسيظل ما فى القلب فى القلب ، فلن تعرف نفوسنا الراحة قبل أن نزيل دولة الظلم من الأرض .

وخرج يربوع وخباب ونمر وخاطر من عريبى يحملون الجزية والهدايا ، وانطلقوا إلى نينوى ليقدموا لتفلت فلاصر الولاء والخضوع وإن أغلقوا صدورهم على ما فيها من مقت شديد .

وطلب بنو إسماعيل المثول بين يدى الملك فتأهب لاستقبالهم فى قاعة عرشه ، بعد أن أمر أن توضع بها تماثيل آلهة الشعوب المهزومة التى حملها معه أسيرة إلى نينوى لتكون لهم عبرة ولتنزل الرهبة فى نفوسهم .

ودخل بنو إسماعيل على الملك وقدموا له الجزية وما حملوه من هدايا ، فأجلسهم معه ليروا ما أعد لهم وقد تعمد أن يكون مجلسهم بحيث يروا تماثيل الآلهة التى دانت لآشور بالخضوع .

ورأى بنو إسماعيل تمثال هدد إله الرعد وإله الآراميين وقد كتب عليه أنه صار عبدا لآشور ، ورأوا العجل الذى صاغه بنو إسرائيل ليعبدوه بعد أن نسوا دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ورأوا تماثيل البعل وآلهة القبائل التى دحرها الآشوريون ، فلم ترتجف أفئدتهم رعبا بل زادهم ذلك كراهية ومقتا لآشور .

وقام الملك ليبلغ إلـهه العطوف أن الملكة شمس بعثت زعماء قبيلتها يحملون إليه الجزية ، وأنهم جاءوا صاغرين يعلنون له خضوعهم وولاءهم . وخرج يربوع وخاطر ونمر وخباب من نينوى ، وما خلفوا أبراجها العالية خلفهم حتى تعاهدوا على مناوأة آشور وشق عصا الطاعة وليكن ما يكون .

وهلك تفلت فلاصر واعتلى عرش آشور من بعده سرجون الثانى فى الوقت الذى ضاقت فيه الملكة شمس وشعبها بذل الخضوع للأجنبى الدخيل ، وبمندوبه السامى الذى عينه تفلت فلاصر فى بلاطها ، وبتلك التقارير التى كان يبعث بها ذلك « القيبو » إلى الحاكم الآشورى العام فى سورية .

كان بنو إسماعيل يتطلعون إلى الحرية ، فإن كانت آشور فرضت عليهم الجزية بسلطانها فإنهم لن يستكينوا لذلك الظلم إلى الأبد ، فما إن بلغهم هلاك تفلت فلاصر حتى ثاروا على الحكم الآشورى وطردوا المندوب السامى من أراضيهم وامتنعوا عن دفع الجزية .

وثارت حماه على حكم سرجون . وجمع ملكها جيشا لجبا وانطلق به إلى قرقر لقتال الآشوريين بعد أن حنث بقسم الولاء الذى أقسمه لرب آشور ، وثارت دمشق وإسرائيل والسامرة ، واتفق هنو أمير غزة مع فرعون مصر على أن يثور هنو فى وجه الآشوريين وعلى أن يمده فرعون بالعون والمساعدة والجنود .

ووجد سرجون فى مستهل حكمه ثورة مشبوبة فى الأقاليم التى خضعت لآشور يغذيها فرعون مصر . لقد شق عصا الطاعة بنو إسماعيل وبنو إسرائيل وبنو يهوذا والآراميون والفينيقيون ، وراح سرجون يفكر فى هذه الثورات العارمة فاهتدى إلى أن خير ما يفعل هو أن يستغل الموقف أحسن استغلال ، وأن يتصرف تصرف السياسى الحاذق وأن يبتعد عن النزق والتهور دون تبصر فى عواقب الأمور .

فلو أن هؤلاء الثائرين وجدوا من يجمعهم فى اتحاد كاتحاد الأخلامو الذى وقف فى وجه شلمنصر لتعقدت الأمور وصار من الصعب ضرب كل هذه الشعوب . إنه يعلم علم اليقين أن مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا مملكتان محاطتان بكراهية من حولهما من الشعوب ، فلو أنه هادن تلك الشعوب إلى حين ووثب

على إسرائيل ويهوذا فلن تحرك الأقاليم الأخرى ساكنا ، بل قد تبارك حملته وتغض الطرف عن فظائع الآشوريين .

وحارب سرجون ملك دمشق وهزمه ، وحاصر عاصمة مملكة إسرائيل ثلاث سنين ، ولما تم له فتحها أطاح بالرءوس وكومها جبالا عالية ، وسلخ جلود الزعماء وهم أحياء وأضرم النيران فى الدور ودك المعاقل والحصون ، وطرد سكان العاصمة إلى حدود ميديا ، وأخرج السامريين من أراضيهم .

قضى سرجون على إسرائيل وأخضع الفينيقيين وهزم هنو أمير غزة ، وأضرم النيران فى القرى والمحصولات ، وفتح مخازن الغلال لجنوده ، وأباح لهم المدن المهزومة يصنعون فيها ما يشاءون .

وانطلق بجنده إلى شمس وقبيلتها التى حنثت فى قسمها مرتين وثارت على آشور مرتين وقد عزم على أن يلقن هؤلاء العرب درسا لن ينسوه .

وعلى مقربة من مؤاب دارت معركة رهيبة بين جنود آشور والعرب المدافعين عن حريتهم ، كان العرب على ظهور إبلهم يهجمون على عربات الآشوريين كالليوث ، وكان سرجون فى عربته ينطلق كالسهم فى صفوف العرب ويعدو فرسانه عن يمينه وعن شماله ليغطوا هجومه ويصوبوا رماحهم إلى قلوب الشاردين والمدبرين .

وتبادل الطرفان الكر والفر وأطلقت السهام وتطايرت لتستقر فى الصدور وفى الظهور ، ووقفت شمس بين رجالها تحرضهم بأفضل ما فيهم وتذكرهم بما سيحيق بهم من ذل وعار إذا دارت عليهم الدوائر وحلت بهم الهزيمة .

وراح يربوع وخاطر وتمر وخباب يقاتلون قتال من يعرف ما سينزل بهم من عذاب إذا انتصر عليهم سرجون ، فسيحملهم إلى نينوى ليضعهم فوق الخوازيق أو يسلخهم وهم أحياء بين تهليل شعبه المجنون .

واضطر سرجون أن ينزل من عربته وأن يحارب على قدميه ، وعقر جمل

خباب وقتل خاطر واشتد وطيس القتال وراحت النسور تعبث بجثث الضحايا ولم يظهر فريق على فريق .

وصاح صائح من العرب :

ـــ اقتلوا سرجون . اقتلوا الملعون .

وحمل رجال القبيلة حملة رجل واحد وكان هدفهم الملك الآشورى بيد أن جنوده التفوا حوله ، والتحم الجيشان واشتبكوا بالأيدى واستخدمت الخناجر والسيوف ، وانجلت المعركة عن هزيمة العرب فقتل سرجون من قتل ودمر ما دمر ، وأشبع غضبه بأن فرض على شمس جزية ثقيلة ، وساق شباب القبيلة ونفاهم إلى السامرة من أرض فلسطين عقابا ونكالا .

وعاد سرجون إلى آشور بعد أن هزم الآراميين وأحرق دمشق وصب جام غضبه على إسرائيل وأسر هنو ودك مدينة رفح وسواها بالأرض وفرض سلطانه على بنى إسماعيل وترك فى كل مكان أهراما من جماجم ضحاياه .

ودخلت عربات الآشوريين نينوى تتهادى ، وهتف الشعب بسرجون ، وراح الكتاب يعدون رءوس الأسرى ، وعزف الموسيقيون على القيثار أهازيج النصر ، ورفعت تماثيل الآلهة الذين لطخوا بذل الهزيمة فانطلقت حناجر الآشوريين بهتافات النشوة التى ماجت فى الصدور .

كان الحمالون يحملون الإله هدد الإله الرعد والإله بعل وبعل شمين رب السموات وأصنام العرب من بنى إسماعيل ، وتقدم ضباط الملك صفا وأيديهم معقودة احتراما وخلفهم قائد شاب يسوق الأسرى ، وعلى رأس موكب النصر هنو أمير غزة وقد أوثقوه بحبل يقوده محارب يجذبه من شعره بين وقت وآخر ، ويدفعه دفعا إذا وقف يلتقط أنفاسه .

وظهرت الغنائم وكانت أوانى من كل لون وصحافا وقدورا وأبواقا وسبائك من ذهب وفضة وأقمشة من حرير دمشق ، وزوجات الملوك

والأمراء اللائى وقعن فى الأسر وبناتهم وأولادهم ، وما إن رأى الشعب كله هذه الأسلاب حتى تعالت هتافاته وأدارت رأسه نشوة النصر .

وأرسل سرجون إلى إلـٰهه آشور نصيبه فى الغنائم ، وحمل إلى خزائن القصر ما أفاء آشور عليه ، ثم دخل سرجون ليقدم إلى ربه العطوف تقريره عن حملته :

« آشور السيد العظيم !
من يحكم الآلهة جميعا ،
من يمنح الصولجان والتاج ،
من يوطد أركان الملكية ،
أبو الآلهة وسيد الأقطار » .

وبعد أن سرد ألقابه وألقاب ربه وفصل تاريخ حملته راح يؤكد لإلـٰهه العطوف ما فعله بالشعوب التى لم تشهد أن آشور رب الأرباب وإلـٰه الآلهة جميعا :

« من كل اثنين قتلت واحدا ، وأقمت جدارا أمام البوابات العظيمة بالمدينة ، وأمرت بسلخ زعماء المتمردين وغطيت ذلك الجدار بجلودهم ، ووأدت بعض هؤلاء فى بناء الجدار كما صلبت البعض الآخر ، وأمرت بسلخ عدد كبير منهم وغطيت الجدار بجلودهم » .

وفى الوقت الذى كان سرجون يتغنى فيه بأمجاده وأمجاد إلـٰهه آشور كان السفراء يمشون بين قبيلة قيدار والنبط وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ليتحدوا ويتعاهدوا على القضاء على آشور وعدوانها .

٢٢

كان حزقيا ملك يهوذا يرتجف فرقا من ملك آشور ، ففى كل عام كلما جاء تموز شهر تجمع الجيوش ، تخرج حملة من نينوى وتهاجم مدن يهوذا وتضرم النيران فيها وتطيح برءوس رجالها وتسبى نساءها وتبيح خيراتها لجنود آشور .

وكان هوشع بن أيلة ملك إسرائيل يبعث سفراءه إلى فرعون مصر يطلب منه أن يمده بعربات حربية وفرسان وجنود لكسر شوكة آشور ، وكان فرعون يعده خيرا ولكن القلاقل الداخلية فى وادى النيل كانت تضطر ملك مصر أن يحبس الجند فى البلاد وأن يمد حلفاءه بمعونات يسيرة عاجزة عن أن يكون لها أثر فعال فى تقرير المصير .

نسى بنو إسرائيل الله فأنساهم أنفسهم وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب بعد أن هجروا دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وعبدوا العجل الذى سبكوه بأيديهم ، وسجدوا لنجوم السماء وعبدوا آلهة الأميين .

كانوا يتيهون على الشعوب بأن الله هداهم إليه دون البشرية جمعاء ، فبنو إسرائيل فى جانب والأمم جميعا فى جانب ، وجعلوا الخير كله فى بنى إسرائيل وما كان حظ الأمم إلا الضعة والهوان ، وإذا بهم يتردّون فيما تردت فيه الأمم فعبدوا الأجرام والأوثان والأصنام .

وراح أشعيا النبى يجوب مملكة يهوذا يحطم الأصنام ويخوف اليهود غضب الله ويحذرهم أن يكون مصيرهم مثل مصير سدوم أرض لوط ويدعوهم إلى

ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

وراح يقول لليهود :

— أيديكم ملطخة بالدماء .. شاعت الفاحشة فيكم .. تأكلون فى بطونكم أموال اليتامى .. تحبون الرشوة حبا جما .. رؤساؤكم لصوص .

وراح الله يوحى إليه من أنباء الغيب ، وأشعيا يحدث القوم بما يلقى فى صدره من الوحي :

— يكون فى آخر الأيام جبل بيت الرب ثابتا فى رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجرى إليه « تحج » كل الأمم .

واستمر الله يوحى إليه من أنباء الغيب وأشعيا يعلن ما يوحى إليه علام الغيوب ، كان وحى بابل ينبئ بزوال آشور ، ووحى دمشق ينبئ بخراب عاصمة الآراميين ، ووحى مصر ينبئ بالحرب بين المصريين والآشوريين ، أما وحى بلاد العرب فكان ينبئ عن الرسول النبى الأمى الذى يخرج من الأمم لا من بنى إسرائيل :

— ووحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين .. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء . وافوا الهارب « المهاجر » بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب .

واستمر أشعيا فى إذاعة ما يوحى إليه علام الغيوب :

— هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وصعدت روحى عليه فيخرج الحق للأمم ، ولا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته ، قصبة مرضوضة لا تقصف ، وفتيلة خامدة لا تطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته .

أوحى إليه أن مختار الله من بلاد العرب وأنه سيخرج من دياره فرارا من

الاضطهاد ، ولكن من أى بلاد العرب سيخرج ذلك المهاجر فى سبيل الله ؟ ولم يسكت الوحى عن ذلك ، إنه يقول صراحة إنه من قيدار ونابت ، من نسل إسماعيل عليه السلام ، ويحدد المدينة التى سيشرق منها نور الله(١) :

ــ هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها .

يا سط الأرض وساطحها ،

معطى الشعب عليها نسمة ، والساكنين فيها روحا ،

أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم .

تفتح عيون العمى وتخرج من الحبس المأسورين فى بيت السجن الجالسين فى الظلمة .

أنا الرب ، هذا اسمى ومجدى لا أعطيه لآخر ، ولا تسبيحى للمنحوتات ، هو ذا الأوليات قد أتت ، والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تنبت أعلمكم بها .

غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحة من أقصى الأرض .

أيها المنحدرون فى البحر ومائه ، والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها ، والديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا

---

(١) قال وهب بن منبه (فى حديث طويل) إن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له أشعيا : أن قم فى قومك بنى إسرائيل فإنى منطق لسانك بوحى ، وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا كمها وآذانا صما وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته وأحمد اسمه .

ليعطوا الرب مجدا ، ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر .

الرب كالجبار يخرج ، كرجل حروب ينهض غيرته ، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه .

قومى استنيرى لأنه جاء نورك ، ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم .

أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك .

ارفعى عينيك حواليك وانظرى قد اجتمعوا كلهم ، جاءوا إليك يأتى بنوك من بعيد ، وتحمل بناتك على الأيدى .

حينئذ تنظرين وتنيرين ، ويخفق قلبك ويتسع ،

لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك غنى الأمم وتغطيك كثرة جمال بكران مديان وعيفه كلها تأتى ومن شبا تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب .

كل غنم قيدار تجمع إليك .

كباش نبايوت « نابت » تخدمك .

تصعد إليك مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى .

وكما كانت عادة ملوك آشور هاجم سنحاريب جميع مدن يهوذا ، وسقط حزقيا ملك يهوذا أسيرا فى أيدى الآشوريين فحمله الجيش المظفر إلى آشور .

ودخل الجيش نينوى وعزفت الموسيقى وراح الكتاب يحصون رءوس الأسرى ، وجلس سنحاريب على عرشه ينظر إلى حزقيا الملك الأسير وقد التمعت عيناه سرورا ورفت على شفتيه شماتة الشامتين .

وجىء بحزقيا ووقف ذليلا أمام سنحاريب ، وتعالت هتافات الشعب المنتصر ، وبدأ الجلادون يسلخون اليهود أحياء ، ورأى حزقيا ما رأى

فخارت قواه وقال فى توسل لسنحاريب :

— قد أخطأت ومهما تضع على من جزية أحملها إليك .

فقال ملك آشور :

— ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثون وزنة من الذهب .

ودفع حزقيا جميع الفضة التى كانت فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك ولم يصل الذهب الذى كان فى خزائنه إلى ثلاثين وزنة ، فراح حزقيا يقشر رقائق الذهب عن أبواب هيكل أورشليم هيكل الرب لينقذ جلده .

ومرت سنون وعاد حزقيا يفكر فى رفض دفع الجزية لآشور ، فبعث سنحاريب « التورتان » القائد الأعلى للجيش إلى السامرة فى جيش عظيم ، وراح رجال آشور يحدثون رسل حزقيا على الملأ :

— على من اتكلت يا ملك أورشليم ؟ على فرعون مصر ! إن فرعون مصر أضعف من أن ينجد حلفاءه .

ثم قالوا للناس الذين تجمعوا على أسوار أورشليم :

— اسمعوا كلام الملك العظيم سنحاريب ملك آشور ، يقول لكم : لا يغرنكم حزقيا فإنه أعجز من أن يخلصكم من يدى ، ولا يخدعنكم حزقيا بقوله إن الرب قادر على أن ينقذكم منى وإنه قادر على ألا تسقط مدينتكم فى يدى ، هل أنقذت آلهة الأمم عبادهم من يدى ؟ مَن مِن آلهة الأرض أنقذ أرضه من سلطانى حتى ينقذ إلٰهكم أورشليم من أن تسقط فريسة فى قبضتى !

يقول لكم ملك آشور : اعقدوا معى صلحا حتى آتى لآخذكم إلى أرض كأرضكم ، أرض حنطة وخمر ، أرض خبز وكروم ، أرض زيتون وعسل ، واحيوا ولا تموتوا .

وبلغ حزقيا ما قاله رسل سنحاريب لشعبه فمزق ثيابه وبعث رسالة إلى أشعيا النبى يلتمس عونه .

ودخل أشعيا المحراب وصلى لله وأطال الابتهال والسجود ، وهدأ كل شيء وعبق المكان بأريج طيب ، وبدا أن الأرض تتلقى وحي السماء ، ثم رفع أشعيا رأسه وقال لرجل حزقيا :

— قولوا للسيد كم لا ترتجف فرقا مما سمعت ، إن الله سينتقم من سنحاريب لتطاوله على ذاته العلية ، وسيرديه بسيفه فى أرضه ليكون عبرة للعالمين .

٢٣

اجتمع فى دومة الجندل ملوك بنى إسماعيل يتشاورون ، فقد استقبل خزائيل ملك قيدار تلخانو ملكة عريبى و كاهنتها وملك النبط وزعماء القبائل العربية فى قصره ، وحضرت الاجتماع الأميرة الشابة تابوه بنت تلخانو ، فلما تم عقد الأمراء الإسماعيليين قالت الملكة تلخانو :

ــ نظرت فى النجوم فرأيت أن ملك آشور فى أفول ، فبعثت إلى خزائيل ليدعو لهذا الاجتماع .

فقال خزائيل :

ــ إن سنحاريب ظاهر على كل الملوك ، ما خاض معركة إلا كتب له النصر .

وقالت تلخانو فى ثقة :

ــ رأيت فى المنام كأن عاصفة هوجاء اجتاحت آشور فألقت ثيرانها المجنحة على جنوبها وكبتها على وجوهها ، ثم ما لبثت تلك الثيران أن تطايرت فى الهواء . ولما انقشعت العاصفة رأيت سنحاريب يسبح فى بركة من الدماء .

فقال قائل فى خوف :

ــ لعله يسبح فى دمائنا .

فقالت تلخانو :

ــ كان جثة هامدة .

وقال خزائيل ملك قيدار :

ــ ثارت بابل على سنحاريب لتتخلص من حكم الآشوريين .

فقالت تلخانو :

— لهذا دعوت لعقد اجتماعنا هذا .

— وماذا ترين ؟

— أن نخرج بجيوشنا لتأييد بابل فى ثورتها ، ونضرب آشور معا الضربة القاضية .

فقال صوت الخوف :

— وإن انتصر سنحاريب ؟

فقالت تلخانو فى ثقة :

— ستكون نهاية آشور على أيدينا نحن بنى إسماعيل .

كان نفوذ الملكة تلخانو واسعا يمتد من دومة الجندل إلى حدود بابل ، فما أيسر إمداد الثائرين فى بابل بالمقاتلين العرب من البادية ، ولم يكتف زعماء العرب بتشجيع ثورة بابل وتأييدها بجيوشهم بل رأوا أن يهاجموا المقاطعات الآشورية فى الشام وفلسطين ، ولم يعجب ذلك الرأى تلخانو فقالت :

— إن مهاجمة المقاطعات الآشورية فى الشام توهين لقوانا وتشتيت لجيوشنا .

فقال خزائيل :

— إنه تأمين لظهورنا ، إنى أخشى إذا سرنا إلى بابل وانشغلنا بقتال آشور أن تزحف حاميات المقاطعات الآشورية فى سورية وتطعننا من الخلف .

ووافق الحاضرون على رأى خزائيل ملك قيدار ولم يستمعوا إلى ما أشارت به تلخانو ، واختير خزائيل قائدا لجيوش العرب .

واجتمعت الجيوش تحت إمرته فسار إلى أرض عريبى ثم تقدم فى البادية حتى دخل بابل وانضم بجيوشه إلى جيوش البابليين لقتال سنحاريب ، وبعث السرايا لمناوشة المقاطعات الآشورية فى سورية ليشغل حكامها عن الخروج

لتأييد ملكهم .

وراح كل جيش يحمل تماثيل آلهته لتؤيده فى حربه ولتنتصر على آلهة أعدائه ، فقد كان القتال قتال آلهة ، أما الجيوش فما كانت تتحرك إلا بوحى من آلهتهم لتمد سلطانها على أعدائها من الشعوب .

كان جيش آشور يحمل تماثيل آلهتهم آشور وعشتر وأونو وأداد وكان جيش بابل يحمل تماثيل مردوخ وسين وشماس وعشتار ، وكان جيش العرب يحمل تمثال اللات ؛ ودارت الحرب وانطلقت العجلات تخترق بوابة عشتار وتدور حول المعابد والأبراج ، واشتد الطعن والنزال وراح كل جيش يدافع عن آلهته ، وجاءت الإمدادات من آشور ومن البادية على السواء .

اختلطت العجلات بالفرسان ، وشدت الأقواس وأطلقت السهام والنبال ، وأشاعت الإبل الفوضى فى صفوف المشاة ، وارتفعت الصيحات وسالت الدماء ، وفرشت جثث القتلى الأرض وزلزلت بابل زلزالا شديدا .

وانجابت المعركة عن انهزام البابليين وحلفائهم العرب وانتصار سنحاريب ، فانسحب خزائيل وجيشه وترك أهل بابل لمصيرهم المحتوم .

أخذ سنحاريب يضع زعماء الثوار على الخوازيق ، ويضرب الرقاب ويزين أسوار بابل بالرءوس ويصنع منها أعلام النصر ، ويسلخ الرجال أحياء ويحرق الدور وينهب المعابد ويترك كل ما تقع عليه يده قاعا صفصفا ، ثم يسوق الأسرى من أصنام الآلهة والنساء والغنائم إلى نينوى ليشرك شعبه فى احتفالات النصر المبين .

وفى طريق عودة الجيش العربى قامت مشادة بين تلخانو وخزائيل قالت تلخانو وهى غاضبة :

ـــ كنت أنت سبب الهزيمة ، فلو استمعت لنصحى لكنا الآن فى طريقنا إلى نينوى ، ولكنك تشبثت برأيك وبعثت الجيوش لمناوأة المقاطعات

الآشورية فى سورية فأضعفت جيوشنا ، ولم تحز نصرا واحدا على تلك المقاطعات .

ـــ لو لم أفعل لكنا نساق الآن أسرى إلى نينوى .

فقالت تلخانو فى يأس :

ـــ إذا كنا أفلتنا اليوم من الأسر فسنساق إلى نينوى غدا .

فقال خزائيل فى حدة :

ـــ عشتار أقرب إليهم من هذا .

ـــ سيسلخونك ويلصقون جلدك بجدار سور نينوى .

فقال خزائيل :

ـــ هيهات .

ـــ وإن فعلوا ؟

ـــ وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

وانفصل حلفاء الأمس وقد دب بينهم الشقاق ، ولكن قلوبهم اتحدت على بغض آشور .

وعادت تلخانو إلى عريبى تنتظر قضاء سنحاريب ، ترن فى أغوار نفسها سخرية خزائيل منها : « أين وحى السماء الذى حدثتنا به ؟ إن آشور لم تهزم ولم تسبح جثة سنحاريب الهامدة فى بركة من دمه ، إنه خاض بعجلاته فى دمائنا . لو أنصف شعبك لقتل كاهنته الكاذبة » .

وأغذ خزائيل السير ليحصن دومة الجندل عاصمة القيداريين تأهبا للحرب التى ستنشب بينه وبين سنحاريب ، فما كان ملك آشور ليسكت على انضمامه إلى ثوار بابل ومحاربة آشور وإعلانه على الملأ كراهيته لحكومة البرابرة .

وقفل سنحاريب عائدا إلى نينوى مزهوا بنصره يسوق الأسرى والغنائم

والأموال إلى معبد آشور وإلى خزائن قصره ، وقامت احتفالات النصر بما فيها من إراقة دماء وصلب وسلخ ، ثم استراح إلى زوجه زاكوتو وكانت امرأة داهية فراحت تغريه بأن يولى ابنها أسارحدون من بعده ليكون لها الكلمة فى البلاط الآشورى ، فما كان أسارحدون يعصى لأمه أمرا .

وتأهب سنحاريب لقتال العرب فأيام آشور كلها قتال ، وعلى الرغم مما كان بين تلخانو وخزائيل من شقاق فقد اضطرهما الخطر المشترك إلى أن يتحدا وأن يخرجا ليدافعا عن حريتهما . وسار سنحاريب من بابل إلى البادية وإذا بجيش العرب يستقبله فى الصحراء وإذا بمعركة طاحنة تدور فى الفضاء ، وانقضت نسور السماء تعبث بالجثث بعد أن انسحب خزائيل وتلخانو وابنتها تابوه ليتحصنوا فى حصن دومة الجندل .

وتقدم سنحاريب إلى معقل أعدائه الذين مدوا أيدى المساعدة لكل من ثاروا عليه ، إلى الذين بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، إلى بنى إسماعيل أشد الشعوب بغضا لآشور .

وبلغ سنحاريب دومة الجندل فألفى العرب قد تحصنوا فى المدينة واعتلوا أسوارها يلقون على عربات آشور وابلا من الحجارة والمشاعل والسهام المشتعلة .

وأمر سنحاريب أن تتقدم الدبابات وهى عربات أقيمت عليها أعمدة غطيت بأسقف لتحمى المهاجمين من الحجارة التى تلقى من فوق الأسوار ، فراحت الدبابات تزحف حتى دنت من سور المدينة ، فأمر خزائيل رجاله أن يصبوا على الآشوريين الزيت المغلى .

وارتفعت صرخات الفزع وهوت الأجساد تتلوى على الأرض وتقهقرت الدبابات ، ولكن سنحاريب أمر جنوده أن يشدوا على الأعداء ليقوضوا الحصن فعادت الدبابات تستأنف الهجوم ، وراح العرب يلقون الخطاطيف

لينتزعوا أسقف الدبابات حتى ينكشف الجنود لوابل الحجارة والسهام المشتعلة والزيت المغلي .

ونجحت دبابات آشور فى أن توطد مراكزها بالقرب من السور فراح المهاجمون يقوضونه بمعاولهم البرونزية ، ونجحوا فى أن ينقبوه فى أكثر من موضع فتدفق الجنود من الثقوب كالجرذان ، ودارت معركة رهيبة بين العرب والآشوريين بالقرب من باب الحصن استخدمت فيها الرماح والخناجر والمعاول البرونزية ، ونجح الآشوريون فى فتح الباب فانطلقت العربات كالسهام وانقضت على المدافعين كالصاعقة ، فكثر الطعن والنزال والكر والفر وارتفع صهيل الخيل وصليل السيوف .

وصاح خزائيل فى خيرة جنوده احملوا حملة رجل واحد ، شدوا يا رجال .

وانطلقوا يسابقون الريح ويهزون الرماح وهجموا فى عنف وصدق وإصرار فإذا بصفوف الآشوريين تنفرج ، فاهتبل خزائيل ومن معه هذه الفرصة وأفلتوا من الحصار الذى ضرب عليهم وفروا إلى الصحراء .

واشتد الحنق بسنحاريب فقد كانت أمنيته أن يقبض على عدوه اللدود فيضعه فى قفص ويحمله أسيرا إلى نينوى ليطوف به على شعبه ليشفي غليله ويروى ظمأه إلى الدماء ، ولكن خزائيل نجح فى أن يحطم الحصار وأن يلوذ بالصحراء وهو أدرى من الآشوريين بدروبها ومسالكها .

واستسلمت تلخانو ملكة عريبى لسنحاريب وقبلت أن تدفع ما فرضه عليها من جزية ، و لم يكتف سنحاريب بما قتل وصلب من رجال بل أخذ تابوه ابنة تلخانو معه لتتربى فى بلاط قصره ولتتعلم الولاء لآشور .

وساق سنحاريب الأسرى والغنائم إلى نينوى وخرج الشعب يحيى البطل ، واستقبلته زوجه زاكوتا بالبشر والترحاب وزينت له أن يجلس ابنه

أسارحدون معه على عرشه فى أثناء الاحتفال بالنصر المبين .

واستوى سنحاريب على عرشه وقرب إليه ابنه أسارحدون ، فأوغر ذلك صدور إخوته فلم يكن أسارحدون أكبر أبناء ملك آشور ولم يكن ولى عهده .

وعزفت الموسيقى وسار موكب الأسرى من رجال ونساء ، ثم وضع زعماء قيدار وعريبى ومن لاذ بهم من بنى إسماعيل على الخوازيق ، وراح الجلادون يسلخون بمديهم الطويلة الرجال وهم أحياء بين هتاف الشعب وتهليله .

وتمت مراسيم الاحتفالات وقدم سنحاريب إلى إلـهه آشور تقريرا بما كان وبعدد الأسرى والغنائم ، وسار فى ردهات القصر مرحا وإذا باثنين من أبنائه يفاجئانه ويطعنانه فى الصميم ويلوذان بالفرار .

سقط سنحاريب يخبط فى دمه وسكنت حركته إلى الأبد ، وتحققت رؤيا تلخانو وصدقت نبوءة النبى أشعيا .

٢٤

استولى أسارحدون على ملك آشور وكان يعرف أن الفضل لأمه زاكوتا فى ارتقائه عرش البلاد ، فما كان يبرم أمرا دون أن يستشير أم الملك . وعرف حكام الأقاليم أن الحل والربط فى يد زاكوتا إن شاءت رفعت وإن شاءت أقصت وإن شاءت سيرت الجيوش للفتك بأعـــداء آشور وإن شاءت صفحت ، فراح الجميع يخطبون ودها ويبعثون إلى أم الملك بالتقارير عن حالة الدويلات التى خضعت لآشور .

وراح أسارحدون وأمه يتشاوران : إن مصر هى رأس المتاعب فهى تقف فى وجه التوسع الآشورى وتحرض حكام البلاد التى دانت لآشور على الثورة ، ولا تكتفى بالتحريض بل تمدهم بالعتاد والجيوش .

وكانت الأسرة الكوشية فى مصر أسرة قوية لها مطامع ، وكان ملوكها من ملوك نباتا فى شمال السودان وكانوا فى الأصل من الكهنة المصريين الذين فروا إلى الجنوب أيام أن هاجمت الجيوش المرتزقة فى ليبيا وادى النيل واستولت على ملك مصر . وقد زحف ملوك نباتا من الجنوب وطهروا شمال الوادى من أسرة الجنود المرتزقة التى جاءت من ليبيا وأعادوا لمصر وحدتها ، بل وأخذوا يفكرون فى إعادة ما كان لها من نفوذ فى جنوب غربى آسيا وعلى الأخص فلسطين .

وراح أسارحدون وأمه زاكوتا يدرسان الأحداث التى وقعت أيام سنحاريب ، فقد انضم العرب إلى ثوار بابل ، واستسلمت تلخانو ملكة عريبى إلى حين ، وحملت ابنتها تابوه إلى البلاط الآشورى لتلقن فيه حب

آشور . ولكن خزائيل ملك قيدار فر إلى الصحراء وقلبه ينبض بالكراهية للآشوريين فلن يتورع عن أن يمد يده إلى أعداء آشور .

ومات ملك مصر بعد قتل سنحاريب فنودى بأخيه طهرقا بن بعنخي ملكا على البلاد ، وإن طهرقا لمن أشد أعداء آشور الألداء فقد خرج أيام ملك أخيه على رأس جيش إلى حدود مصر ليساعد ثورة إسرائيل ، عندما حاصر سنحاريب أورشليم واضطر أن يرفع الحصار عنها لما تفشى فى جيشه وباء الطاعون .

وراحت زاكوتا تنفث فى صدر أسارحدون مقت بنى إسماعيل وكراهية بنى إسرائيل وعداء المصريين . وكانت تزين له الاستيلاء على أورشليم وتقويض هيكل سليمان وقتال المصريين واعتلاء عرش الفراعين ، كل ذلك باسم آشور ، حتى يسيطر الإله العطوف الإله الرحيم على أعدائه ويمد نفوذه على العالمين . ولكن حقيقة هذه الحروب كلها كانت الرغبة فى الاستيلاء على طرق التجارة وحمل خيرات بلاد البحر الأبيض وبحر العرب « البحر الأحمر » إلى نينوى . فقد كان القتال منذ عرف البشر الحروب قتالا اقتصاديا وإن أعلن مرة باسم رع وآمون ، ومرة أخرى باسم مردوخ وعشتار ، ومرة ثالثة باسم عشتر وآشور .

وراح أسارحدون يلقى نظرة على تماثيل الآلهة التى حملت ذليلة إلى نينوى ، آلهة بابل وآلهة العرب وآلهة بنى إسرائيل وآلهة الآراميين ، وطافت به أمنية أن يأتى ذلك اليوم الذى يحمل فيه إلى آشور آلهة الفراعين .

وجاء كبير رجال القصر والبشر فى وجهه وقال :

ــ خزائيل ملك قيدار جاء يلتمس المثول بين يدى مولاى العظيم .

فقال أسارحدون وقد تهلل بالبشر :

ــ خزائيل هنا فى نينوى ؟

— إنه واقف بباب مولاى !

ولم يستطع أسارحدون أن يكتم ما به من فرح فقال :

— شكرا لآشور ! شكرا للرب العطوف !

وجلس أسارحدون على عرشه وعن يمينه أمه زاكوتا وابنه آشور بانيبال وعن يساره تابوه ابنة تلخانو ملكة عريبى وكاهنتها ، الأميرة العربية التى كانت تربى فى البلاط الآشورى ويغرس فى وجدانها حب آشور .

ودخل خزائيل وابنه يطع ووجوه قومه ، وما إن رأوا أسارحدون حتى خروا له ساجدين ، فانتفخت أوداج ملك آشور غرورا وأمرهم أن يرفعوا رءوسهم وأن يجلسوا إلى جواره .

وأقبل الرجال يحملون هدايا نفيسة أدخلت البهجة على قلب أسارحدون ، فأقبل على خزائيل يرحب به ويرعاه رعاية الصديق للصديق .

وبعد حفلات الترفيه والترحيب ، وبعد أن أزجت أم الملك النصائح إلى ابنها بدأت المفاوضات بين الملكين فأقسم خزائيل يمين الولاء لآشور وقبل أن يسوق كل عام خمسة وستين من الإبل إلى نينوى أكثر مما كان يدفع أيام سنحاريب قبل أن يعلن ثورته على الآشوريين . على أن يعيد ملك آشور إليه آلهته ، وعلى أن يضمن ملك قيدار لابنه يطع من بعده .

وخرج خزائيل من نينوى يحمل تماثيل آلهته وهو سعيد بأن خلصها من أسرها ، بينما ساد شعوب بنى إسماعيل وجوم ما لبث أن انقلب إلى ثورة تتأجج فى الصدور . فقد قبل خزائيل ملك قيدار عار الذل ولكن بنى إسماعيل لم يرضوه ، فوطدوا العزم على الثورة على ظلم آشور ، وعلى كل من طأطأ رأسه منهم لآشور فسرت فيه روح الهزيمة وقبل الاستسلام المهين .

ووفد خزائيل على دومة الجندل عاصمة ملكه وهو يحمل تماثيل الآلهة ، فارتفعت الابتهالات وانفعلت النفوس حتى سالت العبرات ، وضجت

جنبات العاصمة بالتهليل ، ولكن ما إن وضعت الآلهة فى محاريبها وقرأ الكهنة ما نقش عليها فى نينوى حتى ثاروا وحرضوا الشعب على الثورة ، فقد نقش عليها أن آشور رب الأرباب ، ودنست باسم أسارحدون !

وماتت تلخانو ملكة عريبى فأرسل أسارحدون الأميرة تابوه فى موكب ملكى لتتربع على عرش العرب بعد أمها ، ولم يرحب الشعب بمقدمها فقد أغلقت قلوبهم دونها فهى ربيبة البيت المالك الآشورى ترعرعت فى أحضان أبغض أهل الأرض إلى قلوب العرب ، فأطلت الثورة بخطمها فى أرض العرب الشماليين .

ومات خزائيل وولى الملك بعده ابنه يطع بتأييد أسارحدون ، ففرض عليه أن يؤدى له عشرة أميان ذهب وألف حجر « بيروتى » ومائة قربة مليئة بالمواد العطرية ، أزيد من الجزية التى كان يدفعها أبوه .

وقام وهب فى قيدار ثائرا على هذا الخزى ، وراح يحرض الشعب على شق عصا الطاعة على يطع وآشور معا ، ولم يكتف بذلك بل سار إلى مملكة عريبى ينفث فى الشعب روح الثورة على تابوه ربيبة آشور وصنيعتها ، ويدعوهم للجهاد المقدس .

ومشى إلى النبط أبناء عمومته واتفق معهم على أن يخلعوا ربقة آشور من أعناقهم وأن يعودوا أحرارا كما خلقهم الله . واندلعت الثورة على أسارحدون فى ممالك بنى إسماعيل من حدود بابل إلى سيناء .

وسرت روح الثورة إلى بابل فهبت لتسترد حريتها ، ورأى طهرقا ملك مصر أن الفرصة سانحة لتأليب الفينيقيين على حكم الآشوريين فراح يتصل بملوك صور وصيدا لمناوأة آشور فى ممتلكاتها فى سورية ، وخلق المتاعب أمام الحكم الآشورى .

ورأى أسارحدون أن الثورة شبت فى أرجاء ملكه تريد أن تنقضه من

أطرافه ، فخرج فى جيشه وأخمد ثورة بابل وخرب ودمر وقتل وأطاح بالرءوس وسلخ الجلود وزين بها الجدران ووضع زعماء الثورة على الخوازيق ثم قال :

ــ صعد الآلهة والإلـٰهات الذين كانوا يقطنون بابل إلى السماء ، بينما خضع من كانوا فيها من البشر للنير والنار والأغلال والقيود .

وبعث أسارحدون جيشا تحت إمرة القائد الأعلى للجيش الآشورى لمحاربة بنى إسماعيل الثائرين ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فرجحت كفة آشور وثبت وهب وأبى أن يلوذ بالفرار .

واشتد وطيس القتال ، وشد الآشوريون على وهب وصحبه فأبى وهب أن يزول من مكانه وظل واقفا كالطود يمشى إلى أعدائه مشى الوعول ، يسدد سهامه إلى جحافل الآشوريين التى جعلته هدف هجومها .

وسقط الرجال صرعى حول وهب وهو كالليث يدافع عن عرينه وعن حرية شعوب لم تعرف الخنوع ألبتة . وضاقت الحلقة المضروبة حوله وحول من ثبت معه وكثر فيهم القتل إلى أن وقع وهب وحفنة من الرجال أسرى فى أيدى الآشوريين .

وعاد جنود آشور إلى نينوى بأغلى غنيمة وقعت فى أيديهم ، بوهب العربى الثائر من زين للعرب جميعا الثورة على آشور ، وعزفت الموسيقى واستوى أسارحدون على عرشه وجلست إلى جواره أمه زاكوتا التى غرست فى قلبه القسوة على أعداء آشور ، وابنه آشور بانيبال أحب أبناء أسارحدون إلى قلب زاكوتا لأن قلبه قد من صخر ولأنها تراه أشد قسوة من أبيه ، فهو رجل آشور المنتظر .

وسار وهب وهو مكبل بالقيود فى طرقات نينوى بين هتافات الشعب العدائية ، وقادوه إلى حيث جلس ملك آشور فوضع الأغلال فى عنقه وفى

أعناق صحبه فتعالت صيحات الشعب ، وأمر أسارحدون أن يربطوا فى قوائم باب قصره .

ولم تهمد ثورة بنى إسماعيل ولم يستكينوا لملوكهم الذين دانوا بالولاء للقوة الغاشمة ، ولم يدب اليأس فى قلوبهم بل مشت سفارات الزعماء بين قدار والنبط ومسا وأدبئيل فى سيناء .

وهبت مدينة صور تخلق المتاعب للآشوريين فى المنطقة وأيدها طهرقا ملك مصر فى ثورتها ، فبعث أسارحدون الجيوش لإخماد هذه الثورة ، ولكن جيوشه أخفقت فى اقتحام أسوار صور الحصينة ، فرأى أساحدون أن يأتى بنفسه ليدك حصونها ويشيع الخراب فى أرجائها .

وجاء أسارحدون فاستعصت عليه المدينة ولم يستطع التغلب عليها وكان لا بد أن يرفع الحصار عنها ، ولكن أيعود إلى نينوى والهزيمة فى ركابه ؟ فعقد العزم على أن ينطلق إلى مصر ليضع حدا لتدخل مصر وإثارة القلاقل فى ممتلكاته ، وليتحقق حلمه الذى راوده سنين : أن يحمل إلى نينوى آلهة المصريين أسرى وأن يرغم عبادها على أن يسجدوا لآشور .

وترك مينة صور محاصرة وتقدم بجيشه إلى وادى النيل ، واستولى فى سيناء على آلاف الجمال لنقل المؤن والمياه ، واستمر فى زحفه حتى وصل إلى وادى الطميلات فى شرق الدلتا ، وبعد خمسة عشر يوما سقطت فى يده منف غنيمة باردة .

ولما عاد أسارحدون من هذه الغزوة راح يقدم تقريره إلى إلٰهه آشور عما فعله بمصر وبطهرقا ملك مصر فكتب :

« ومن مدينة « اشهوبرى » حتى مدينة منف مقر الملك ، وهى مسيرة خمسة عشر يوما ، كنت أحارب طهرقا « طرقو » ملك مصر وكوش الملعون من جميع الآلهة العظيمة حربا دامية لا هوادة فيها ، وقد أصبته خمس مرات

بسنان سهامي وأحدثت فيه جراحا لن يبرأ منها ، ثم حاصرت منف مقره الملكي واستوليت عليها بإحداث النقوب فى أسوارها وكسرها مستخدما سلالم الهجوم ، وخربتها ودككت أسوارها وأحرقتها وحملت زوجته الملكية ونساء قصره و « أوشانا هورو » ولى عهده وأولاده الآخرين إلى آشور ، واستوليت على ما كان يملكه من ماشية وجياد لا يحصيها عد ، ولا يحيط بها حصر .

وطردت جميع الكوشيين من مصر و لم أترك واحدا منهم ليقدم خضوعه ، وفى كل مكان من مصر عينت ملوكا جددا وحكاما وضباطا ورؤساء للموانى وموظفين ورجالا للإدارة ، ورتبت قرابين للإلـٰه آشور وسادتى الآلهة العظيمة الأخرى .

وفرضت عليهم الجزية يقدمونها إلىّ عن يد وهم صاغرون ، وهأنذا آمر الجباة أن يحصلوها فى عنف دون رحمة أو إمهال ، وأمرت بعمل هذه اللوحة وعليها نقوش باسمى ، وكتبت فيها أمتدح قوة ربى آشور وأعمالى العظيمة عندما كنت أحارب العدو وفقا لأوامر ربى آشور الصادقة ، وأقمتها لتبقى على مدى الزمان حتى تراها بلاد أعدائى » .

ترى أتقبل مصر الهزيمة راضية ؟ وينام بنو إسماعيل على الضيم ؟ وتقبل سورية أن ترسف فى أغلال الاستعمار الآشورى ؟ وتحنى بابل رأسها لآشور إلى الأبد ؟

٢٥

هلك أسارحدون واعتلى آشور بانيبال العرش بتأييد جدته زاكوتا التى رعته منذ كان طفلا وكانت تعده لذلك اليوم العظيم ، يوم تصبح السلطة فى يده ليحقق الأحلام التى بثتها جدته فى وجدانه ، فقد كانت تحلم بأن تمتد رقعة آشور لتشمل أرجاء الأرض وتسيطر على العالمين .

هزم ابنها أسارحدون الفراعين وحمل نساء طهرقا وولى عهده ومركباته الملكية إلى نينوى ، ولكن سقوط منف فى أيدى جنود آشور لا يعنى استتباب الأمر فى مصر لملوك آشور ، فالخطر كامن هناك فى الجنوب ، فإن أمراء طيبة لم يناموا على الضيم وسيثورون على حكم نينوى كما ثاروا على حكم الهكسوس .

وراح آشور بانيبال بوحى من جدته زاكوتا يتأهب للانطلاق إلى طيبة ليقضى على الحكم الكامن فيها ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فقد كان يخشى إذا انطلق إلى مصر أن تندلع الثورات فى بابل وممالك بنى إسماعيل وصور ، فرأى قبل أن يغامر بالسير إلى وادى النيل أن يغزو بابل وأن يخضد شوكتها ، وأن يطأ بعرباته أرض العرب من بنى إسماعيل ، وأن يفتح حصن صور الذى امتنع على أبيه .

وانطلق بجيشه إلى بابل فهزم جيشها وعاث فيها فسادا ، ولما كان أقسى ملوك آشور قلبا فقد أمر بقطع رءوس المهزومين وشق شفاههم وقطع ألسنتهم ، وأمر بإرسال المشوهين إلى نينوى ليرضى شعبه المريض .

ونبحت الكلاب فمزق أوصال بعض الأسرى وألقى بها إليها ، فأقبلت

الكلاب على الأشلاء تنهشها ـــ وأعجبته الفكرة فراح يقطع الأسرى ويلقى بأجسامهم للذئاب والخنازير وجوارح الطير وفى القنوات ليطعم الأسماك .

وكان يلتفت إلى من حوله ويقول فى ورع :

ـــ ما فعلت هذا إلا إرضاء لقلوب الآلهة !

وأباح سوسة للجنود شهرا لينهبوها وينهبوا ما حولها من أراضى ، واستولى على ثروات ملوك عيلام ووزعها بين معابد آشور وجنوده المتعطشين للدماء .

ونادى الحاكم الآشورى على بابل وأصدر إليه أوامره بنهب قبور الملوك الأقدمين ورفع عظامهم حرمانا لأرواحهم من الراحة إلى الأبد ، كأنما لم يرو حقده دماء الأحياء التى سالت أنهارا فصب جام غضبه على أجداث الموتى .

واندفعت جيوش آشور بانيبال غربا نحو فينيقية ، ولبسوا هناك الثياب الأرجوانية التى ابتاعوها من التجار ، ولا غرو فقد اشتهرت هذه الأرض بالصبغة الأرجوانية التى كانت تصبغ بها الثياب ، وسميت لذلك أرض كنعان أى الأرجوانية قبل أن يندمج الكنعانيون فى الفينيقيين .

وحاصرت جيوش آشور صور وصيدا وبيبلوس ، وتحصن الفينيقيون فى الحصون وألقوا على المهاجمين الحجارة من فوق الأسوار ورموهم بالأسهم المشتعلة والزيت المغلى ، وعلى الرغم من استبسال المدافعين فقد نجح جنود آشور فى نقب جدران الحصون بمعاولهم والتدفق من النقوب إلى داخل الحصون.

واشتد القتال وكثر القتل فى الجانبين ، وانبهرت الأنفاس واستولى التعب على الرجال ، فنفد صبر الفينيقيين فاستسلموا للقتل والتعذيب ، فقطعت الرءوس وزينت بها أسوار الحصون ، وشقت الشفاه وقطعت الألسن وسلخ بعض الرجال وهم أحياء ، ووضعت القيود فى أيدى الزعماء وفى أعناقهم وسيقوا إلى نينوى زمرا وعرايا ، فأخذوا يرددون والأسى يمزق أكبادهم : يا

له من ذل وهوان !!

وفرض آشور بانيبال الجزية عليهم فأرسلت إليه صور وصيدا وبيبلوس كميات من الفضة والذهب والرصاص والبرونز ، وخمسة وثلاثين إناء من البرونز ، وملابس من أقمشة زاهية الألوان ، وكمية من العاج ، ودرفيل من البحر الأبيض ، فاعتكف ليسجل نقوش انتصاراته الباهرة وليمجد إلٰهه اشور الذى مكن له فى الأرض ونصره على أعدائه .

وكان أسارحدون قد أيد تنصيب يطع ملكا على قيدار بعد موت خزائيل ، وكان الآشوريون يطمعون فى أن يذكر لهم يطع هذا الجميل فيستكين لحكمهم فيأمنوا جانب أكثر الناس بغضا لآشور . ولكن ما إن هلك أسارحدون وتولى الملك آشور بانيبال حتى ضاق يطع بالعبودية لآشور ، إنه حر سليل الأحرار من سادات بنى إسماعيل لا يقبل الضيم ولا يرضى بالهوان . لخير له أن يقتل ويسلخ جلده وهو حى من أن يعطى بنو قيدار الجزية للآشوريين عن يد وهم صاغرون .

ومشى يطع إلى أبناء عمومته ، إلى ملك النبط وإلى ابن عمه مالك قمر زعيم قبيلة مسا ، وإلى زعماء قبائل بنى إسماعيل الآخرين ، وراح يحرضهم على قتال آشور ، وما أسرع ما استجابوا لدعوته فقد ألقيت عداوة الآشوريين فى سويداء قلوب العرب .

وتجهز بنو إسماعيل للقتال وخرجوا لحرب الآشوريين ، وعند أرك شرق تدمر التقى الجمعان : بنو إسماعيل يحملون آلهتهم ويبتهلون إليها أن تنصرهم على أعدائهم ، والآشوريون يحملون تماثيل آلهتهم .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده ، وقد انتصروا على أعدائهم أيام كانوا ينصرون الله ، أما بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم واتخذوا الأصنام آلهة ليقربوهم إلى الله زلفى فقد أذاقهم الله العذاب ؛ ذلك بأنهم أعرضوا عن

ذكر ربهم ، فالله يعذب أقواما بأقوام ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ودارت رحى وأظلت المنون من سنان سهامهم وصحائف سيوفهم ، وانطلقت السهام من فوق ظهور الجمال كالشهاب ، وتجاوبت فى جنبات الفضاء صرخات امتزجت بصهيل الخيل وصليل السيوف ، وغطت أرض المعركة جثث القتلى فحومت نسور السماء فوق ساحة الوغى ثم انقضت تنهش الأجسام وتبقر البطون .

ومشى الرجال إلى الرجال وتقارعت السيوف بالسيوف ، وهوت المعاول على الرءوس وارتطمت السهام بالدروع ، واشتبكت الأيدى واختلط التراب بالعرق ، وبلغت القلوب الحناجر وذهبت النفوس شعاعا وأخذت المنون تلقف الرجال وتصرع الأبطال .

وانكشف العرب فانقض جنود آشور على من لم يستطيعوا الفرار من العسكر وأخذوا يأسرون الآلهة والرجال والنساء ، وقد وقعت أصنام يطع وأمه وزوجه فى أيدى الآشوريين .

وتفرق بنو إسماعيل وعاد يطع إلى دومة الجندل حصن العرب الحصين ، ولكنها لم تستطع أن تصمد فى وجه عواصف الآشوريين فقد نقبوا أسوارها بدباباتهم أكثر من مرة ، وتمكنوا من أن يضعوا عليها السلالم الطويلة على الرغم من الزيت المغلى الذى كان يصب فوقهم صبا .

وغضب آشور بانيبال غضبا شديدا لأن يطع حنث بقسمه العظيم الذى أقسمه لآشور وشماش ، فقد أقسم بالولاء لآلهة الآشوريين وسرعان ما نسى قسمه وراح يحرض العرب ويجمع شملهم لقتال آشور .

إن إلـٰهه العظيم آشور سلاح الآشوريين البتار قد أنزل الهزيمة بأعدائه ، ولكن يطع نجا بجلده من عذاب آشور ، ولن يرضى إلـٰهه العطوف قبل أن يرى يطع يجر أذيال الذل فى نينوى .

وبعث آشور بانيبال إلى التورتان ليتأهب ليدمدم على العرب بذنبهم وأن يسوى ممالكهم بالأرض ، وسمع ملك النبط بعزم ملك آشور فخاف مغبة نزول الآشوريين بملكه ، فستطاح الرءوس وتفتضح النساء ويحمل الرجال أسرى إلى نينوى لعذاب الهوان ! فرأى أن خير ما ينتهجه أن يتودد إلى ذلك الملك القاسى الذى إذا دخل قرية أفسدها وجعل أعزة قومها أذلة .

شق يطع عصا الطاعة وأعلن الثورة على آشور وساق الجيوش لقتال غلاظ الأكباد ، فإن حمل يطع أسيرا إلى نينوى سكن غضب آشور بانيبال وأرضى ذلك غروره وغرور إلـهه المتعطش للدماء ، وأنقذ ذلك النبط والعرب من الدمار والتخريب .

إنها تضحية ثقيلة على فؤاد ملك النبط أن يبعث ممن كان بالأمس ملكا على قيدار أسيرا ذليلا إلى نينوى ، أن يخون حليفه لينقذ نفسه وزوجه وأولاده وشعبه من المصير الذى ترتجف منه فرقا أقوى القلوب . إنه بين نارين اشتعلا فى كيانه ، أن يضحى بيطع أو يضحى بشعبه بل بقبائل بنى إسماعيل كلها .

وفى يوم نحس مستمر قبض ملك النبط على يطع ، على من لاذ به وطلب الإجاره فأجاره ، وأرسله أسيرا إلى آشور بانيبال ، وبعث مع رسله الهدايا الفاخرة وخضوعه وولاءه للدولة التى بعثت الرعب فى قلوب العالمين .

وفى قاعة العرش الآشورى استقبل آشور بانيبال وفد ملك النبط وهو يتهلل فرحا ، وجذب يطع من شعره وقال له :

ــ حنثت بقسمك وثرت على مولاى آشور ، إن مولاى آشور هو سيفنا البتار ، سلاحنا الذى انتصرنا به على كل الأعداء ، سترى الآن ماذا يفعل بك مولاى العطوف .

وشرد آشور بانيبال كأنما يتلقى وحى إلـهه ، وساد الصمت الرهيب فى قاعة العرش ، ثم قال الملك :

— لو أمرت بإطاحة رأسك لأرحتك من العذاب ، ولو أمرت بسلخ جلدك وأنت حى فما أهون ذلك العذاب ، ولو وضعتك على الخازوق فستتأ لم لحظات ثم ينتهى كل شىء ، ولو مزقتك إربا إربا وألقيت بها إلى الكلاب لما شفى ذلك غليل مولاى آشور .

أمرنى مولاى آشور أن أضعك فى قفص وأن أعرضك على عباد آشور ليسبوك ويلعنوك ولتعذب فى كل حين .

ووضع يطع ملك قيدار فى قفص ، وحمل القفص وترك عند باب من أبواب نينوى ليتلقى إهانات الشعب الآشورى السقيم .

وراح آشور بانيبال يسجل فى نشوة : « لقد سلخت جلود كل من خرج علىّ من الزعماء وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم حرقا ووضعت بعضهم على الخوازيق ، أما الزعماء والضباط الذين ثاروا فقد قطعت أطرافهم » .

وراح يفخر فى لوح آخر بأنه حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ولم يبق على واحد منهم حيا ليتخذه رهينة . ونقش على نقش آخر : « أما أولئك المحاربون الذين أذنبوا فى حق آشور وائتمروا بالشر علىّ فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنائزية وألقيت بأشلائهم الممزقة للكلاب والخنازير والذئاب ... وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام » .

وفى البلاط النبطى كان ملك النبط يسير مطأطئ الرأس خزيا ، فقد غدر بابن عمه ملك قيدار العظيم ليفر من الرعب الذى كان يحاصره ويستريح ، ولكنه لم يذق طعم الراحة منذ أن قبض على يطع وألقى به بين براثن وحش آشور ، إن الصيحات تنبعث من جنبات القصر وتردد :

— خائن .. خائن .. خائن .

ولم تكن أصابع الاتهام تشير إليه من وجدانه فحسب ، بل إن أصبع مالك قمر ارتفعت وأشارت إليه وقال بصوت غاضب حاقد :

ــ خنت ابن عمك يا ملك النبط ، أنت عار بنى إسماعيل ، ولا بد أن نغسل هذا العار .

وسار مالك قمر على رأس رجال قبيلة مسا إلى الأنباط فى الأردن ليثأروا ليطع ويمحوا ما حاق بهم من عار الخيانة ، وغزا ابن عمه ملك النبط الخائن وأعمل السيف فى الرجال الذين لم يثوروا على ملكهم ، على من فسق فى حق الجوار وخان وغدر وخارت قواه من شبح العذاب الشديد .

وأسرف مالك قمر فى القتل وحمل الغنائم وساق المواشى ليكون ذلك عبرة لكل خوار من بنى إسماعيل ، فنار العداوة مشبوبة بينهم وبين الآشوريين ولعنة الآلهة على من يطفئها قبل أن تلتهم ملك الظالمين .

وانطلق آشور بانيبال إلى وادى النيل وزحف من منف إلى طيبة يحرق الأشجار ويتلف الزرع وينهب المواشى ويقتل الرجال ويسبى النساء ، وطال حصاره لطيبة وأخيرا خرت ساجدة تحت قدميه .

وعاد آشور بانيبال إلى نينوى ليسجل أعماله فكتب فيما كتب : « وفى ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة فى القصر ... الذى شاده جدى سنحاريب ليقيم فيه وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانه ، وإذ كنت أنا آشور بانيبال الملك العظيم ، الملك القادر ملك العالم ، ملك آشور ... قد نشأت فى ذلك الحرم وحفظنى فيه آشور وسن وشمش ورامان وتابو وعشتار . وأنا ولى للعهد ، وبسطوا علىّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضى ، ولم ينفكوا يبعثون إلى فيه أنباء سارة عن ظفرنا بأعدائنا وإذ كانت أحلامى وأنا على سريرى فى الليل أحلاما سارة كما كانت خيالاتى فى الصباح مبهجة جميلة ... فقد قوضت خرباته وأردت أن أوسع رقعته فقوضتها

جميعا ، وبنيت ربوة ولكنى وقفت خائفا أمام مزارات أربابى الآلهة العظام فلم أعل بهذا البناء كثيرا .

وفى شهر طيب ويوم موات وضعت أساسه فوق تلك الربوة وأقمت البناء وصببت نبيذ السمسم ونبيذ العنب على قباء مونه ، كما صببتها على جداره الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبنات فى عربات عيلام التى غنمتها منهم بأمر الآلهة ، وسخرت ملوك بلاد العرب الذين نقضوا الهدنة معى والذين أسرتهم فى الحرب بيدى وهم أحياء يحملون الأسفاط ويلبسون قلانس الفعلة ليشيدوا ذلك الحرم ، وكانوا يقضون نهارهم فى صنع اللبنات ويرغمون على العمل فيه فى أثناء عزف الموسيقى .

وشيدت بناءه من قواعده حتى سقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه من الحجرات أكثر مما كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ووضعت فوقه كتلا طويلة من أشجار الأرز التى تنمو على سرارا ولبنان ...

ولما فرغت من أعمال بنائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابى ودشنته وأنا منشرح مغتبط الصدر ودخلته تحت ظلة فخمة » .

وبينما كان آشور بانيبال يمشى فى الأرض مرحا كأنما خرق الأرض وبلغ الجبال طولا ، كان ناحوم نبى بنى إسرائيل يعلن على الملأ ما أوحى إليه :

« وحى على نينوى .

يوم نبطش البطشة الكبرى ، والله عزيز ذو انتقام .

ويل لمدينة الدماء ، كلها مملوءة كذبا وخطفا ، لا يزول الافتراس .

صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث ، يعثرون بجثثهم .

من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر البالغة أمما بزناها ،

وقبائل بسحرها ، هأنذا عليك يقول رب الجنود فأكشف أذيالك إلى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك .

وأطرح عليك أوساخا وأهينك وأجعلك عبرة ، وكل من يراك يهرب منك ويقول : خربت نينوى . من يرثى لها ؟ من أين أطلب لك معزين ؟؟

جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير ، إذا هزت سقطت فى فم الآكلين .

هو ذا شعبك نساء فى وسطك ،

تفتح لأعدائك أبواب أرضك ، تأكل النار مغاليقك .

تعست رعاتك يا ملك آشور ، اضطجعت عظماؤك ، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع .

ليس جبر لانكسارك . جرحك عديم الشفاء . كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام ؟! » .

ودنت أيام آشور بانيبال الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور ، فراح يكتب فى آخر لوح من الألواح التى غصت بها مكتبته : « لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ، فلم إذن أصابنى المرض وحل بى الشقاء ؟ إنى عاجز عن إخماد الفتن فى بلدى ، وعن حسم النزاع القائم فى أسرتى ، وإن الفضائح المزعجة لتضايقنى على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئ من إشرافى . هأنذا أقضى آخر أيامى أصرخ من شدة الويل ، يائسا فى يوم إلـه المدينة ، يوم العيد .

إن المنية تنشب فىّ أظفارها وتنحدر بى نحو آخرتى ، أندب حظى ليلا ونهارا وأنوح وأعول وأتوجع : « أى إلـهى ! هب الرحمة لإنسان وإن كان عاقا حتى يرى نورك ! » .

وراح يكتب العبارات التى ستوضع على قبره :

« إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء .

فاطرب وابتهج فى الأعياد .
وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،
ومن أجل هذا فإنى :
وقد حكمت من قبل تينس العظيمة .
لست الآن إلا ترابا .
ولكن قد بقيت لى هذه الأشياء التى ابتهجت بها
فى حياتى : الطعام التى أكلته واللهو الذى استمتعت به .
وملاذ الحرب ومسراتها .
أما ما عدا ذلك من الأشياء التى يراها الناس نعما ، فقد تركتها خلفى .

٢٦

ضاق المصريون بالآشوريين الذين عاثوا فى البلاد فسادا ، فغصت المعابد بالعباد ، وارتفعت الابتهالات إلى آلهة السماء التى خرت ساجدة لآشور ، وراح المصريون يناجون آمون :

ــ يا من خلق كل ما هو موجود ،
ومن عينيه نشأ الإنسان ،
ومن فمه الآلهة !
يا من فطر الأعشاب للماشية ،
وثمار الأشجار للبشر !
يا من نفخ الحياة للأسماك فى الماء ،
وللطيور تحت قبة السماء !
يا من منح الحياة للفرخ فى البيضة ،
وحفظ ابن الدودة حيا !
يا من ترزق البعوض والديدان والبراغيث !
يا رازق الجرذان فى جحورها !
ابعث فينا الثور القوى الذى يقتل الأعداء ،
الجميل فى ميدان القتال .
من ضربته كالشمس ،
من يطوى الجبل من على رقبة الشعب ،
من يمنح نسائم الحرية لمن وقعوا فى الأسر :

من ينتقم من عدوك وعدونا شر انتقام .

وقام أمير صالحجر ينفث فيمن حوله روح الثورة على من أهانوا آمون رع ، وراح يجهز عربات القتال ويدرب الرجال ويحرضهم على أن يهبوا لمحو ما لحق البلاد من عار ، واستعان بالكهنة ليعدوا الشعب للجهاد لقتال عدو آمون وعدهم .

ورأى القوم فى أمير صالحجر الثور القوى الذى أرسله آمون ليضرب به الآشوريين ، فالتفوا حوله وصاروا رهن إشارته ، فلما اطمأن إلى قوته انقض على الحامية الآشورية فى طيبة وأنزل بها شر هزيمة وقوض معابد آشور من أساسها .

وأجج انتصار أمير صالحجر على أعدائه وأعداء آمون نار الحماسة فى صدور المصريين ، فثارت المدن على من فيها من آشور ، واندفع الجيش المصرى المظفر كالإعصار يقتلع معاقل الأعداء حتى دخل أمير صالحجر القصر الملكى فى منف وطهره من المعتدين .

وترنح جنود آشور تحت ضربات المصريين ، كان الموت يتخطفهم من كل جانب وقد زلزلت الأرض زلزالها وبلغت القلوب الحناجر ، ودب الوهن فى نفوس الآشوريين فراحوا ينسحبون وهم يلعقون جروحهم حتى انقشع ظلهم عن وادى النيل ، فوحد أمير صالحجر مصر العليا والدلتا فى مملكة واحدة ونادى بنفسه ملكا عليها ، وبذلك أسس الأسرة السادسة والعشرين .

واستقلت مصر وبقيت سورية ترزح تحت نير الآشوريين ، ولكن مدينة صور ومدينة صيدا من مدن الفينيقيين ، وملوك النبط وقيدار وقبائل بنى إسماعيل الأخرى ثاروا على حكم الآشوريين وطردوا ممثل البلاط الآشورى من بلادهم .

كان سن شار اشكون ملك آشور قد ورث ملك بابل فيما ورث عن أجداده ، فقد قضى أسلافه على الملكية فى بابل وسلبوا كل سلطات الإلـٰه

مردوخ ومنحوها لآشور العطوف ، وقد ورث فيما ورث كراهية البابليين والفينيقيين والأراميين والعرب وبني إسرائيل ، فما كاد يستقر فى عرشه حتى اشتعلت الثورات التى كان يؤجحها فراعين مصر ويمدونها بالوقود .

وثارت بابل ثورة عارمة لتحطم القيود وتزيح كابوس الآشوريين الجاثم على الصدور ، وهب بنو إسماعيل لنجدة البابليين وللقضاء على العدو المشترك .

وخرجت جيوش قيدار والنبط ومسا وقبائل الإسماعيليين الأخرى إلى البيداء الفاصلة بين بابل وممالكهم ، كانت الصحراء قد أخذت زخرفها وازينت ؛ النوار الأصفر يسر الناظرين وسفوح الجبال مستها عصا الربيع السحرية فكسيت بسندس أخضر ، كان الكون فى أبهى حلله يشرح الصدور ، ولكن الكراهية التى كانت فى سويداء قلوب بنى إسماعيل للآشوريين أعمت عيونهم عن كل جمال ، فقد كانوا خارجين للقضاء على الطغيان لتهب نسائم الحرية على العالمين .

وبينما كانت جيوش بنى إسماعيل تغذ السير لتشد أزر ثورة بابل ، كان حبقون نبى بنى إسرائيل ينظر إلى فاران ، إلى حيث استقر إسماعيل وأمه هاجر ، إلى مكة ، إلى أرض الخلاص ، وراح يصلى :

ـــ الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران ، سلاه . جلاله غطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع ، وهناك استنارت قدرته ، قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى .

ودخل بنو إسماعيل بابل وما دار بخلد أحدهم أن من أصلابهم سيأتى ذلك الذى سيملأ الأرض تسبيحا لله ، فى يده شعاع كتاب منير ، شريعة بيضاء تنير ملكوت السماء والأرض بنور ربها .

ودارت فى أرجاء بابل رحى الحرب وقد حمل كل فريق آلهته يستنصرها على عدوه ، وتجاوبت صيحات القتال وجرت العجلات الحربية فى الطرقات ، وفرت العربات الآشورية إلى الأزقة وخيل العرب وإبلهم وجند بابل فى أثرها تصليها نارا من سهامها .

وألقيت الحجارة والزيت المغلى من الدور على الآشوريين المنهزمين ، وأطلقت السهام من أبراج المعابد ، واشتبكت الأيدى فقد كان الصراع فى كل مكان يدور بلا رحمة لإزهاق النفوس .

وانهزم الآشوريون ولاذوا بالفرار ، وانطلق البابليون والعرب فى أثرهم يكيلون لهم الضربات القاضية ولا يتركون لهم فرصة لاسترداد أنفاسهم .

وخرج جيش آشور من بابل مرتدا إلى نينوى وجيوش أعدائه فى أثره ، وقد وطدت العزم على أن تسدد إليه طعنة قاتلة لا يقوم بعدها أبدا .

ودخل الجيش الآشورى عاصمة ملكه وأغلقت الأبواب خلفه ، وضرب الحصار على نينوى ونصبت المنجنيقات وقذفت الأسوار بالحجارة ، وجاءت الدبابات وقد احتمى تحتها الجنود وفى أيديهم المعاول ، ودنت من الأسوار ليتمكن الجنود من نقبها أو تقويضها من أساسها .

وأطلقت السهام المشتعلة من الحصون ، وصب الزيت المغلى من فوق الأسوار على رءوس المهاجمين ، وألقيت الخطاطيف لانتزاع أسقف الدبابات ، وجاء المهاجمون بالسلالم الطويلة وتمكنوا من وضعها على الأسوار ، وسرعان ما صعد فيها البابليون والعرب ودار قتال لا هوادة فيه فوق الأسوار ، وما لبثت أن فتحت أبواب نينوى لمن سامهم الآشوريون سوء العذاب .

وتدفق البابليون وبنو إسماعيل من أبواب المدينة الجميلة التى وضعت على جوانبها تماثيل الثيران المجنحة الهائلة لتحرسها روح آشور . ورأى المهاجمون

المناظر الوحشية التي زينت بها الجدران : رءوس تقطع وأكداس من الرءوس ، ورجال يسلخون وهم أحياء ، ورجال يصلبون ، ورجال تشق شفاههم وتقطع ألسنتهم ، وآخرون تفقأ عيونهم ، ورجال يوضعون على الخوازيق ، فثارت روح الانتقام فى نفوس المهاجمين .

كان ملوك آشور يفخرون بأنهم يشبعون غضبهم بالخوض فى دماء الشعوب ، فراح المهاجمون يثأرون من قساة القلوب ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا المعابد بعد أن خلصوا آلهتهم من ذل الأسر ، وحطموا تماثيل آشور ومرغوه فى الأوحال ، وقوضوا الدور وأشعلوا النيران فى القصور .

وصارت نينوى كما قال صفنيا نبى بنى إسرائيل :

— ويبيد آشور ويجعل نينوى خرابا يابسا كالقفر ، فتربض فى وسطها القطعان كل طوائف الحيوان .

النوق أيضا والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدها .

صوت ينعب فى الكون : خراب على الأعتاب .

هذه هى المدينة المبتهجة الساكنة مطمئنة ، القائلة فى قلبها : أنا وليس غيرى !

كيف صارت خرابا ، مربضا للحيوان .

كل عابر بها يصفر ويهز يديه .

ولفظت آشور أنفاسها إلى الأبد وتحققت أمانى الملكة شمس كاهنة قبيلة عريبى ، وخزائيل ملك قيدار وابنه يطع ، ووهب الثائر الذى جمع كلمة العرب وحمل لواء العصيان فى وجه الظالمين ، وطويت صفحة من تاريخ بنى إسماعيل لتبدأ صفحة جديدة من الكفاح مع دولة الكلدانيين ، دولة بابل الجديدة التى قامت ولكن إلى حين .

٢٧

كانت بابل تزهو على مدن العالم بجمالها ، فأبراج معابد الآلهة ترتفع فى السماء ، ونهر الفرات يشقها ، وامتدت الدور والقصور عن يمين وشمال ، وعلى النهر جسور ، وفى مجراه قوارب فى غدو ورواح تحمل سكان كل ضفة إلى الضفة الأخرى ، ومن الشمال إلى الجنوب طريق المواكب العظيم ، ووسط الطريق مرصوف ببلاط من حجر الجير ، وعلى الجانبين بلاط آخر من حجر أحمر معروق بالأبيض وكتب على حافة كل واحدة : « أنا بختنصر ملك بابل ابن نابو بولاسار ، أيها الإلـه العظيم مردوخ امنحنا الحياة الأبدية » .

كانت آشور قد أمست فى الغابرين واندثرت عبادة إلـهها العطوف ، وعاد ملوك الكلدانيين إلى بابل ، واسترد مردوخ مجده ، وتربع على عرش بابل الجديدة نبوخذنصر « بختنصر » ، ولكيلا يصلْ إلى « انجور بعل » حائط بابل أى هجوم ، شيد جدارا جبارا شرق بابل طوله أربعة آلاف ذراع ، وحفر خندقا ووضع أساسا بالقار والطوب الأحمر ، ومن فوقه أقام سورا بارتفاع جبل .

كتب نابو بولاسار : « أوحى إلىّ مردوخ أن أدعم أساس برج بابل وكان قد ضعف وأصابه الوهن ، فكان على أن أجعل هذا الأساس يضرب فى الأرض إلى العالم السفلى بينما يشمخ برأسه إلى السماء » . وراح ابنه بختنصر يقيم معبد « إتمنانكى » ليبلغ الجبال طولا .

ودخل بختنصر الملك الأمى ــ الذى لا يقرأ ولا يكتب ــ معبد مردوخ ، وأمر أن يكتب لإلـهه العظيم ابتهالاته :

« إنى أحب طلعتك السامية ، كما أحب حياتى الثمينة !
إنى لم أختر لنفسى بيتا فى المواطن كلها الواقعة خارج مدينة بابل .
ليت البيت الذى شيدته يدوم إلى الأبد بأمرك أيها الإلـٰه الرحيم ،
ولعلى أشبع ببهائه وجلاله وأبلغ فيه الشيخوخة ويكثر ولدى ،
وتأتى إلىّ فيه الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بنى الإنسان أجمعين » .

وراح يخاطب مردوخ فى تذلل وخضوع :

« إذا لم تكن أنت يا ربى ، فماذا يكون ،
للملك الذى تحبه وتنادى باسمه ؟
وستبارك لقبه حسب مشيئتك ،
وتهديه صراطا مستقيما .
أنا الأمير الطائع لك ،
باق كما صنعتنى يداك ،
إنك أنت خالقى ،
وأنت الذى حكمتنى فى جيوش العباد ،
وبمقتضى رحمتك يا مولاى ،
بدل قوتك الرهيبة حبا ورحمة ،
وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك ،
وهبنى ما ترى فيه الخير لى » .

كان بختنصر يقوم بتحصين عاصمته بينما كان بنو إسماعيل يغدون ويروحون بين بابل ومصر واليمن يحملون البخور والطيب للمعابد ويسعون بين العواصم للتجارة وحمل منتجات مصر إلى بابل ومنتجات بابل إلى مصر والنزول بأسواق العرب .

وفى مملكة النبط قام عدنان بن أدد ، من جاء من نسل نابت بن إسماعيل

ويشجب بن نابت ويعرب بن يشجب يوحد كلمة العرب ويقوى صفوفهم ، حتى لا يكونوا لقمة سائغة للطامعين .

وولد عدنان معد وعك ، وكان معد طفلا لم يبلغ الحلم ، وعلى الرغم من حداثة سنه وأنه ابن سيد قومه فقد كان مرهف الحس يحيى حياة التقشف ويكرس وقته للعبادة والحياة الخشنة ، حتى إن معدا أصبحت تعنى شظف العيش ، وحتى إن رسول الله الذى جاء من صلبه قال يوصى قومه : اخشوشنوا وتمعددوا .

وركب بنو إسرائيل المعاصى واستحلوا المحارم وراحوا يعبدون بعل وهدد والأوثان ويقيمون فى أعالى الجبال الأنصاب ، ونسوا الذل الذى أذاقهم الله على أيدى الآشوريين وأن الله نجاهم من عدو الله وعدوهم ، فأوحى الله إلى أرميا نبيهم :

ـ ائت قومك من بنى إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به ، وذكرهم نعمى عليهم وعرفهم أحداثهم .

قال أرميا :

ـ إنى ضعيف إن لم تقونى ، عاجز إن لم تبلغنى ، مخطئ إن لم تسددنى ، مخذول إن لم تنصرنى ، ذليل إن لم تعزنى .

فأوحى الله إليه :

ـ ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى ؟ وأن القلوب كلها والألسن بيدى أقلبها كيف شئت فتطيعنى ؟ وأنى أنا الله الذى لا شيء مثلى ؟ قامت السموات والأرض وما فيهن بكلمتى . وأنا كلمت البحار ففهمت قولى ، وأمرتها ففعلت أمرى ، وحددت عليها بالبطحاء فلا تعدى ، حتى تأتى بأمواج كالجبال ، حتى إذا بلغت حدى ألبستها مذلة طاعتى خوفا واعترافا بأمرى .

إنى معك ولن يصل إليك شيء معي ، وإنى بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي لتبلغهم رسالاتى وتستحق بذلك مثل أجرة من اتبعك منهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وإن تقصر به عنها تستحق بذلك مثل وزر من تركت فى عماه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا .

انطلق إلى قومك فقل : إن الله ذكر بكم صلاح آبائكم ، فحمله ذلك على أن يستثنيكم يا معشر الأبناء . وسلهم كيف وجد آباؤهم مغبة طاعتي ، وكيف وجدوا هم مغبة معصيتي ، وهل علموا أن أحدا قبلهم أطاعنى فشقى بطاعتي أو عصاني فسعد بمعصيتي .

إن هؤلاء القوم رتعوا فى مروج الهلكة ، أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم دونى ، ويحكمون فيهم بغير كتابى ، حتى أجهلوهم أمرى ، وأنسوهم ذكرى ، وغروهم منى .

وأما أمراؤهم وقادتهم فبطروا نعمتى وأمنوا مكرى ونبذوا كتابى ، ونسوا عهدى وغيروا سنتى ، ودان لهم عبادى بالطاعة التى لا تنبغى إلا لى ، فهم يطيعونهم فى معصيتى ويتابعونهم على البدع التى يبتدعون فى دينى ، جرأة على وغرة وفرية علىّ وعلى رسلى ، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى ، وهل ينبغى لبشر أن يطاع فى معصيتى ؟ وهل ينبغى أن أخلق عبادا أجعلهم أربابا من دونى ؟

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيتعبدون فى المساجد ويتدينون بعمارتها لغيرى لطلب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير العلم ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، وأما أولاد الأنبياء فممتكرون مقهورون مغترون ، يخوضون مع الخائضين ، فيتمنون علىّ مثل نصرة آبائهم والكرامة الى أكرمتهم بها ، ويزعمون أن لا أحد أولى بذلك منهم منى بغير صدق ولا تفكر ولا تعبد ، ولا يذكرون كيف نصر آبائهم لى ؟ كيف كان جدهم فى أمرى حين غير المغيرون ، وكيف بذلوا

أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر دينى ؟ فتأنيت بهؤلاء القوم لعلهم يستجيبون ، فأمليت لهم وصفحت عنهم لعلهم يرجعون ، فأكثرت ومددت لهم فى العمر لعلهم يتفكرون ، فأعذرت وفى كل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو فلا يزدادون إلا طغيانا وبعدا منى ، فحتى متى هذا ؟ أبى يتمرسون أم إياى يخادعون ؟ فإنى أحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، ويضل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جبارا قاسيا عاتيا ، ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرأفة والرحمة والليان ، يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأن خفيق راياته طيران النسور ، وكأن حملة فرسانه كرير العقبان .

ثم أوحى الله عز وجل إلى أرميا :

— إنى مهلك بنى إسرائيل بأهل بابل .

فلما سمع أرميا وحى ربه صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فقال :

— ملعون يوم ولدت فيه ويوم لقنت فيه التوراة . ومن شر أيامى يوم ولدت فيه ، فما أبقيت آخر الأنبياء إلا لما هو شر علىّ . لو أراد بى خيرا ما جعلنى آخر الأنبياء من بنى إسرائيل ، فمن أجلى تصيبهم الشقوة والهلاك .

وناداه ربه :

— يا أرميا أشق عليك ما أوحيت لك ؟

— نعم يا رب . أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أسر به .

— وعزتى وجلالى لا أهلك بيت المقدس وبنى إسرائيل حتى يكون الأمر من قبلك فى ذلك .

ففرح عند ذلك أرميا وطابت نفسه وقال :

— لا والذى بعث موسى وأنبياءه بالحق لا آمر ربى بهلاك بنى إسرائيل أبدا .

وانقلب أرميا إلى ملك بنى إسرائيل مسرورا فأخبره بما أوحى الله إليه ، فاستبشر وفرح وقال :

— إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا ، وإن عفا عنا فبقدرته .

ومرت ثلاث سنين وازدادت المعاصى فى إسرائيل وفى يهوذا ، وألهتهم الدنيا عن ذكر الله ، وخاف الملك غضب الله فراح يقول لشعبه :

— يا بنى إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسكم بأس الله ، وقبل أن يبعث الله عليكم قوما لا رحمة لهم بكم ، فإن ربكم قريب التوبة مبسوط اليدين بالخير ، رحيم بمن تاب إليه .

واستمر بنو إسرائيل فى اقتراف المعاصى يعبدون الأوثان ويتقربون إلى آلهة الأمم ويغرقون فى الدنس ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يسير إلى بيت المقدس وأن يفعل فيه ما كان الآشوريون يفعلون .

وخرج بختنصر من بابل فى ستمائة ألف راية يريد أهل أورشليم ، فلما فصل سائرا أتى ملك بنى إسرائيل الخبر أن بختنصر قد أقبل هو وجنوده يريدكم ، فأرسل الملك إلى أرميا فجاءه فقال :

— يا أرميا أين ما زعمت لنا أن ربك أوحى إليك ألا يهلك أهل بيت المقدس حتى يكون منك الأمر فى ذلك .

— إن ربى لا يخلف الميعاد وأنا به واثق .

وخرج أرميا من عند الملك ، وفيما هو فى الطريق أتاه رجل يستوقفه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا رجل من بنى إسرائيل أستفتيك فى بعض أمرى .

— تكلم .

— يا نبي الله أتيتك أستفتيك فى أهل رحمى ، وصلت أرحامهم بما أمرنى الله به ، لم آت إليهم إلا حسنا و لم آلهم كرامة فلا تزيدهم كرامتى إياهم إلا إسخاطا لى ، فأفتنى فيهم يا نبى الله .

— أحسن فيما بينك وبين الله ، وصل ما أمرك الله أن تصل ، وأبشر بخير .

وانصرف عنه الرجل فمكث أياما راح فيها المنافقون يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقوى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء وطحن عظامهم ، وراح أرميا يذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين . ثم أقبل إليه الرجل يستفتيه فقعد بين يديه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا الرجل الذى أتيتك أستفتيك فى شأن أهلى .

— أوَ ما ظهرت لك أخلاقهم بعد و لم تر منهم الذى تحب ؟

— يا نبى الله والذى بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها ، وأفضل من ذلك .

— ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم واسأل الله الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلح ذات بينكم وأن يجمعكم على مرضاته ويجنبكم سخطه .

فقام الرجل من عنده فلبث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول أورشليم بأكثر من الجراد ، ففزع منهم بنو إسرائيل وبلغت القلوب الحناجر ، وشق ذلك على الملك فدعا أرميا فقال :

— يا نبى الله أين ما وعدك الله ؟

— إنى بربى واثق .

وقعد أرميا على جدار بيت المقدس ينظر إلى بختنصر وجنوده يضحك

ويستبشر بنصر ربه الذى وعده ، وأراد سراة المدينة أن يسترضوا ربهم فأطلقوا من كان عندهم من عبيد بنى إسرائيل ، ورفع بختنصر الحصار عنهم لفترة قصيرة ، فخيل إليهم أن الخطر قد زال ، فقبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة .

وجاءه الرجل الذى استفتى أرميا مرتين وقعد بين يديه فقال له أرميا :

ــ من أنت ؟

ــ أنا الذى كنت أتيتك فى شأن أهلى مرتين .

ــ أوَ لم يأن لهم أن يفيقوا من الذى هم فيه ؟

ــ يا نبى الله كل شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه وأعلم أن مآلهم فى ذلك سخطى ، فلما أتيتهم اليوم رأيتهم فى عمل لا يرضاه الله ولا يحبه .

ــ على أى عمل رأيتهم ؟

ــ رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه من قبل اليوم لم يشتد غضبى عليهم وصبرت لهم ورجوتهم ولكنى غضبت اليوم لله ولك فأتيتك لأخبرك خبرهم ، وإنى أسألك بالله الذى هو بعثك بالحق إلا دعوت عليهم أن يهلكهم الله .

ــ يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم .

وكان بنو إسرائيل على سخط الله وعمل لا يرضاه فحمل بختنصر وجنوده على أبواب أورشليم فإذا بالأبواب تنهار ، فلما رأى ذلك أرميا صاح وشق ثيابه ونبذ التراب على رأسه وقال :

ــ يا ملك السماء ويا أرحم الراحمين ، أين ميعادك الذى وعدتنى ؟

فنودى :

ـ يا أرميا إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك التى أفتيت بها رسولنا .

وعرف أرميا أن الذى جاءه يستفتيه لم يكن رجلا من بنى إسرائيل بل كان رسول ربه ، وأنه أفتى بهلاك قومه فنزل عن سور أورشليم التى عزم الله على هلاك أهلها ، وانطلق بعيدا وفى القلب حسرة وفى العين دموع .

٢٨

اندفعت عربات بابل الحربية فى طرقات أورشليم كالسهم المنطلق وانقضت على بنى إسرائيل انقضاض الصواعق ، ودارت فى الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف وبالسهام ، ولما كانت قلوب بنى إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد خر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار .

وسقطت المدينة الحصينة فى قبضة بختنصر ، فأحرق الهيكل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان فى بيت المقدس ، واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل .

وزحف جيش بختنصر على مملكة يهوذا ، ودار القتال فى السامرة بين أهل بابل واليهود ، وسرعان ما خرت اليهودية ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين .

وأمر بختنصر جنوده أن يجمعوا سبايا إسرائيل وسبايا يهوذا ، وإذا بشيوخ وعجائز ورجال ونساء وصبيان يملئون الأفق قد طأطئوا الرءوس فى ذل وانكسار ، وزاد فى أساهم أن توراة الله قد التهمتها النيران .

وكان فى الأسرى سبعة آلاف من أهل بيت داود ، وسبعة عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط أشر بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفا من سبط زبالون بن يعقوب ونفثالى بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب جد اليهود .

ونظر بختنصر إلى سبايا بنى إسرائيل وشرد يفكر ، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق ، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثا بالشام وثلثا سبا وثلثا أعمل فيهم القتل .

وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل ، وكان بين السبايا سبعون ألف صبي فيهم دانيال وحنانيا وعزير .

وهام الذين فروا من بني إسرائيل على وجوههم ثم انسابوا في جزيرة العرب يلتمسون الأمن ، فنزلت طائفة في تيماء وطائفة بخيبر ، ومضى أشرفهم وأكثرهم حتى أتوا يثرب فنزلوا بها وقالوا : إنها مهاجر الرسول الذي سيبعثه الله في الأميين .

وضغط النبط على الأدوميين فقد كانوا يتطلعون إلى موطنهم الحصين ، وإلى مناجم النحاس والحديد في أدوم ، ودار القتال بين أبناء نابت بن إسماعيل وأبناء العيص بن إسحاق ، وعلى الرغم من موقع سلع الذي تحيط به الجبال الشامخة من كل مكان فقد تمكن النبط من أن يتدفقوا من المدخل الضيق بين الجبال إلى الوادي الفسيح .

ونزل الخراب بأرض أدوم وكثر فيهم القتل ، فجلوا عن بلادهم وساروا حتى نزلوا بأورشليم ، بالمدينة التي خربها بختنصر ملك الكلدانيين ، واستقروا في فلسطين .

وأضحى النبط يسيطرون على شرايين التجارة التي كانت تمر بأرض أدوم لتحمل تجارة العربية الجنوبية وتجارة أفريقية والهند التي تنقل بالطرق البرية إلى دمشق وغزة ، وبدأت تزدهر حضارة النبط أعظم حضارات بني إسماعيل .

وجاء أرميا على حمار له معه عصير من عنب في ركوة وسلة تين من أقصى أورشليم يسعى ، وراح يقلب وجهه في المدينة المقدسة فألفى الخراب في جنباتها والبوم ينعب على أطلالها والذئاب تعوى في أرجائها ، وقد ملئ بيت المقدس ترابا وصارت الدور رمادا ، فلوى عنق حماره وانطلق مخلفا المدينة التي نزل بها غضب الله .

وحانت منه التفاتة ليرثي بيت المقدس ، هيكل سليمان الذي تجاوبت فيه

صلوات بنى إسرائيل ، الذى تليت فى محرابه توراة الله التى نزلت على موسى الكليم ، فإذا بالمكان موحش يقبض القلب ويبعث فى الصدور حسرات .

ودمعت عينا أرميا بعد أن وقعتا على رماد التوراة الذى راحت الرياح تذروه فقد نزعت التوراة من الأرض بعد أن نزعت من الصدور ، وحلت اللعنة ببنى إسرائيل .

وعبث الشك بأرميا فقال لما رأى أورشليم خاوية على عروشها :

ـ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟

فأماته الله ليبعثه وليجعله آية للناس .

وعكف بنو إسرائيل فى أرض السبى على كتابة التوراة بأيديهم يجعلونها قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا . إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

كانوا أذلاء فى الأسر يعبث أهل بابل بمقدساتهم ويستبيحون نساءهم فراحوا يصمون الأنبياء بالنقص ، يجعلونهم عباد شهـوة وشراب خمر ، وينسبون إليهم الغش والخداع وسرقة البركة لينفسوا عـن مـرارة مـا فى نفوسهم . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

وراحوا يحاولون أن ينفضوا عن أصلهم العربى بتأسيس جنس لا سند له من واقع ولا تاريخ أطلقوا عليه اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق ، وجعلوا من أنفسهم شعبا مختارا ، وصاروا هم الناس ومن عداهم أمم من

حقهم أن يستحلوا أموالهم ودماءهم . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

وكتبوا فى التوراة بأيديهم أن الله أورثهم الأرض التى بارك فيها للعالمين وجعلهم أئمة ، ونسوا أن الله قال لإبراهيم : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .

وجعلوا النبوة فيهم فهم الذين سيرقدون وحدهم يوم القيامة فى حضن إبراهيم فى جنات النعيم ، ولما كان بنو إسماعيل ينافسونهم فى التوحيد وفى عبادة الله الواحد القهار وفى أنهم مثلهم من ذرية إبراهيم ، وأكرمهم الله بأن أمر بإقامة بيته فى أرضهم قبل أن يبنى سليمان الهيكل بقرون ، فقد كرهوا منافستهم وصمتوا عنهم الصمت المريب ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

ومرت السنون وأحبار إسرائيل يكتبون التوراة بأيديهم . يلبسون الحق بالباطل ، قد وقع الخلاف بينهم وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

وبينا كان بختنصر نائما رأى رؤيا وقد أعجبه ما رأى ، وما إن أتمها حتى قام من رقاده وهو يتهلل بالفرح .

واستأنف نومه ولما أشرقت الأرض بنور ربها نهض يتثاءب وراح يفكر فى حلمه . بيد أن شيئا أصابه فأنساه الذى كان رأى ، فأرسل يستدعى السحرة والكهنة والذين ينظرون فى النجوم وحكماء مملكته ، وقال لهم :

— أخبرونى عن رؤيا رأيتها ثم أصابنى شىء فأنسانيها .

— أخبرنا بها نخبرك بتأويلها .

— لا أذكرها ، وإن لم تخبرونى بتأويلها أمرت بقتلكم جميعا .

وعجز السحرة والكهنة وحكماء الكلدانيين عن معرفة حلم الملك ، فأمر بقتل كل سحرة بابل وحكمائها ، ولما جاء الجلادون ليأخذوا دانيال وصحبه طلبوا أن يدخلوا على الملك ، فدخل دانيال وحنانيا وعزير من ذرارى أنبياء بنى إسرائيل فلما مثلوا بين يديه قال لهم :

ـــ أخبرونى عن رؤيا رأيتها ثم أصابنى شىء فأنسانيها وقد كانت أعجبتنى ، ما هى ؟

ـــ أخبرنا بها نخبرك بتأويلها .

ـــ ما أذكرها ، وإن لم تخبرونى بتأويلها لأنزعن أكتافكم .

فخرجوا من عنده يتلفتون فى فزع ، فسيصب عليهم بختنصر جام غضبه إن لم تدركهم رحمة السماء .

وراحوا يصلون إلى الله صلاة حارة ويدعون رب آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويتضرعون إليه ويسألونه أن يعلمهم إياها ، فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

وأوحى الله إليهم ما سألهم عنه بختنصر ، فانشرحت صدورهم وطلبوا المثول بين يدى ملك الكلدانيين ، فلما أذن لهم ساروا فى طرقات القصر العظيم مرفوعى الجبين .

كان بختنصر جالسا على عرشه يحف به رجال قصره ، فدخل عليه دانيال وعزير وحيوه دون أن يخروا له ساجدين ، ثم قالوا له :

ـــ رأيت تمثالا .

ـــ صدقتم .

ـــ قدماه وساقاه من فخار وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد .

ـــ صدقتم .

— فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبك ، فأرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته فهى التى أنستك رؤياك .

— صدقتم ، فما تأويلها ؟

— تأويلها أنك رأيت ملك الملوك ، فكان بعضهم ألين ملكا من بعض ، وبعضهم كان أحسن ملكا من بعض ، وبعضهم كان أشد ملكا من بعض ، فكان أول الملك الفخار وهو أضعفه وألينه ، ثم كان فوقه النحاس وهو أفضل منه وأشد ، ثم كان فوق النحاس الفضة وهى أفضل من ذلك وأحسن ، ثم كان فوق الفضة الذهب فهو أحسن من الفضة وأفضل ، ثم كان الحديد ملكك فهو أشد الملوك وأعز مما كان قبله .

وكانت الصخرة التى رأيت أرسل الله عليه من السماء فدقته نبيا يبعثه الله فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ، وتستمر مملكة الله فى الأرض إلى الأبد .

رأى بختنصر تتابع العصور منذ خلق الله الخلق : عصر الفخار ثم عصر النحاس ثم عصر الحديد ، ثم بزوغ نجم ذلك النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة .

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون .

٢٩

كان برخيا من نسل يهوذا أبى اليهود جميعا ، وكان فى نجران يتعبد لرب إسرائيل ، فلما بلغه أن بختنصر أحرق هيكل سليمان وحمل بنى إسرائيل وبنى يهوذا وأبناء الأسباط إلى بابل وأخذ عمالهم ونجاريهم وبنائيهم ليشيدوا مجد الكلدانيين نزل به هم ثقيل ، وزاد فى حنقه أن مجد بنى إسماعيل بدأ يتألق بينا مجد إسرائيل أفل وحاق بهم الذل المهين .

هيكل الرب فى بيت المقدس أكلته النيران ، وراحت ذئاب البرية تعوى فى جنباته والبوم تنعب على أطلاله ، وأصبحت أورشليم خاوية على عروشها ، بينا بيت الله فى مكة البيت المحرم الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل يتألق بالنور ، يأمن فيه الطير ويلوذ به الخائف ، إنه لا يزال حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء ، أهله فى سلام بينا يتخطف الناس من حولهم !

ونهشت نار الغيرة قلب برخيا وضاق بالحنق على بنى إسماعيل صدره ، فإن كان الخراب قد حل بإسرائيل وهيكلها فلن يطفئ لهيب مقته إلا أن يرى البيت المحرم بمكة خرابا يبابا . ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ؟

وامتطى برخيا راحلته وانطلق من نجران إلى بابل وقد عزم على أن يدخل على بختنصر وأن يخر له ساجدا وأن يوغر صدره على العرب ، فما دام الدمار قد حاق ببنى إسرائيل فليحرض ملك الكلدانيين على أن يلبس منافسيهم من بنى إسماعيل لباس الذل وأن يجعلهم حصيدا خامدين .

ودخل بابل وكانت عروسا تزهو بجمالها على مدن العالمين ، أبراجها عالية

تضرب فى السماء شامخة ، وتعلن للملأ مجد مردوخ وسين وشماش وعشتار وآلهتها أجمعين ، يحيط بها سورها العظيم بأبوابه المائة ، فجعلها حصنا حصينا تستعصى على جبابرة الأرض ، وأطلق فى معابدها البخور ونحرت الذبائح وقدمت للآلهة القرابين لتكون فى حماية السماء وأرباب العرش العظيم .

وراح نهر الفرات يجرى وسطها وعن يمينه وشماله قامت الدور والقصور وحدائق بابل المعلقة التى أدهشت العصور .

كانت مقامة على أساطين مستديرة متتالية طبقة من فوقها طبقة وقد أنشأها بختنصر بعد أن تزوج ابنة سباخار ملك الميديين . لم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة ، فعاودها الحنين إلى خضرة بلادها الجبلية ، فدفعت الشهامة زوجها فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة وغطى سطحها الأعلى بطبقة سميكة من الطمى وغرس فيها الأزهار والأشجار وجعلها جنة تسر الناظرين ، ورفع المياه إليها من نهر الفرات بآلات مائية مخبأة فى الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق .

وراحت نسوة القصر يمشين غير محجبات آمنات من أعين الناس فقد كانت الحدائق ترتفع عن الأرض خمسا وسبعين قدما .

اجتاز برخيا بوابة عشتار ولم تخطف بصره روعة الفن البابلى ولا تماثيل الأسود البارزة ولا دقة التهاويل التى زينت البوابة العظيمة التى كان جمالها يسبى العقول ، كانت آية من الفن الكلدانى ، ولكن مشاعره الثائرة فى نفسه أعمته عن كل ما حوله من روعة ، فقد كدر حقده على العرب كل صفاء وشوه كل جمال .

وبلغ الميدان الكبير فألفى بختنصر قد أقام تمثالا من الذهب لمردوخ رب الأرباب إلٰهه العظيم ، طوله ستون ذراعا وعرضه ست أذرع ، وقد غص المكان بالكهنة والمرازبة والولاة والقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات

والمغنين والمرتلين .

ونادى المنادى :

— أمرتم أيها الشعوب والأمم أن تخروا لمردوخ العظيم ساجدين إذا ما نفخ فى الصور .

وجلجل فى الميدان صوت القرن والناى ، وسرى العزف على العود والرباب ، وتساوقت مع هذه الموسيقى أنغام المزامير ، وارتفعت ابتهالات المرتلين لرب الناس وخالق الناس . فإذا بجباه الكهنة والمرازبة والولاة والقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات والناس أجمعين تلتصق بالأرض ، وإذا ببختنصر يخر ساجدا وتمتزج دموعه بالتراب . وتمت المراسيم وقضى الاحتفال العظيم ، وراح برخيا ينظر إلى بنى إسرائيل الذين يسيرون فى أرض السبى مطأطئى الرءوس فيستشعر حسرة ، فإن كان أعجز من أن يحررهم من ذل الأسر فلا أقل من أن يلحق بهم منافسيهم من بنى إسماعيل .

وانطلق إلى القصر يدرج على البلاط الذى كتب على حوافيه : « أنا بختنصر ملك بابل ، ابن بابو بولاسار ، أيها الإلـه العظيم مردوخ امنحنا الحياة الأبدية » ، حتى إذا بلغ كبير موظفى القصر التمس منه أن يقابل بختنصر لأنه تلقى من السماء وحيا وقد أمر بأن يبلغه إلى الملك العظيم .

كان بختنصر كثير الأحلام وكان يستعين بالكهنة والسحرة وحكماء مملكته فى تفسير أحلامه ، حتى إذا عجزوا عن تأويل رؤياه كان يبعث إلى دانيال وعزير وأنبياء بنى إسرائيل ، فلما سمع أن بالباب نبيا يحمل أوامر السماء قد جاء من نجران ليسر إليه بما يوحى إليه أمر بأن يدخل وتأهب للقاء المثير .

ودخل برخيا ترن فى جنباته تلك الأغنية التى سمعها من اليهود الجالسين على شاطئ الفرات :

« على أنهار بابل جلسنا وبكينا على صهيون ،

وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا ،

لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ، ونادونا هلا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟

وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟

ولئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمينى حذقها .

وليلتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم ،

وإن لم تكونى لدى خيرا من أفراحى » .

ورحب بختنصر ببرخيا وألقى إليه السمع ، فقال برخيا :

— إن الله أوحى إلىّ أن ائت بختنصر وأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب ، وأن يطأ بلادهم الجنود فيقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم ، وأعلمه كفرهم بى واتخاذهم الآلهة دونى وتكذيبهم أنبيائى ورسلى .

وظل برخيا ينفث سمومه فى صدر بختنصر حتى أقنعه بما يريد ، وألقى فى روعه أن ما قاله إن هو إلا وحى يوحى ، ونهض بختنصر لينفذ مشيئة السماء .

كان تجار العرب يغدون ويروحون فى بلاد بابل مطمئنين بعد أن اتحد العرب والبابليون على آشور وسددوا إليها طعنة جعلتها فى الغابرين ، كانوا يقدمون على بابل بالتجارات والبياعات ويمتارون من البابليين الحب والتمر والثياب . وكانوا سعداء بالأمن وبالسلام الذى رفرف على ربوع ممالكهم ، بيد أن برخيا بحقده الدفين عكر ما بين البابليين وبنى إسماعيل من صفاء .

وأمر بختنصر قائد جيوشه بالقبض على العرب فى الأسواق وفى كل مكان من بلاد الكلدانيين ، وساق جند بابل العرب زمرا إلى قصر الملك الذى أعار برخيا أذنيه وأسلس له قياده ، وغصت بابل بمن ظفر به بختنصر من العرب ، فأمر أن تبنى لهم مدينة على النجف وأن تحصن ، وأن يقوم عليها حرس وحفظة .

وبنيت الحيرة وضم إليها أسرى العرب ، وأحس برخيا بعض الراحة فما حاق ببني إسرائيل قد لحق مثله ببني إسماعيل ، بيد أن هيكل سليمان قد سار طعمة للنيران بينا بيت الله فى مكة لا يزال مثابة للناس وأمنا ، فراح ينفخ فى نار الحقد ويؤججها فى صدر بختنصر .

وانتشر الخبر فى قيدار وعريبى وفى مملكة النبط وفى قبائل بنى إسماعيل التى كانت تفصل بينهم وبين بلاد الرافدين ، فرأت طوائف منهم أن تخرج إلى بابل مسالمين مستأمنين ، ورأى عدنان بن أدد أن يتأهب لمعركة يشيب من هولها الوليد .

وخرجت طوائف المسالمين إلى بابل يحملون الهدايا والولاء لبختنصر ملك الكلدانيين العظيم ، ومثلوا بين يديه وقد جنحوا للسلم يلتمسون منه الأمن ، ولم يستطع بختنصر أن يبت فى الأمر قبل أن يستشير برخيا الرجل المبارك الذى جاءه بوحى السماء !

واستشار بختنصر فيهم برخيا فقال :

— إن خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عما كانوا عليه ، فاقبل منهم فأحسن إليهم .

وأنزلهم بختنصر السواد على شاطئ الفرات ليبنوا موضع عسكرهم وليصيروا فيما بعد « الأنبار » ، ونزل العرب الحيرة والأنبار ، وحمل بنو إسرائيل إلى بابل واجتمع العرب وبنو إسرائيل فى الأرض التى خرج منها جدهم العظيم إبراهيم الخليل ، أرض الكلدانيين .

خرب بختنصر بيت المقدس وأرض يهوذا ونسف بنى إسرائيل نسفا فأوردهم أرض بابل ، ولكنه لم يظفر من العرب إلا بمن خرجوا إليه مسالمين مستأمنين ، وما كان هذا ليرضى برخيا فراح يزين له الخروج إلى العرب الذين

لم يعلنوا له الولاء والخضوع .

وراح بختنصر يتأهب لغزو العرب ، لقتل الذين لا يؤمنون بإلـٰهه ولا يدينون بالولاء لمردوخ ، وقد عزم على ألا يستحيى فيها إنسيا وأن ينسف كل شىء نسفا .

واستعد عدنان للقتال ، وفيما هو يتأهب للخروج ألقى الله فى صدره أن يبعث بولديه معد وعك إلى من بقى من بنى إسماعيل بأرض الحجاز ليكونا فى بيت الله ، حيث يأمن الخائف ، ليبتغيا السلام وفضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم .

وراح عدنان يودع ولديه ، كان معد فى الرابعة عشرة وكان عك أصغر منه ، ولكن معدا كان يبدو رجلا مكتملا ، فى وجهه نبل ووسامة يشع منه صلاح وتقوى . وقد كان ضامرا ركن إلى التقشف واخشوشن دون أن تفرض عليه الظروف قسوة الحياة .

انطلق معد وأخوه فى رعاية الله وما دار بخلد أحد أن الله قد أبعد معدا عن ميدان القتال لأمر جليل ، فهو عالم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا ، وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين .

أراد الله أن يدخره ليتم نوره ، فمن ولده نبيه ورسوله خاتم المرسلين . سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا .

خرج بختنصر فى عدد مثل سواد الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأن خفيق راياته طيران النسور وكأن حملة فرسانه كرير العقبان ، فى أيديهم أقواس وسهام ورماح وفئوس ، تتدلى من مناطقهم الخناجر والسيوف ، وقد انطلقوا لتحقيق حلم برخيا من فى قلبه مرض للعرب أجمعين .

وخرج عدنان على رأس جيوش بنى إسماعيل وقد امتطوا الخيل العراب والإبل التى تنطلق فى الصحراء انطلاق الريح ، وقد تسلحوا بالسيوف التى جلبوها من مصر ودمشق ومن بلاد الفينيقيين ومن اليمن ، وبالرماح والأقواس والسهام التى جلبوها من كل مكان ، فإنهم لما أحسوا الخطر أخذوا يستبدلون البخور والطيب والتوابل بكل بتار عنيد .

والتقى جيش بختنصر بمركباته وفرسانه بجيش عدنان بحصورا ودارت رحى المعركة ، وكان القتال رهيبا سالت فيه الدماء وزهقت فيه الأرواح وملأت جثث القتلى الفضاء ، وانقضت نسور السماء وجوارح الطير تبقر البطون و لم يظهر فريق على فريق .

وراح أهل بابل يبتهلون إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار وآلهتهم الأخرى لتنصرهم على أعدائهم ، وكان عدنان ومن معه من بنى إسماعيل يفزعون إلى اللات والعزى ومناة بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فنسوا إلـٰه آبائهم الواحد القهار ، من ينصر من ينصره ، ويمد أولياءه بالنصر المبين .

وأراد الله أن يذيق بنى إسماعيل العذاب وذلك بما قدمت أيديهم . ما يأتيهم من ذكر ربهم محدَثٍ إلا اتبعوه وهم يلعبون . فألقى الرعب فى قلوبهم فراح جند بختنصر يمشون إليهم مشى الوعول ويضربون منهم الرقاب . وكم قصبمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسَنا إذا هم منها يركُضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين .

وكثر فى بنى إسماعيل القتل ، ثم ثبت عدنان وثبت معه من حوله فتكسرت عليهم حملات البابليين ، وصبر العرب للقتال ، وخشى بختنصر أن تدور عليه

الدائرة فراح يحفر الخنادق ليحتمى فيها ، وخندق عدنان واستمرت المناوشات بين الجيشين ، ثم نهى عدنان عن بختنصر ونهى بختنصر عن عدنان وقفل كل جيش راجعا إلى بلاده وقد فاز من الغنيمة بالإياب .

ولم يشأ الله أن يذهب عدنان والذين معه ويأتى بخلق جديد ، فقد كان يعلم أن سيكون من نساء هؤلاء العرب الذين أشركوا به خير أمة أخرجت للناس ، وكان الله عليما حليما

تذييـــل

هذا الكتاب ـــ على ما أعلم ـــ أول كتاب عن بنى إسماعيل ، فلم يعرف المؤرخون القدامى ولا الإخباريون الإسلاميون إلا النزر اليسير عن تلك الحقبة التى انقضت بين إقامة إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وبين عدنان بن أدد الجد الأعلى للرسول ﷺ ، أى بين سنة ١٧٠٠ وسنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، وقد اعتمد المؤرخون القدامى والإخباريون الإسلاميون على ما جاء فى التوراة عن الإسماعيليين . ولما كانت المنافسة على الزعامة الدينية بين بنى إسماعيل وبنى إسرائيل شديدة ، ولما سجل مؤرخو اليهود تاريخهم عندما أعادوا كتابة التوراة فى منفاهم ، فقد سكتوا متعمدين عن تاريخ الإسماعيليين .

ومن هنا ذهب بعض الكتاب الإسلاميين فى عصرنا هذا إلى أن إسماعيل أسطورة من الأساطير وأنه لم يمش فى الأرض يوما ، ذلك لأن إسماعيل لم يرد اسمه فى نقش من النقوش التاريخية ، متبعين مذهب الشك قبل اليقين ، كأنما قد كشفت بطون الأرض كل أسرارها وكأنما لم يعد هناك تاريخ مطمور .

اكتشف بوتا فى العصر الفيكتورى العاصمة الآشورية الجديدة التى بناها سرجون الثانى فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، فأصبحت آشور فجأة ملء الأسماع وزخرت المجلات المصورة فى كل من إنجلترا وفرنسا بصور تمثل تفاصيل مناظر الحرب والفتح والاحتفالات والحياة اليومية لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت إلا بعض تلميحات فى التوراة وبيانات غير واضحة للمؤرخين الكلاسيكيين .

وقام هنرى لا يرد بالتنقيب فى نمرود وتكشفت حضارة بابل وآشور ، ولما

كان بنو إسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وآشور ، وقد لعبوا دورا هاما فى تاريخ المنطقة آنذاك ، وكانوا يمقتون الآشوريين ويمدون يد العون لكل أعداء آشور ، فقد سجل الآشوريون ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بنى إسماعيل من مناوشات وحروب .

وأعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بنى إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان ، وأثبتت الحفريات والنقوش أن إسماعيل عليه السلام كان يمشى فى الأسواق وكان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

وأعتقد أن ما وصل إلينا من المصادر الآشورية والإغريقية والرومانية عن بنى إسماعيل قليل وأن بطن الأرض لا يزال يخفى الكثير عن هذه الحقبة التى تقع بين بناء الكعبة أيام إبراهيم وإسماعيل ومولد الرسول ﷺ . وقد اعتمدت على هذا القليل لتوضيح بعض الجوانب التى خفيت على الإخباريين الإسلاميين والمؤرخين الكلاسيكيين وتصويب المزاعم التى حاول اليهود أن يغرسوها فى العقول على مر العصور .

ترجمت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى إلى العربية فى القرن الثانى الهجرى ، فراح المؤرخون والإخباريون المسلمون ينهلون منها دون حذر ، ولا غرو فقد كانوا يحسبون أنها توارة الله ، فغصت كتب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات وأساطير الشعوب التى دسها أدباء اليهود على كتاب الله ، وراح المولعون بوضع الأحاديث النبوية ينهلون من كتاب اليهود وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فكان ما يلاحظ فى بعض الأجاديث من مجافاة للمنطق الذى اشتهر به محمد بن عبد الله ﷺ ، ومجافاة لعظمة من أوحى الله إليه قرآنه .

و لم يعرف الإخباريون الإسلاميون دولة النبط التى كانت قبيلة نابت بن إسماعيل ثم امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق وامتد سلطانها حتى حدود بلاد النهرين ، وإن عرفها يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، وعرفها مؤرخو الإغريق والرومان الكلاسيكيين . وقد ضيع جهل الإخباريين بهذه الدولة كثيرا من الحقائق وجعلهم يتخبطون فى تفسير بعض ما لا يمكن تفسيره إذ أهمل تاريخ هذه الدولة التى كانت ركنا هاما قامت عليه حضارة الإسلام ، فقد كانت لغة قريش لغة القرآن مشتقة من لغة هؤلاء الأقوام ، وقد قال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » .

وقد عثر على نصوص نبطية فى البتراء — وكانت تعرف من قبل بسلع — عاصمة ملكهم بوادى موسى ، والحجر والعلا وتيماء وخيبر وصيدا ودمشق وطور سيناء والجوف واليمن ومصر وإيطاليا ، ولما كان الإخباريون لا يعرفون شيئا عن مملكة النبط فقد قالوا : إن النبط جيل من العجم ينزلون البطائح بين العراقين ، سموا بذلك لكثرة النبط عندهم ، وهو الماء . وقد قصد الإخباريون بالنبط بقايا الشعوب القديمة خاصة النازلين فى البطائح منهم ، أما النبط الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب والذين سيرد ذكرهم فى الجزء الرابع بإذن الله ، فهم أبناء نابت بن إسماعيل . وقد أطلق يوسيفوس اسم « النبط » على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر وهى من مناطق أولاد إسماعيل .

وكان لجهل الإخباريين بدولة النبط أثره فى تدوين التاريخ ، فقد ذكروا أن عدنان قابل بختنصر بذات عرق بحصورا باليمن . ولما كانت حصورا هى الحيرة على رأى أغلب المؤرخين المحدثين ، فقد جعلت عدنان فى مملكة النبط ، وأدارت المعركة بين بختنصر وبين عدنان إن كانت قد وقعت — فى الحيرة ،

وهذا أقرب إلى العقل ، فقد دارت جميع المعارك التى نشبت بين بنى إسماعيل وبين الآشوريين والبابليين فى بلاد ما بين النهرين وفى البادية حتى تلك الأيام ولم يحدث أن توغلت قوة من الآشوريين أو البابليين فى قلب جزيرة العرب لتصل إلى اليمن .

وقد يقول قائل : لماذا أطلقت على هذه السلسلة « محمد رسول الله والذين معه » إذا كنت أكتب تاريخ الأنبياء منذ أيام أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتم النبيين محمد رسول الله ﷺ ؟ وأحب أن أقول إنى أكتب قصة الإسلام منذ أن دعا إليه إبراهيم الخليل إلى أن جاء الرسول الكريم ليثبت أركانه وليعلن للملأ أن الله سيحفظ دينه إلى يوم الدين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١) .

دعا جميع الأنبياء والرسل إلى الإسلام ، فهو دين الله منذ آدم إلى يوم يبعثون ، لم يعرف التطور ولا الارتقاء فهو دين الفطرة ، كلما طال على الناس الأمد طمسوه بفلسفاتهم وأساطيرهم فبعث الله الرسل ليعيدوا للدين القيم بساطته ولينقوه مما علق به من شوائب قسوة القلوب .

كان الإسلام دعوة جميع الرسل والأنبياء : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »(٢) . « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون »(٣) . ودعا يوسف إلى الإسلام : « رب قد آتيتنى من الملك

---

(١) الحجر ٩ (٢) آل عمران ٦٧ .

(٣) البقرة ١٣٠ — ١٣٣ .

وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »(١) . ودعا موسى وداود وسليمان إلى الاسلام : « .. قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »(٢) . وكانت دعوة المسيح عليه السلام الإسلام : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون »(٣) .

إلـٰه واحد ودين واحد لم يعتوره التطور و لم يعرف التبديل « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »(٤) .

وقد كتبت فى إيجاز قصة الرسل جميعا ، لأظهر بشاراتهم بالنبى الأمى الذى سيبعثه الله نورا هاديا من الأمم لا من بنى إسرائيل .

الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وكان إدريس أول من أرسل إلى المصريين فعرفوا التوحيد قبل عصر الأسرات ، ثم جاء إلى مصر إبراهيم الخليل هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى عصر الهكسوس جاء يوسف إلى مصر وجعله الملك على خزائن الأرض فعرفت مصر التوحيد فى ذلك العهد ، وجاء أبوه يعقوب وإخوته واستقروا فى الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

عرفت مصر التوحيد قبل عصر الأسرات وعرفته الأسرة الثالثة عشرة يوم أن جاء إبراهيم يجادل كهنة منف ، وعرفته فى الأسرة السادسة عشرة فى أيام يوسف الصديق قبل أن يدعو إخناتون إلى عبادة الشمس فى أواخر أيام الأسرة

---

(١) يوسف ١٠١ .
(٢) النمل ٤٤ .
(٣) آل عمران ٥٢ .
(٤) البقرة ١٣٦ .

الثامنة عشرة التى اضمحلت على يديه ، ولم يكن إخناتون أول من عرف التوحيد كما قيل بل كانت دعوته نكسة بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، بل ردة عن التوحيد .

وقال المفسرون إن امرأة فرعون التى التقطت موسى من اليم هى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها واستندوا فى ذلك إلى أحاديث نبوية ، وقال الإخباريون ، إنها آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف فأسلمت على يد موسى ، ثم عادوا وقالوا : إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل وأنها كانت تخفى عن فرعون .

جعلوها مرة من الهكسوس ومرة أخرى من بنى إسرائيل وقد رفضت الرأيين معا ، لأن أحمس كان قد أجلى الهكسوس قبل مولد موسى بعدة قرون ، وعلى ذلك فمن الخطأ أن تنسب إلى الهكسوس . ورفضت الرأى القائل بأنها كانت من بنى إسرائيل لأن الفراعين ما كانوا يتزوجون إلا امرأة يجرى فى عروقها الدم الملكى ، وللمحافظة على نقاوة ذلك الدم كانوا يتزوجون أخواتهم ، وقد أخذت برأى الأستاذ جارستنج عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليفربول . أنه كشف فى مقابر ريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجته بالتحقيق الأميرة حتشبسوت « الملكة حتشبسوت فيما بعد » وكان ذلك فى عام ١٥٢٧ ق . م . وأنه تربى فى بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث . هو يعتقد كذلك أن المخلفات التى وجدت فى هذه القبور تؤيد قصة سقوط أريحا « يشوع ٢٦ » ويرجع سقوطها إلى حوالى ١٤٠٠ ق . م . ، كما يرجع خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عام ١٤٤٧ ق . م . وتعتمد هذه التواريخ على ما وجد منقوشا على الجعلان والخزف .

وقال المفسرون والإخباريون المسلمون إن فرعون موسى هو مصعب بن

قابوس وهو من العماليق ، و لم آخذ بهذا الرأى اعتمادا على القرآن الكريم[١] ، ففى قصة يوسف حرص القرآن على أن يؤكد أن حاكم مصر لم يكن من الفراعين بل كان حاكما أجنبيا : « قال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف »[٢] ، و « قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى »[٣] أما عندما كان يقص قصة موسى فقد كان يذكر فرعون صراحة : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه .. »[٤] .

قبلت الرأى القائل بأن ملك مصر فى أيام يوسف الصديق هو الريان بن الوليد ، وأيد هذا الرأى عندى أنه عثر على ملك من ملوك الهكسوس اسمه خيان ، وأظن أنه من الممكن أن يحرف الريان إلى خيان ، و لم أقبل الرأى القائل بأن فرعون موسى هو مصعب بن قابوس ، اعتمادا على ما جاء فى القرآن الكريم .

والمتواتر بين أغلب المؤرخين أن موسى كان فى عهد رمسيس الثانى وابنه منفتاح . وقد رفضت هذا الرأى فقد أقام منفتاح لوحة حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد كتب فيها :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما ،
وهدئت أرض الحيثيين ،
وانتهت كنعان وحلت بها الشرور ،
وخربت إسرائيل و لم يعد لأبنائها وجود ،
وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،
وضمت كل البلاد وهدئت .
وكل من كان ثائرا قيده الملك منفتاح » .

---

(١) راجع تذييل الجزء الأول .
(٢) يوسف ٤٣ .
(٣) يوسف ٥٤ .
(٤) هود ٩٦ ، ٩٧ .

وليستقيم هذا الخبر لا بد أن تكون إسرائيل قد تكونت قبل أن يشن منفتاح عليها هجومه الذى دونه فى هذه اللوحة ، لذلك لم آخذ بهذا الرأى المتواتر الذى أخذ به معظم من كتبوا تاريخ موسى عليه السلام أو سجلوا أحداث هذه الفترة فى عمل أدبى .

ويظن كثير من المسلمين ، بل كثير من المؤرخين أن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى كانوا يهودا ، على الرغم من أن القرآن الكريم أكد أنهم لم يكونوا هودا : « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل : أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون »[1] . وإن الواقع التاريخى ينفى كونهم هودا، كان إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مسلمين على ملة أبيهم إبراهيم ، وكان الأسباط اثنى عشر رجلا من أبناء يعقوب ، وكان يهوذا — الجد الأعلى لليهود — ابنه الرابع . وقد ظل بنو إسرائيل ينسبون إلى يعقوب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل لداود وسليمان وكانا من نسل يهوذا فأرادت قبيلتهما أن تستأثر بالفضل وحدها ، فانقسمت إسرائيل بعد موت سليمان فى عام ٩٣٧ ق . م . إلى دولتى يهوذا وإسرائيل ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت اليهودية .

كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل يهوذا ، وكان يوسف سبطا من الأسباط مثل يهوذا ، وكان موسى من نسل لاوى ولم يكن من نسل يهوذا ، وعلى ذلك لم يكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان يهودا بل كانوا حنفاء مسلمين .

عرف بنو إسماعيل وبنو إسرائيل ذلك الكنز الروحى الذى جاءهم به إبراهيم ، وكانوا يدعون لله رب العالمين حتى عرفت قبيلة يهوذا ذلك التعصب

---

(١) البقرة ١٤٠ .

بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، وأن الله لن يبعث رسولا إلا منهم ولن يبعث فى الأميين رسولا ، وقد فرق القرآن الكريم بين بنى إسرائيل وبين اليهود فلم يأت ذكر لليهود فى القرآن قبل ملك سليمان ، وقد ذكر الله بنى إسرائيل بنعمته التى أنعم عليهم وبالهدى الذى هداهم وبالكتاب الذى أورثهم ولم يذكر اليهود بخبر ، ذلك بأنهم زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار ، وقصروا الجنة على أنفسهم دون الأميين . « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى »[١] وسأذكر فى تذييل الجزء الرابع إن شاء الله ما طرأ على التوراة من تغيير فى أيام المنفى ، وكيف بدلت صفات الله إلى صفات يهوه إله اليهود القاسى المستبد ، سبحان الله عما يصفون ، وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التى نادت بالتفرقة العنصرية بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى أخوة بشرية .

وقد جاءت كلمة أمى فى القرآن الكريم نسبة إلى الأمة والأمم ردا على مزاعم اليهود . فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث فى الأميين رسولا ، فجاء القرآن يدحض هذا الزعم الذى قاله قوم بلغ بهم التعصب المقيت أن عبدوا أنفسهم غرورا : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا »[٢] ، « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم .. »[٣] ، « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »[٤] . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى »[٥] .

ووصم الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض السبى أنبياء الله بكل نقائص البشر ، فجعلوا نوحا شارب خمر ، ووصفوا إبراهيم خليل الرحمن بالكذب ، وقالوا إن ابنتى لوط قد أسكرتا أباهما واضطجعتا معه ، ورموا داود بالزنا ،

---

(١) البقرة ١١١ .
(٢) الجمعة ٢ .
(٣) آل عمران ٢٠ .
(٤) آل عمران ٧٥ .
(٥) الأعراف ١٥٧ .

وقد انقاد كثير من الإخباريين المسلمين إلى هؤلاء اليهود الذين ملئوا كتاب الله بأساطير الشعوب ، وقد كان الطبرى من أكثر المؤرخين الذين نهلوا من التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى بابل دون تمحيص .

قال الطبرى فى سيرة داود : « ... كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوما يخلو فيه لنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال :

— يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائى الذين كانوا قبلى ، فأعطنى مثل ما أعطيتهم وافعل بى مثل ما فعلت بهم .

فأوحى الله إليه : إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها ، ابتلى إبراهيم بذبح ابنه ، وابتلى إسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف ، وإنك لم تبتل من ذلك بشىء .

قال :

— يارب ، ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به وأعطنى مثل ما أعطيتهم .

فأوحى إليه : إنك مبتلى فاحترس .

فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، إذ جاءه الشيطان قد تمثل فى صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلى ، فمد يده ليأخذه فتنحى ، فتبعه فتباعد حتى وقع فى كوة ، فذهب ليأخذه فطار من الكوة ، فنظر أين وقع فيبعث فى أثره ، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل النساء خلقا ، فحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها فاستترت به ، فزاده ذلك فيها رغبة ، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجا وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا ، فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أوريا إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه ففتح له وكتب إليه بذلك ، فكتب إليه أيضا أن ابعثه إلى

عدو كذا وكذا أشد منهم بأسا ، فبعثه ففتح له أيضا ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه فقتل المرة الثالثة .

وتزوج داود امرأته ، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله ملكين فى صورة إنسيين فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ، فتسورا عليه المحراب فما شعر وهو يصلى إذا هو بهما بين يديه جالسين ، ففزع منهما ، قالا :

ـــ لا تخف إنما نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط .

قال :

ـــ قصا علىّ قصتكما .

فقال أحدهما :

ـــ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائة .

فقال للآخر :

ـــ ما تقول ؟

فقال :

ـــ إن لى تسعا وتسعين نعجة ولأخى هذا نعجة واحدة ، فأنا أريد أن آخذها فأكمل بها نعاجى مائة .

قال :

ـــ وهو كاره ؟

قال :

ـــ وهو كاره .

قال :

— إذًا لا ندعك وذاك .

قال :

— ما أنت على ذلك بقادر .

قال :

— فإن ذهبت تروم ذلك ضربنا منك هذا وهذا . (طرف الأنف والجبهة) .

فقال :

— يا داود ، أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته .

فنظر فلم ير شيئا ، فعرف ما قد وقع فيه وما ابتلى به فخر ساجدا فبكى ، فمكث يبكى ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها ثم يقع ساجدا يبكى ، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه ، فأوحى الله عز وجل إليه بعد أربعين يوما :

— يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك .

فقال :

— يارب كيف أعلم أنك قد غفرت لى وأنت حكم عدل لا تحيف فى القضاء إذا جاء أوريا آخذا رأسه بيمينه أو بشماله يشخب أوداجه دما قبل عرشك ، يقول : يارب سل هذا فيم قتلنى .

فأوحى الله إليه :

— إذا كان ذلك دعوت أوريا فأستوهبك منه فيهبك لى ، فأثيبه بذلك الجنة .

قال :

— رب الآن علمت أنك قد غفرت لى .

فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء حتى قبض[(١)] .

سامح الله الطبرى ومن أخذ عنهم . وغفر لى زلتى يوم أخذت عن الطبرى هذا الحديث لما كنت أكتب كتابى « قصص من الكتب المقدسة » ، فما نسب إلى داود عليه السلام لا يليق بعباد الرحمن ، فما بالك بأنبياء الله وأصفيائه ؟!

روى عن الإمام أحمد أنه قال : « من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » . فقد اعتبر الإمام أحمد ما يرويه القصاص قذفا فى حق نبى من أنبياء الله . إن الآيات الكريمة الواردة فى القرآن عن تسور الخصمين محراب داود لا علاقة لها بأوريا ولا زوجة أوريا ، إنما أريد بها أن يعلم الله داود أسلم مبدأ للحكم بين الناس ما دام قد جلس للقضاء . ألا وهو أن يسمع أقوال الخصمين قبل أن يصدر حكمه وألا تأخذه شفقة بمظهر أحدهما ، فقد يكون الغنى أو القوى هو صاحب الحق وقد يكون المنكسر الفقير لا حق له ، وقد أخطأ داود الحكم فى القضية التى عرضت عليه لأنه حكم بعد أن سمع أحد طرفى الخصوم قبل أن يسمع الطرف الآخر ، وكان هذا التسرع فى الحكم هو ما ظن داود أنه فتنة ، أما أن نؤول نعجة بامرأة ففى ذلك تعسف شديد ولوى لعنق النصوص دون حاجة إلى ذلك العنت والجهد . والآيات الكريمة التى جاءت بعد آيات تسور الخصمين المحراب وعرض قضيتهما توضح فى جلاء أن القصة إنما أريد بها تعليم داود عليه السلام أن يحكم بين الناس بالحق : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال :

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٥ .

لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[١] .

وكان بنو إسرائيل عربا كما كان بنو إسماعيل ، ولكن اليهود بعد أن انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتى إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفضوا عن أصلهم العربى بتأسيس جنس لا سند له من التاريخ ، فأطلقوا على أنفسهم اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق . وعاش بنو إسرائيل بين الكنعانيين وأخذوا العبرية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين حروب ، وقد تعمد اليهود إقصاء الكنعانيين فى توراتهم التى كتبوها فى المنفى بعد عصر موسى بمئات السنين ، من جدول أنساب سام لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية .

وقد أشتد الغضب بين قبائل بنى إسرائيل بعد أن صار ملك إسرائيل إلى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا ، وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح فى إصحاحات الأنبياء التى دونت فى المنفى فلم يرد اسم موسى فى « آشعيا » ، لأن موسى كان من اللاويين ولم يكن من نسل يهوذا .

ويقول ول ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة » : « وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودى بزمن طويل . ويقول : وإذا ما وضعنا إلى جانب

---

(١) ص ٢١ — ٢٦ .

هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما فى الحياة اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كتَّاب العهد القديم وهم الذين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة قد أخفوه عنا .. ولسنا ندرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعيا والخطباء ؟ » .

ويذهب إلى أن « نشيد الإنشاد » الذى ينسب إلى سليمان قد يكون من وضع امرأة ، والحق معه فهل يعقل أن يقول سليمان :

« ها أنت جميل يا حبيبى وحلو وسريرنا أخضر .

أنا نرجس شارون ، سوسنة الأودية .

أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جدا .

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء .

حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن » .

وظلم اليهود سليمان وزعموا أنه مات كافرا بالله . وجاء القرآن الكريم لينصف داود وسليمان ويغسل عنهما وعن أنبياء الله أدران من كتبوا الكتاب بأيديهم . « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[١] .

كنت قد عزمت على أن أكتب تاريخ الأنبياء ما دمت أقص قصة الإسلام منذ إبراهيم الخليل إلى خاتم النبيين ، إلا أنى وقفت حائرا أمام أيوب فقد اضطربت الروايات فى العصر الذى ظهر فيه اضطرابا شديدا لم تضطرب بمثله فى شأن الزمن الذى ظهر فيه أى نبى من أنبياء الله ، قال بعض مؤرخى التوراة إنه ظهر فى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد أى إبراهيم الخليل الذى قدر أنه كان فى عام

---

(١) البقرة ٧٩ .

١٧٥٠ ق . م . وقال آخرون إنه كان فى عام ٤٥٠ ق . م . أى فى أيام السبى بعد أن حمل نبوخذنصر أسرى بنى إسرائيل ويهوذا إلى بابل ، وتأرجح مؤرخون وإخباريون آخرون بين هذين التاريخين .

قال الرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف فى بلاد العرب » Alarms and Explorations in Arabia : إن أيوب من أهل عمان . وقال الكاهن عزرا فى القرن الثانى عشر : إن أيوب ظهر فى نجد . وأجمع أغلب المؤرخين على أنه نبى عربى و لم يكن من أنبياء بنى إسرائيل.ومما جعل بعض شراح التوراة يقدرون أن زمن أيوب كان حوالى ٢٣٠٠ ق . م . أنه ذكر الأهرام والمدافن التى يبنيها الملوك لأنفسهم . وهذا الرأى لا يستند إلا على استنتاج من اليسير دحضه ، فكما أن ذكر الأهرام ومقابر الملوك ونقد تلك الأعمال يمكن أن يكون فى عصر بناة الأهرام فإنه يمكن أن يكون بعد ذلك العصر بقليل أو كثير ، ولا ينهض حجة على أنه كان فى نفس العصر . والقرآن الكريم يهدم هذا الرأى فهو يقرر أن أيوب من ذرية إبراهيم « .. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين »[1] .

ورأى بعض شراح التوراة أن أيوب يسبق عهد خروج بنى إسرائيل من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التى دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهوه » فى صلب كتابه . وهذا الرأى قريب من رأى الإخباريين المسلمين ، فقد قال الطبرى : إن أيوب كان نبيا فى عهد يعقوب ، وأنه جاء إلى مصر مع يعقوب والأسباط لما أرسل

---

(١) الأنعام ٨٣ — ٨٤ .

يوسف فى استدعاء أهله . وقال الإخباريون إنه من نسل العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

ويقول ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة عن سفر أيوب : « وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ، ولعل ذلك السفر قد كتب فى أيام السبى ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلى » . ويقول فيه كارليل وهو من أشد الناس تحمسا له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم .. فهو كتاب نبيل وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشكلة التى لا آخر لها ، مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض ... واعتقادى أن لا شيء فى التوراة أو فى غير التوراة يضارعه فى قيمته الأدبية » .

وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا ، ذلك أنه لما كانت الجنة لا وجود لها فى الديانة اليهودية القديمة ، فقد كان من الواجب المحتم أن تنال الفضيلة ثوابها فى هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيرا ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويفوزون وأن أشد الآلام قد اختص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثرون ثروة » ؟. ولم يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار ويثيب الأخيار ؟ وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأسئلة وهو أكثر ممن سبقه عزما وثباتا ، ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزا لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (فى فترات متقطعة) كما كان يعبده أيوب ، وكانت بابل تجحده وتكفر به ، ومع ذلك فقد ازدهرت بابل وتمرغ بنو إسرائيل فى الوحل ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا ، فماذا يقول الإنسان فى هذا الإلـه ؟

وجاء فى مقدمة لهذا السفر ، لعل كاتبا أريبا قد دسها فيه ليمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه : إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه

رجل محظوظ ، فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألوانا من المصائب على رأس أيوب ، ويظل البطل وقتا ما صابرا « صبر أيوب » ، ولكن صبره هذا يفارقه فى آخر الأمر ويفكر فى الانتحار ، ويلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . ويصر صوفر — وقد خرج ليستمتع بآلام صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح فى هذه الدنيا نفسها ، ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محتدا :

— إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه !. خيام المخربين مستريحة ، والذين يغيظون الله مطمئنون ، الذين يأتون بإلهم فى يدهم .. هذا كله رأته عينى ، سمعته أذنى وفطنت به .. أما أنتم فملفقو كذب أطباء بطالون كلكم ، ليتكم تصمتون صمتا ، يكون ذلك لكم حكمة .

ثم يفكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

— الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبا ، يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف ، .. لأن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف ولا تعدم حرا عيبها .. أما الرجل فيموت ويبلى ، الإنسان يسلم الروح فأين هو ؟ قد تنفد المياه من البحر والنهر ينشف ويجف والإنسان يضطجع ولا يقوم ... إن مات رجل أفيحيا ؟.

ويظل الجدل قائما بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه حتى يدعوه خصمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على نمط فلسفة ليبنتز Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلـٰهية ، وتوحى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تمت أقوال أيوب » بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل آراء أقلية جاحدة بين اليهود ، ولكن فيلسوفا آخر — أليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه : وأخيرا

يسمع صوت بين السحاب يتحدث حديثا هو أجل ما فى التوراة كلها :

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

ــ من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟ اشدد الآن حقويك كرجل فإنى أسألك فتعلمنى ، أين كنت حين أسست الأرض ؟ أخبرك إن كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطمارا ؟ على أى شيء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصباح معا وهتف جميع بنى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والضباب قماطه وضرمت عليه حدى وأقمت له مغاليق ومصاريع وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهنا تتخم كبرياء لججك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟.. هل انتهيت إلى ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ أدركت عرض الأرض ؟ أخبر إن عرفته كله؟.. أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد؟.. هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسلطها على الأرض... من وضع فى السماء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة؟

هل يخاصم القدير موبخه ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى .

وبذل أيوب نفسه لهول ما يرى ويرضى يهوه بهذا فيعفو عنه ويقبل تضحيته ، ويتوعد أصدقاء أيوب لما نطقوا به من حجج واهية ، ويهب أيوب نفسه أربعة عشر ألفا من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من الثيران وألف أتان وسبعة بنين وثلاث بنات ، وعاش هذا مائة وأربعين سنة . وتلك خاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ، لأن أيوب يحصل على كل شيء إلا جواب أسئلته ، فالمشكلة تظل باقية وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما بعد .

ويقوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أبو الأنبياء ، الخليل إبراهيم » ، ولم تكن حجته « أى أيوب » قط فى الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء فى مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء فى الجزيرة العربية وكلهم متفقون على أنه من أبنائها وإن اختلفوا فى مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعي التوراة من يضع سفرة بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بني إسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية مع كتاب العهد القديم .

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هى معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذى كان يطبع فى البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد . أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع فى العهد القديم ، فغاية فى السمو والكرم والتنزيه .

إنه ينكر عبادة الشمس والقمر ويصف الله القدير بأنه أعلى من السموات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والعبد قائلا : « أوَليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ » . ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطمع فى مال غير ماله .

وأجل من هذا شأنا تاريخ العقيدة الدينية أنه أول من نص على البعث فى كتب العهد القديم . وكانت تربيته الإلـٰهية التى انتهى منها إلى هذه العقيدة

تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقربين والأبناء . وتدرج من القول بالزوال والعدم إلى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان فى أول السفر يقول : « الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد » . ويقول : « الإنسان يضطجع ولا يقوم » ، و« إذا مضت سنوات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ، ويتساءل : « إن مات رجل أفيحيا ؟ » .. ثم انتهى من هذه التجارب إلى الأمل فى خلود النفس ولقاء الله : « فبعد أن يفنى جلدى هذا ويذوى جسدى ، أرى الله » .

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا فى موضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى إسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر من الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان . ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فإنه عزاء صالح للمتعزين ، وعبرة صالحة للمعتبرين . ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء العربية الدارجة فى مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد الغربيين بالإعجاب الأدبى الذى ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه إنه واحد من أجل الأشياء التى وعتها الكتابة ، وأنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التى لا تنتهى : قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلـٰهية معه على هذه الأرض . ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية .

وقال فيكتور هوجو : « إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان » .

وقال شاف Schaff : « إنه يرتفع كالهرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة ولا

نظير » .

كان اليهود قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، فنسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم فى المنفى ، نسوا الحياة الأخرى التى كانت دعوة جميع الأنبياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله فى الدنيا ، وأنه إذا ما ذهب إلى الهاوية ، كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده ، ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلتهم مع القدر .

إن مشكلة الإنسان وقدرته وتصرف الإلٰه معه على هذه الأرض لا حل لها إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته فى الأرض تتبعها حياة أخرى ترفع فيها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسيء ويثاب المحسن أجزل الثواب ، بيد أن اليهود كانوا يؤمنون بالهاوية وأن حياتهم الدنيا هى كل حياتهم ومن هنا جاءت الحيرة والقلق والشك والعذاب ، « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين »[1] .

وقال المفسرون إن ذا النون هو يونس بن متى وإن النون بمعنى الحوت وقد نسب إليه . واختلفوا فى مكان بعثه فقيل إنه كان فى نينوى وقيل فى فلسطين واختلفوا فى سبب ذهابه مغاضبا فقال قوم : ذهب مغاضبا لقومه وهى رواية الضحاك والعدنى عن ابن عباس ، وقال الحسن البصرى : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن ينظرهم ليتأهب للشخوص إليه ، فقال له الأمر أسرع من ذلك و لم ينظروا ، حتى سأل لمن ينظر إلى أن يأخذ نعله ... وكان رجلا فى خلقه ضيق فقال :

---

(١) القصص ٦١ .

أعجلني ربي أن آخذ نعلي ، فذهب مغاضبا . وروى ابن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال : انطلق إلى نينوى فأنذرهم أن العذاب الذى قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له : ألتمس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة وكان من أمره ما كان .

تضاربت الروايات فى شأن يونس ، فتارة جعلته يغضب من أجل نعله وتارة جعلته يغضب من أجل عدم السماح له بالتماس دابته .

وقيل مرة إنه بعث فى نينوى وقيل مرة إنه بعث فى فلسطين ، ونسبت كلتا الروايتين لابن عباس . ولما كانت أسباب غضبه فى تلك الروايات أتفه من أن تصدر من نبى فلم آخذ بها ، وبحثت فى القرآن عن ذى نون آخر فلم أجد إلا يوشع بن نون فتى موسى ، فقلت إنه ذهب مغاضبا لما تأخر فتح فلسطين وليغفر الله لى إن كان قد جافانى التوفيق .

وقبل أن أختم هذا التذييل أعود فأقول ما سبق أن أشرت إليه فى تذييل سابق من أن كتاب العرب يقاسون من محاولة إعادة كتابة الأسماء العربية التى كتبها الباحثون والمنقبون والمؤرخون الأجانب بأحرف لاتينية ، ويجدون مشقة فى إعادتها إلى أصلها العربى وغالبا ما يتعدون عن القصد ويجافيهم الصواب .

وجدت بعض مؤرخينا وبعض من قاموا بترجمة النصوص الآشورية يكتبون اسم الملك الآشورى الذى جاء بعد سلمنصر « تغلت فلاصر » مرة و« تقلت بلاصر » مرة أخرى و« تجلات بلاسر » مرة ثالثة ، ولا أدرى أى هذه الأسماء هو الصواب .

وكتب اسم الأميرة العربية Tabua التى حملت لتتربى فى البلاط الآشورى « تابوا » ولا أعرف حقيقة اسمها أهو « نبعة » أم اسم عربى آخر حرفه كتابته

بحروف لاتينية .

وكتب اسم القائد العربى الذى ثار على الآشوريين Vailtè يطع ، وفى بعض الكتب العربية يكتب « يثع » . أما ملك النبط الذى أسر يطع وحمله إلى آشور بانيبال بعد أن أجاره تقربا للملك الآشورى فلم أذكر اسمه ، لأنى لم أعرف كيف أكتبه بالعربية ، إن اسمه Matru ترى كيف كان عرب الشمال ينطقون هذا الاسم ؟

ولما عاد خزائيل إلى نينوى وقابل الملك الآشورى « أسر حدون » ــ وقال بعضهم إن اسمه « آشور أخى الدين » ــ استقبله بلطف وسلمه أصنامه الأسيرة . الآلهة Diblat ــ ترى أهى اللات ؟! ــ و Daja و Nuhaia و Ebrillu وعشتار ، و لم أهتد إلى حقيقة أسماء هذه الأصنام العربية فتركتها على كره منى وأنا أكتب قصة تلك الفترة . ترى أما آن الأوان أن يقوم متخصص عربى فى تاريخ هذه الحقبة ويحقق الأسماء العربية فى النصوص البابلية والآشورية ويعيدها إلى أصلها ؟ إنها خدمة جليلة تستحق كل ما يبذل فيها من تعب .

بدأت كتابة تاريخ فترة لم يعرف عنها المؤرخون ولا الإخباريون العرب شيئا وكان لهم عذرهم فقد اندثرت الحضارة التى قامت فى جزيرة العرب بعد الخليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله ﷺ ، وقد بدأت بطن الأرض تلد أسرارها فى تلك المنطقة ، وإنى لعلى ثقة من أن الأيام التالية ستكشف عن حقائق مذهلة توضح أثر تلك النهضة الروحية التى بثها فى المنطقة خليل الرحمن وذريته التى ظلت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ، و لم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بن عبد الله ﷺ بثلاثمائة سنة .

أشرك بنو إسرائيل بالله وموسى بينهم وعبدوا آلهة الشعوب فى كل العصور ، أما بنو إسماعيل الذين ظلوا حول الكعبة فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين أبيهم إبراهيم و لم تقع نكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف

سنة من بعثة الخليل ، وظلت ملة إبراهيم فى الحنفاء منهم إلى أن بعث الله رسوله ليعيد شريعة إبراهيم ناصعة كما كانت : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[1] .

القاهرة فى ١٠ — ٥ — ١٩٦٦

---

(١) النحل ١٢٠ — ١٢٣ .

المراجـع

قرآن كريم
الكتاب المقدس
تاريخ الأمم والملوك للطبرى
تاريخ ابن خلدون
قصص الأنبياء للثعلبى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للحافظ أبى الطيب الفاسى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى
مدن دارسة تأليف ليونارد كوترل
ترجمة عديلة حسن مياس
سيناء أرض القمر اللواء رفعت الجوهرى
الدولة العربية الكبرى محمود كامل المحامى
دراسات فى تاريخ الشرق القديم الدكتور أحمد فخرى
فجر الضمير تأليف جيمس هنرى برستد
ترجمة الدكتور سليم حسن
مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكة
ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر
مختصر دراسة للتاريخ تأليف أرنولد توينبى
ترجمة فؤاد محمد شبل

قصة الحضارة تأليف ول ديورانت
ترجمة محمد بدران

Seven Pillars of Wisdom. By T. E. Lawrence .

تاريخ العرب قبل الإسلام الدكتور جواد على

محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء تأليف محمد عبد الغفار الهاشمى

محمد (ﷺ) فى التوراة والإنجيل والقرآن
إبراهيم خليل أحمد

إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد

للمؤلف

ـــ أحمس بطل الاستقلال	
ـــ أبو ذر الغفارى	ترجم إلى الاندونيسية
ـــ بلال مؤذن الرسول	
ـــ فى الوظيفة	(مجموعة أقاصيص)
ـــ سعد بن أبى وقاص	
ـــ همزات الشياطين	(مجموعة أقاصيص)
ـــ أبناء أبى بكر الصديق	
ـــ فى قافلة الزمان	(رواية)
ـــ أميرة قرطبة	(قصة)
ـــ النقاب الأزرق	(قصة)
ـــ المسيح عيسى بن مريم	
ـــ أهل بيت النبى	
ـــ محمد رسول الله	

تأليف : مولاى محمد على

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

ـــ قصص من الكتب المقدسة	(مجموعة أقاصيص)
ـــ صدى السنين	(مجموعة أقاصيص)
	ترجمت إلى الاندونيسية
ـــ حياة الحسين	
ـــ الشارع الجديد	(رواية)

ـــ وكان مساء (قصة)

ـــ أذرع وسيقان (قصة)

ـــ المستنقع (قصة)

ـــ ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)

ـــ الحصاد (رواية)

ـــ جسر الشيطان (قصة)

ـــ النصف الآخر (قصة)

ـــ السهول البيض (رواية)

ـــ أم العروسة (قصة)

ـــ قلعة الأبطال (قصة)

ـــ وعد الله وإسرائيل

ـــ عمر بن عبد العزيز

ـــ هذه حياتى

ـــ الحفيد

ـــ ذكريات سينمائية

ـــ كشك الموسيقى

ـــ خفقات قلب

ـــ صور وذكريات

ـــ الإسراء والمعراج

ـــ القصة من خلال تجاربى الذاتية

ـــ عدو البشر

ـــ أبطال الجزيرة الخضراء

ـــ النمر

ـــ الله أكبر

- ثلاثة رجال فى حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب فى أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله ﷺ
والذين معه

فى عشرين جزءا

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

١ ـ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـ بنو إسماعيل
٤ ـ العدنانيون
٥ ـ قريش
٦ ـ مولد الرسول
٧ ـ اليتم
٨ ـ خديجة بنت خويلد
٩ ـ دعوة إبراهيم
١٠ ـ عام الحزن
١١ ـ الهجرة
١٢ ـ غزوة بدر
١٣ ـ غزوة أحد
١٤ ـ غزوة الخندق
١٥ ـ صلح الحديبية
١٦ ـ فتح مكة
١٧ ـ غزوة تبوك
١٨ ـ عام الوفود
١٩ ـ حجة الوداع
٢٠ ـ وفاة الرسول



رقم الإيداع ٥٠٤٧
الترقيم الدولى ٧ ـــ ٤٢١ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧